اليهود في العالم القديم

تأليف

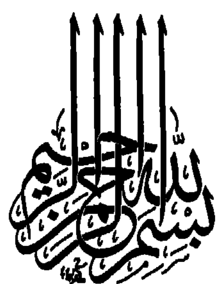
أ.د. مصطفى كمال عبد العليم

د. سيد فرج راشد

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

اليهود في العالم القديم



اهداءات ٢٠٠١

المرحوم أ.د. زكى على

القاهرة

اليهود في العالم القديم

تأليف

أ. د. مصطفى كمال عبد العليم
أستاذ التاريخ القديم
بجامعتي عين شمس، والملك سعود
كلية الآداب

د. سيّد فرج راشد
أستاذ اللغات السامية المشارك
جامعة الملك سعود
كلية الآداب

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطّبْعَة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

مقـدّمة الكتاب

قد يتساءل القارىء عن الهدف من إصدار هذا الكتاب؟ فإذا كان موضوعه تاريخ اليهود وأوضاعهم في فترات معينة من العصور القديمة، فهناك بلا شك مؤلفات كثيرة في لغتنا العربية وغيرها من اللغات تحقق هذا الغرض. بيد أن الهدف الحقيقي من كتابنا هذا، وإن كان يتضمن قدراً من تاريخ اليهود، هو محاولة تبيين الأسباب الحقيقية التي جعلت المجتمعات القديمة في فلسطين وفي خارجها تواجه اليهود بالرفض، ومحاولة التحقق من أنها هي الأسباب التي جعلت اليهود يجلبون على تلك المجتمعات التي ترفضهم الكثير من العَنَت والشقاء، ممَّا تسببت عنه تلك الحروب والمصادمات الدامية التي لا تكاد تتوقف، والتي راح ضحيتها الكثيرون ممَّن ناصبهم اليهود العداء، بل والكثيرون من اليهود أنفسهم، حتى نشأ ما حرص اليهود على تسميته خطأ بالعداء ضد السامية، وهو في حقيقة الأمر العداء ضد اليهود لا بوصفهم ساميين، ولكن بسبب عوامل أخرى كانوا هم الحافز لها، واستفزوا بها الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها بما جُبلوا عليه من طباع وسلوك نفَّرتها منهم.

ومن البدهي أن يتحرى المؤرخ، بما تفرضه عليه الكتابة التاريخية السليمة الدقة والحذر، ما أمكنه، في تصديقه لوقائع معينة ليكون موضوعياً في عرضه وتحليله لها. حتى كتبهم الدينية داخلها تغيير وتبديل، وأقنعوا العالم بصحتها، وبدعاوى الصهيونية ومزاعمها وروَّجوا لفلسفتها. وسيدرك هذا العالم غير العربي

أن الاعتراف لهم بأن من حقهم انتزاع أرض في قلب الوطن العربي لأنه وطنهم كما يَـرَوْن، إنما هو الخطوة الأولى في تحقيق الهدف الأكبر لإحكام سيطرتهم على العالم أجمع في صور شتى لن تفطن إليها الشعوب حتى تفاجىء بخطر داهم لن تستطيع دفعه. وعندئذ سيقع بينهما وبينهم الصدام الذي تحتمه حركة التاريخ. وستكون القوى التي تساندهم اليوم بدافع من مصالحها أو بدون وعي من ضحايا هذا الهوس الصهيوني وسيكتوون بنار تلك الصهيونية ويكونون وقوداً لها.

ونحن نكتب للعالم العربي وشبيبته من أبناء هذا الجبل لنضع أمامه صورة كاملة واحدة وحقيقية عن تاريخهم القديم، ليتعرف على لمحات من فكرهم وفهمهم للحياة حتى لا يُخدع بما حققه اليهود حتى الآن. ونريد أن نضع أمام هذه الشبيبة الحقائق المجردة بالرجوع إلى المصادر المعاصرة، سواء أكانت كتبهم الدينية نفسها أو ما كتبه مؤلفون يهود برعوا في مخاطبة العالم غير اليهودي من خلال تحليل للوقائع التاريخية تتفق مع أهوائهم وأهدافهم، وخُدع بهم مفكرون وكتاب ورجال سياسة فأسهموا بدورهم في الإشادة بدور اليهود الديني والحضاري، حتى كادوا أن ينسبوا إليهم الفضل الأكبر في قيام الحضارات القديمة بل والمعاصرة. وهذا تماماً ما توخاه اليهود في محاولتهم جذب المجتمعات المسيحية في الغرب لتساندهم في صراعهم الظالم مع العرب، وذلك بمحاولة حمل هذه المجتمعات على نسيان ما كان بين اليهود والمسيحيين في الماضي.

ولم يفت اليهود أن يحاولوا المحاولة نفسها مع الأرثوذكس في الشرق، وبطبيعة الحال يأتي اليونان في مقدمة المجتمعات الأرثوذكسية، وسيتبين القارىء عمق الخلاف بين اليهود والإغريق في العصور القديمة التي تناول هذا الكتاب دراستها بل وفي العصور التي تلتها.

وقد تركزت محاولات اليهود على إقناع يونان العصر الحديث بأن هناك أيضاً تاريخياً مشتركاً جمع بين اليهود واليونان، وأن هذا التاريخ في حاجة إلى دراسة

جديدة لتفهم أحداثه، بطريقة أفضل، حتى يستطيع الطرفان اليهودي والأرثوذكسي أن يتوصلا إلى إعادة تشكيل هذه العلاقات على النحو الذي يتيح لهما انتهاج سياسة تقرّب بينهما، وبذلك يستطيع اليهود أن يعتمدوا على الأرثوذكس اليونان في تبني وجهة نظرهم فيما يدور الآن من صراع في الشرق الأوسط (في فلسطين خاصة).

ونتوقف أمام مقال كتبه زفي أنكوري (Zvi Ankori) في مجلة (Journal of Ecumenical Studies, 1976 (13-4))، وكان هذا الكاتب وقت كتابته هذا المقال يشغل كرسي «تاريخ يهود تسالونيكي وبلاد اليونان» في جامعة تل أبيب، وعنوان مقاله:

«Greek Orthodox - Jewish Relations in Historic Perspective - The Jewish View».

ويتلخص هذا المقال في تعقب العداء الذي كان بين المجتمعين اليهودي والأرثوذكسي من جانب والدولة البيزنطية من جانب آخر. وكان لهذا العداء أبعد الأثر في كتابة تاريخهما. وحاول كاتب المقال أن يتبنى منهجاً معيناً ليُقحم فيه اليهود كعنصر من عناصر الصراع التي سادت في العصور الوسطى، فقال بأنه كانت هناك ثلاثة نظم كوَّنت جانباً من حضارة الغرب في العصور الوسطى وهي: الإسلام، والمسيحية البيزنطية، ومسيحية الغرب الأوروبي. كما أنه كان هناك ثلاث طوائف من اليهود وهم: يهود الشرق (السِفَرد)، ويهود الغرب (الإشكناز) واليهود الناطقون بالإغريقية والذين كُشف عنهم حديثاً. وبيّن أن هناك أربعة سمات شارك فيها الإغريق واليهود معاً، وهي أن كليهما من شعوب البحر المتوسط، وأنه كانت هناك مستوطنات يهودية في العالم اليوناني، وأن الفريقين اكتسبا خبرة حياة الشتات (Diaspora)، وأن الفريقين نجحا في المزج بين الدين والقومية، وكان لذلك أثره في التكوين الديني والعرقي للجانبين.

وحاول كاتب المقال بعد ذلك أن يوضح بأنه كانت هناك ثمة نقاط لإثارة الصراع والاحتكاك بين مصالح الإغريق ومصالح اليونان حُسم بعضها في الماضي

ولكن البعض الآخر لا يزال قائماً، وإذا كان هناك تنافس اقتصادي فإنه عامل ليس له قيمة لأن طبيعة الصراع من رأيه كانت لها عواملها القومية والدينية والسياسية.

وحاول الكاتب أن يثير كعادة بعض كتّاب اليهود مسألة ما لقيه اليهود من عنت في فلسطين في فترة السيادة البيزنطية، وأن يبرز ما لقيه اليهود واليونان معاً فيما أسماه فترة البطش التركي، ممّا نمّى في الفريقين نوعاً من الألفة والمودة وضحت في فترة الحرب العالمية الثانية، عندما اجتاحت قوات المحور بلاد اليونان ووجد اليهود تعاطفاً من جانب أهلها اليونان.

وهكذا نرى اليهود يعملون دائبين لطمس ما كان بينهم وبين مسيحي الغرب والشرق على السواء من نفور وصراع ليتناسوا كل ذلك، وليواجهوا جميعاً العرب كجبهة واحدة، فهم في خندق والعرب في خندق آخر. والمؤسف حقاً أنهم نجحوا في إقناع الفاتيكان أن يقيم مع دولتهم المغتصبة لأرض فلسطين وللقدس الحبيبة علاقات دبلوماسية. وهم يكسبون كل يوم موقعاً جديداً، ولا حاجة لنا إلى القول أن على العرب أن يُعيدوا حساباتهم، وأن يمعنوا النظر فيما جدّ من مستجدات على السياسة العالمية.

والله ولي التوفيق.

المؤلفان

الرياض ٦ محرم ١٤١٥هـ
الموافق ١٥ يونية ١٩٩٤م

المختصرات

اتبعنا طريقة اختصار بعض أسماء أسفار العهد القديم لكثرة الإشارة إليها في الكتاب، وذلك على النحو التالي:

اسم السفر	الاختصار
التكوين	تك
صمويل الأول	١ صم
صمويل الثاني	٢ صم
الملوك الأول	١ ملك
الملوك الثاني	٢ ملك
أخبار الأيام الأول	١ أخ
أخبار الأيام الثاني	٢ أخ

فهرس الخرائط **صفحات**

خريطة حملة ششنق الأول على فلسطين (٩٢٥ق.م) ١٠٣
خريطة أهم مدن فلسطين في القرن الثامن ق.م ١١٤
خريطة التغريب الآشوري لليهود ومناطق النفي في آشور وبابل ١٧٦

• • •

المصادر اليهودية في التشريع والتاريخ

الديانة اليهودية ديانة متطورة وليست ثابتة عند وضع معين على مرِّ العصور، فهي تتشكل ويزيد فيها التراث المكتوب، كما تتعدَّل فيها العبادات والشعائر بحسب الظروف، أما الإسلام فقائم على شيء ثابت وهو القرآن الكريم، ويمكننا تطوير المجتمع الإسلامي في حين لا يمكننا تطوير أي شيء في الدين، فتعالم الدين الإسلامي واضحة الأمر الذي يجعل المسلمين لا ينتظرون مسيحاً مخلِّصاً أو أي نبي آخر؛ بينما الديانة اليهودية تركت الباب مفتوحاً بعد موسى لدخول نصوص مقدسة، لها ما للتوراة من القدسية، مثل: أسفار الأنبياء، وكتب الحكمة، ثم إنهم كتبوا بعد ذلك المشنا والتلمود البابلي، والأورشليمي التي نالت ما نالت التوراة من القيمة والاهتمام من اليهود.

وإلى ظهور المسيحية لم يكن هناك من يؤمن بالعهد القديم سوى اليهود، وبالتالي اعتبروه كتاب التاريخ والسياسة والقومية والعصبية العنصرية والعقيدة والشريعة والتنظيم الاجتماعي، فلما ظهرت المسيحية اعتبرت هذا الكتاب ملكاً لها أيضاً، ونشرته، فأصبح اليوناني المسيحي أو الروماني المسيحي أو المصري القبطي يشارك اليهود في الإيمان بالعهد القديم ويخالفهم في تفسيره. وكان المسيح قد أذن بترجمته إلى بعض لغات العالم السائدة، وقال للحواريين: اتركوا اليهود وبشّروا من الأمم الأخرى بالشريعة (العهد القديم)، فانتشر الحواريون في أجزاء

كثيرة من حوض البحر الأبيض المتوسط هم وأتباعهم. وهكذا أصبحت حاجة اليهود ماسة إلى كتاب قومي وديني آخر يصلح للاحتكار ولا يمكن خروجه إلى غيرهم، فبدأ الاهتمام بالشريعة الشفوية وبشرحها فيما نسمّيه المشنا والتلمود، وكان هذا بعد أن رأى اليهود أن سرّ كتابهم المقدس (العهد القديم) قد انتهك بقص قصصه بل وترجمته الحرفية بلغات الأمم الأخرى.

ويبدو أن مفهوم المسيحيين للعهد القديم روحاني أكثر من مفهوم اليهود الذين ينظرون إلى العهد القديم من منظور سياسي واجتماعي وعشائري.



العهد القديم: (Old Testament)

منذ القدم كان الجهد الرئيسي للعبريين جيلاً بعد جيل يتجه إلى الاحتفاظ بالأسفار التي تشتمل على التاريخ القومي والديني لهم لكي تكون مرآة للأجيال اللاحقة. وقد استنفذ ذلك حوالي ألف عام جمعت فيها هذه الأسفار، فكوَّنت موسوعة من الشعر والنثر تشتمل على الحكمة والأمثال والقصص والأساطير والفلسفة والتشريع، نعني بذلك العهد القديم، وكان غرضهم من تصنيفه دينياً أكثر منه أدبياً.

والعهد القديم في صورته التي وصل إلينا بها يحتوي على ثلاثة أقسام رئيسية هي: التوراة، وأسفار الأنبياء، وكتب الحكمة (أو المكتوبات).

وإذا كان العهد القديم قد بدأ بالأسفار الخمسة: (سفر التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية المعروفة بالتوارة، إلاَّ أن بقية الأسفار الأخرى قد جمعت بترتيب منهجي حسب مادتها وليس بترتيب تأليفها.

وسفر التكوين أول أسفار التوراة يحدثنا عن الأصول الأولى للحياة البشرية، ويتدرج بنا حتى يوضح لنا علاقة العبريين الأولى بإبراهيم عليه السلام، أما سفر الخروج فتسيطر عليه شخصية موسى وقصة خروجه من مصر وإعلانه الشريعة من جبل الطور في سيناء، أما السفران التاليان وهما اللاويين والعدد فهما يحتويان على مزيد من أحكام الشريعة والطقوس الكهنوتية، كما يُوردان انحراف العبريين

وعصيانهم عن متابعة خطى موسى، ووصول العبريين إلى نهر الأردن، مع سرد إحصائي للعبريين الذين رافقوا موسى عبر صحراء سيناء. أما آخر الأسفار الخمسة سفر التثنية فهو الذي يعني إعادة الشريعة وتكرارها على بني إسرائيل للمرة الثانية، منذ خروجهم من سيناء. ووصولهم إلى جنوب الأردن، وهي آخر الأحكام التي فرضها موسى قبل وفاته في أرض مؤاب وأرض الميعاد على مرأى عينيه.

وتوراة موسى في وضعها الذي وصلت به إلينا تشكل مشكلة معقَّدة تنطوي على أخطر المشاكل النقدية، حيث تنسب الروايتان اليهودية والمسيحية القديمة تأليف الأسفار الخمسة المعروفة بالتوارة في صورتها الحالية إلى موسى، وهذا يجعلها في صدر العهد القديم من حيث ترتيب التأليف والترتيب الزمني لمادتها. فالتوراة لم تكتب إلاَّ بعد وفاة موسى بحوالي ألف سنة، ولم تكتب أثناء السبي البابلي في القرن الرابع قبل الميلاد، بينما عاش موسى في القرن الثالث عشر ق.م على وجه التقريب، ولسنا ندري على وجه اليقين، إذا كانت عبرية هذه التوراة قد احتفظت بالسمات الأولى للعبرية التي كان يتحدثها موسى، هذا إذا افترضنا أن موسى كان يتكلم العبرية أو بلغة سامية أخرى. ومن المعروف أن موسى خرج من مصر ولا توجد شواهد أو أدلة على وجود اللغة العبرية أو أية لغة سامية أخرى في مصر في هذا العصر.

وإذا كنا لا نعرف معرفة يقينة اللغة التي تلقّى بها موسى الوصايا العشر، وحتى على افتراض أنها العبرية، فالذي لا شك فيه أنها كانت تختلف اختلافاً شديداً عن عبرية الأسفار الخمسة (التوراة).

أما أسفار الأنبياء ــ وهو القسم الثاني من العهد القديم ــ فيتضمن استمراراً لتاريخ العبريين بعد وفاة موسى، وغزوهم لفلسطين بقيادة يوشع بن نون.

وتنقسم أسفار الأنبياء إلى جزأين أساسيين: الأنبياء الأول، والأنبياء المتأخرين.

وتوضح أسفار الأنبياء الأول تاريخ العبريين على أنهم الشعب المختار من خلال وجهة النظر الدينية، كما تشتمل تاريخ مملكتي يهوذا وإسرائيل وسقوطهما. بينما أسفار الأنبياء المتأخرين امتازت بأنها فسَّرت التاريخ العبري تفسيراً ذاتياً.

فقصة غزو فلسطين على يد يوشع ترد في السفر الذي يحمل اسمه، ويستمر سفر القضاة في سرد الأحداث التي أعقبت غزو العبريين لفلسطين في ظل زعامات عارضة لسلسلة من القادة العسكريين عرفوا باسم القضاة.

أما أسفار صمويل والملوك فتسرد سرداً تاريخياً لفترة مملكة بني إسرائيل أيام شاءول وداود وسليمان، ثم يرد بعد ذلك تاريخ مملكتي يهوذا وإسرائيل من وجهة النظر الدينية. كما أن سِفْري أخبار الأيام يُوردان صورة مكمِّلة لتاريخ مملكة يهوذا وفي نفس الوقت موازية للمعلومات التي وردت في سفري الملوك، وإن كان هناك تكرار في سرد بعض الأحداث. وتعرض لنا أسفار الأنبياء الأخر أنباء سقوط مملكتي إسرائيل ويهوذا، وبسقوط مملكة إسرائيل من عام ٧٢٢ ق.م ومملكة يهوذا من عام ٥٨٧ ق.م. ينتهي تاريخ العبريين الذي يسرده العهد القديم. أما سفْرا عزرا ونحميا ـــ على وجه الخصوص ـــ فهما يتعرضان للأحداث اللاحقة، وذلك بسرد أهم المعلومات عن العودة من السبي البابلي.

أما كتب الحكمة (كتوبيم) ـــ وهو القسم الثالث من العهد ـــ فإنها تعود في معظمها إلى مأثورات شعبية، أغلبها كتابات شعرية الطابع، تقوم على القالب الشرقي الذي يميزه نظام التوازي بين الأجزاء المتتابعة. وأهم هذه الأسفار التي يغلب عليها الطابع الأدبي مزامير داود، وأمثال سليمان، ونشيد الأناشيد، وسفر إستير، وسفر الجامعة أوقُوهِيلِث.

وبعد أن عرضنا لأقسام العهد القديم الثلاثة: ـــ التوراة والأنبياء وكتب الحكمة ـــ نجد أن هناك أسماء اشتهر بها العهد القديم، أهمها «التناخ» وهو

اختصار للكلمات المكونة لأقسام العهد القديم. توراة، الأنبياء، الكتب. وكذلك يستخدمون مصطلح «المقرا» وهي تعني النص المقروء ـ في عباداتهم ـ ، وهناك مصطلح ثالث له صبغة علمية وهو «المِسُورِتْ» وهو يعني النص المقدس المروي عن الأسلاف بالصورة التي أجمع عليها معظم طبقات الحكماء بعد أن محصوا هذه الروايات.

ومن المهم أن وضح أن «المِسُورِت» لا تعني فقط نسخة العهد القديم التي ترجع إلى عزرا، ولكن يُقصد من ذلك النسخة التي تمَّ ضبطها بالحركات وتقسيمها إلى أسفار وفقرات. ومؤدى هذا كله أن «المسورت» أصبحت النص المعترف به في صورته المتكاملة، وذلك بعد أن مرّ بمراحل عديدة لتمحيص المرويات وتنسقيها بمعرفة العلماء لفترة طويلة امتدت حوالي ألف عام، منذ حوالي القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثامن الميلادي.



المِشْنا : (Mishnah)

هي مجموعة الأحكام الفقهية المستمدة من العهد القديم ومن أقوال المفسرين له، التي أخذها الخَلَف عن السَلَف عن طريق الرواية الشفوية، ويعتبرها اليهود مصدراً من مصادر التشريع يأتي في المقام الثاني بعد التوراة مباشرة، ويرى البعض أنها ترتفع إلى موسى عليه السلام، ولكن هذا الرأي لا يقوم على أساس متين، ونظراً لأنها كانت مجموعة من الشرائع المروية فهم يسمونها «التوراة الشفوية».

وأغلب الظن أن الروايات الأولى لشرائع المشنا بدت بعد السبـي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد، ولكن هذه الروايات كان يسودها الفوضى حتى القرن الأول قبل الميلاد، حتى قام «هليل» رئيس السنهدرين ــ المجلس الديني الأعلى ــ في أيام هيرودس أمير اليهود بتقسيم هذه المرويات إلى أقسام المشنا الستة المعروفة، ثم أكمل بعده الرَبـي «عقيبا» التفاصيل الجزئية داخل أقسام المشنا، ثم تلاه الرَبـيّ «مئير» الذي أضاف مزيداً من شرائع المشنا. ويرجع الفضل إلى الرَّبـيّ «يهوذا هاناسىء» في إتمام المشنا وترتيبها وكتابتها في وضعها الحالي، وكان ذلك قرب نهاية القرن الثاني بعد الميلاد.

وإذا كانت عبرية العهد القديم تعتبر الصورة المثالية الكاملة للغة العبرية عند اليهود، ويتمثل أسلوبها الناضج المتكامل في سفر إشعيا وإرميا وحزقيال، فهذه ذروة التطور من العبرية الفصحى، فإن لغة المشنا تعتبر تطوراً للغة العبرية القديمة، فقد دخلتها ألفاظ دخيلة من الفارسية والبابلية واليونانية واللاتينية والعربية، فضلاً عن الآرامية التي ازداد تأثيرها حتى أصبح تركيب اللغة تركيباً آرامياً.

وبالإضافة إلى المشنا نجد هناك بعض النصوص التي استوقفتنا لأنها ليست مكتوبة ضمن المشنا، ولكنها ذات صلة وثيقة بها، وهذا ما يعلل ذكر التلمود لها، واسترشاد علماء الشريعة بها في أغلب الأحيان، وهي:

١ ـ التوسيفتا (Tosephta): ومعناها الإضافة أو الزيادة، وهي عمل تشريعي يحمل بعض الإيضاحات والتفاسير المكملة للمشنا، وهي تشتمل على ستين فصلاً. وبعض المصادر ترجعها إلى منتصف القرن الثالث.

٢ ـ المخيلتا: تعني المكيال أو المقياس وهي تشتمل على تسعة أقسام، وتنسب إلى الرِّبـيِّ إسماعيل ومدرسته التي قامت من القرن الأول الميلادي، وهي في صورتها الحالية تعود إلى القرن الرابع، وربما القرن الخامس الميلادي.

٣ ـ السفرا (Siphra): بمعنى الكتاب ويسمَّى أيضاً توراة الكهنة، وأسلوبه يقوم على الجدل، وهو في الأغلب الأعم تفسير لسفر اللاويين، ثم أضيفت إليه إضافات قانونية على أيدي علماء الشريعة بعد الربـيِّ عقيبا، ومن أشهرهم «أبا أريكا».

٤ ـ سفري (Siphre): وهو كتاب يعني بشرح الأحكام والفتاوى الشرعية التي وردت في جزء من سفر العدد وكل سفر التثنية، وعلى ذلك يقع الكتاب في جزأين. ويُروَى في التلمود أن فصول الكتاب غير المنسوبة إلى عالم باسمه من علماء الشريعة، تعتبر منسوبة إلى الربـيِّ شمعون بن يوحاي المعاصر للربـيِّ عقيبا.

٥ ـ البرايْتا (Baraita): وتعني الكتاب الخارجي، وهو يتضمن شرائع من عصر التلمود، ومن المرجَّح أن بعضها كان يُروى من ضمن المشنا، ولكن الحَبْر يهودا هناسيء رفضها عندما كان يرتب المشنا ويكتبها في وضعها الحالي، فدونت في كتاب مستقل عُرف بالبريتا.

المدراش: (Midrash)

الشريعة الموسوية كانت موضع تفسير، والتفسير مع الزمن كانت له مناهج، وكل هذه المناهج مترجمة من المدراش، فالمدراش إذن هو مجموعة مُشْهبة من تفاسير أحبار اليهود على الكتاب المقدَّس اليهودي (العهد القديم)، وكانوا يتبعون فيه منهجين: الأول ويسمى مدراش أجاده وهو يعني بالجانب الأسطوري والقصص والأمثلة القومية للشعب الإسرائيلي ويسمونه أيضاً المدراش القصصي، أما المنهج الثاني فيسمَّى مدراش هالاخاه وهو يهتم بتفصيل الأحكام والفتاوى الشرعية في الأحوال الشخصية والمعاملات والجنايات ويسمون المنهج الثاني أيضاً منهج الشريعة.

وتنقسم مذاهب التفسير التي اتبعها فقهاء الشريعة إلى أربعة مذاهب هي:

١ ـ مذهب التفسير البسيط: وهو يقتصر على شرح الألفاظ اللغوية في النص وذكر مضمون الجملة باختصار وذلك بعد حل صعوبات التركيب.

٢ ـ التفسير الرمزي: تؤخذ فيه الحوادث على أنها إشارات ورموز لأشياء أخرى، وهذا فتح الطريق لوضع كل ألوان التعصب القومي الذي ظهر بعد ذلك وحمله على أنه أوامر من التوراة. وتكثر في هذه التفسيرالأجاداه (الأساطير) وتقلّ فيه الهالاخاه (أحكام الشريعة).

٣ ـ التفسير الاجتهادي: تفسير الفقرات حسب المعنى الظاهري.

٤ ـ التفسير السِّري (الباطني): ينبني على نوع من النظرة الرياضية للحروف.

التلمود : (Talmud)

هو الشرح الحقيقي للشريعة الموسوية، فعندما انتهى الربيّ يهودا هناسىء من ترتيب أقسام المشنا وكتابتها في صورتها الحالية، انحصرت جهود فقهاء الشريعة في شرحها في مراكز تجمعهم من بابل، كما تركزت جهود بقية علماء اليهود من فلسطين على شرحها أيضاً. وهكذا بدأت طبقات متعاقبة من أحبار اليهود في شرح نص المشنا شرحاً وافياً مع إضافة كل ما يعنُّ لهم من أساطير وخرافات ومناقشات وبحوث ونتائج من الأحكام المستنبطة من التوراة، دون تخطيط واضح.

وشُرّاح المشنا هم أحبار التلمود يشرحونها بلهجة آرامية يهودية قريبة من السريانية. وكان شرحهم يسمى «جمارا Gemara» ومعنى الكلمة الإتمام أو التكملة وهي مشتقة الفعل جامر (גָּמַר) بمعنى أكمل، وأحبار التلمود الذين شرحوا المشنا أُطلق عليهم «أمورائيم Amoraim» ومعناها «المتكلمون»، وهي استمرار لطبقات «التنائيم» الذين كانوا يروون المشنا حتى دوّنها يهودا هناسىء. ويجدر بنا أن نوضح أن «الجمارا» كانت مبنية على روايات وأحاديث ومناظرات بين فقهاء التلمود وتحتوي أيضاً على إيضاحات وشروح وتفاسير على المشنا، وكذلك تشتمل الجمارا على أمور هامة غير الإيضاحات كالأمثال ومعلومات دنيوية وطبية وفلكية وغيرها، والجمارا بذلك تعتبر بمثابة دائرة معارف خاصة بكل ما يتعلق بحياة اليهود الدينية والدنيوية والأدبية.

ومن نص المشنا (وهو مكتوب بعبرية متطورة) ونص الجمارا (وهو مكتوب بلهجة آرامية يهودية) يتكون ما يسمى بالتلمود.

وكما ذكرنا فإن التلمود نشأ من بيئتين مختلفتين، ممّا أدّى إلى ظهور نسختين من التلمود، فالتلمود الأورشليمي كانت مدارسه مستقرة في فلسطين التي كانت تحت الحكم البيزنطي، فعندما أعلن الإمبراطور قسطنطين المسيحية ديناً للدولة توقف العمل في مدارس التلمود الأورشليمي حوالي عام ٣٥٠م، بينما كان اليهود مطمئنين في بابل التي تدين بالمجوسية، ولذلك استمر شراح المشنا حتى انتهوا من شرحها وإتمام التلمود البابلي حوالي عام ٥٠٠م. ويتميز التلمود البابلي بشرحه أقسام المشنا الستة، بينما التلمود الأورشليمي لم يشرح إلاَّ ثلاثة أقسام من المشنا وجزءا من القسم الرابع.

إلى جانب هذا نلاحظ أنه إذا كانت المشنا كما ذكرنا هي حصر العبادات والطقوس والشعائر والمعاملات، وهي فقه مروي بالعنعنة، فعندنا في التلمود «جمارا هالاخاه» كلها وهي التفسيرات الشرعية الفقهية للمشنا، وكذلك «جمارا أجاداه» جاءت كلها من الأساطير وخاصة أساطير الفرس واليونان، ومادة الهالاخاه ومادة الأجاداه تسيران في التلمود جنباً إلى جنب.

ومن المهم أن نوضح أن التلمود هو كتاب الفكر القومي اليهودي، ولذلك فأسس إقامة الصهيونية قائمة في هذا الكتاب حتى أن أحد كبار كتابهم آحاد هاعام قال: إن الوطن القومي لليهود هو التلمود، وقد أصبح للتلمود قداسة كبيرة من نظر اليهود تفوق أحياناً توراة موسى.

• • •

الفصل الأول

الأسلاف ومجيئهم إلى كنعان

* الشك المتعلق بآثار وتاريخية الأسلاف.
* المرحلة الأولى من العصر الأوسط.
* المرحلة الثانية « أ » من عصر البرونز الأوسط.
* الأسلاف والمرحلة الأولى من عصر البرونز.
* الأسلاف والمرحلة الثانية من عصر البرونز الأوسط وعصر البرونز الحديث.
* يعقوب ودخول بني إسرائيل إلى مصر.
* موسى والخروج من مصر.
* مخالفة السياق القرآني لقصة هارون والعجل الذهبي في التوارة.
* التميهد لغزو كنعان.
* الغزو الإسرائيلي لكنعان.

الشك المتعلق بآثار وتاريخية الأسلاف

عندما يتصدى الباحث لدراسة تاريخ اليهود وأوضاعهم، يجد نفسه أمام مُسمَّيات عُرفوا بها في فترات من ذلك التاريخ، فتارة هم العبريون[1]، وتارة أخرى

---

(١) أرفاخساديس (وهو أرفاكْشَاد في التوراة) بن سام، ثالث أبناء نوح عليه السلام، قد أطلق على الأقوام التي حكمها الأرفاخساديس «وهم كنعانيو اليوم»، وفي تعليق مترجم يوسيفوس أن يوسيفوس رأى من المقطع الثاني من الاسم خيسيد (Chesed) (تك ١٠ : ٢٢) ومنها خشديم (أوكسديم) (Chasdim) الاسم التوراتي للكلدانيين.

H.ST. Thackey, Josephus. L.C.L. Vol; IV, p. 70.

راجع (تك ١٠ : ٢١) عن أولاد سام.

ويقول يوسيفوس أيضاً أن أرفاخساديس بن سام هو جد عابر (Heber) وباسمه سمى اليهود بالعبريين (Hebrews) (Jos Ant I. 143-146).

وولد لعابر ولدان: أحدهما فالج الذي أنجب رَعُوَ الذي أنجب بدوره سَرُوج الذي أنجب ناحور وأصبح له ولد اسمه تارح، وتارح هو والد إبراهيم وهو العاشر من سلالة نوح، وقد ولد إبراهيم في عام ٩٩٢ بعد الطوفان. (Jos Ant I. 148).

راجع (تك ١١ :١٨) وما بعدها.

وحسب رواية يوسيفوس كان لإبراهيم شقيقان هما: ناحور، وهاران، وكان لهاران ولد هو لوط وبنتان هما سارة وميلخا، وقد مات هاران في كالديا في مدينة اسمها أور الكلدانيين.

راجع (تك ١١ :٢٧)، (Jos. Ant I. 151)، وقد كره تارح كالديا لوفاة ابنه هاران بها، وهاجروا جميعاً إلى خرّان (وهي حران في التوراة) وفي اللاتينية (Carrhae) بالقرب من أديسا (الرها) في أرض الجزيرة، في وسط العراق، حيث مات تارح فيها وبها دفن. (Jos. Ant I. 152).

هم بنو إسرائيل، وذلك منذ أيام يعقوب[١].

ويحتاج الأمر إلى بعض التوضيح ممّا يتطلب محاولة التعرف إلى أصولهم الأولى، فاليهود حريصون على تأكيد ارتباطهم بأبـي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، حتى أننا نجد فريقاً من مؤرخي العصر الهلينستي يبرزون اسم إبراهيم إلى جانب موسى عليهما السلام عند حديثهم عن أصل اليهود.

ونحن مضطرون قبل تحديد العلاقة بين نبـي الله إبراهيم عليه السلام وبين اليهود وتحديد الزمن التاريخي الذي ظهر فيه، إلى مسايرة ما روته عنه التوراة وما ورد فيها عن قومه الذين ارتبط بهم، ولن نحاول أن ندخل من مناقشات طويلة حول هذه المسائل وما يتصل بها إلاّ في أضيق الحدود.

ومن الصعب إعادة بناء الفترة الباكرة من تاريخ شعب من الشعوب وتحديد الزمن الذي ظهر فيه على وجه اليقين. وبداية تاريخ العبريين وتحديد تاريخ إبراهيم والآباء مسائل جدلية في المقام الأول، فإذا قال البعض أن هذه الفترة من تاريخ العبريين هي تاريخ فلسطين قبل يوشع بن نون، فإنه من المفيد حقاً لو استطعنا تحديد الزمن التاريخي لظهور هؤلاء القوم. وبالمقابل تخضع للجدل والمناقشة أيضاً ما يقال عن وجود ثقافة عبرية متميزة أو ما يسمَّى بوجود عرقي للشعب اليهودي[٢].

وإذا كان الأمر يتعلق بتاريخ العبريين قبل موسى عليه السلام فمصدرنا سفر التكوين، وإن كان البعض يرى أنه لا يُقَدِّم بقدر كاف تاريخ أجداد الإسرائيليين، إنما يعرض لتاريخ سلالة إبراهيم عليه السلام.

يتضمن سفر التكوين الإصحاح الخامس سلسلة نسب إبراهيم عليه السلام،

---

(١) ويبدو أن كلمة «بني إسرائيل» أصبحت اسماً لليهود منذ أيام يعقوب على أساس أنها كنية له معناها «قوة الله».

(٢) J.H. Hayes & J.M. Millar (edidors): Israelite & Judaean History, London, 1977, P. 121.

في حين يتناول الإصحاح الحادي عشر بالحديث عن سلسلة أخرى لنسبه حتى تتوافق مع ما جاء في القصص الذي تضمنته الإصحاحات من السادس إلى العاشر، وما جاء في الإصحاحين الخامس والحادي عشر بخصوص نسب إبراهيم عليه السلام يوحي بأن سلستي النسب في الإصحاحين كانتا أصلاً جزءاً من وثيقة واحدة اشتملت على الرواية القديمة عن الأصول الآرامية لإبراهيم[1]، وكانت هاتان السلسلتان مَعْبراً إلى قصص عن الآباء.

فإبراهيم كما صورته إصحاحات سفر التكوين ينتمي إلى أسرة رَعَوية تزعّمها أبوه[2] تارح، كان موطنها الأصلي في حران شمال غرب بلاد ما بين النهرين فيما يلي نهر باليخ (أو باليخي)، وهو فرع من نهر الفرات. وكذلك نجد أن اسم ناحور الذي أطلق على جد إبراهيم يُنسب أيضاً إلى أخيه، وكان ناحور في الأصل اسماً لمدينة عرفت من قوائم ماري (القرن ١٨ ق.م) وهي إقليم حرّان. وواضح أيضاً من اسم سيروج (Serug) الذي أطلق على جد إبراهيم، أنه كان اسماً لمكان في نفس المنطقة[3].

---

(١) الآراميون هم أصلاً بدو أو أنصاف بدو جاءوا من أطراف الصحراء العربية السورية حوالي ١٢٠٠ ق.م، وهم عنصر انبثق عن العنصر الكنعاني الحوراني في فترة عصر البرونز الحديث، وهم في ذلك مثل الخابيرو والشاسو الذي تفرعوا من ذلك العنصر، وارتباط إبراهيم ومَنْ خلفه مِنَ الأسلاف بالآراميين يستند أساساً إلى الرواية الآرامية التي جاءت في التوراة (تك ٢٥، ٢٦، ٢٨: ١ ــ ٥، ٣١: ٢٠، ٤٧) وكذلك في سفر التثنية ٢٦: ٥.

(٢) C. Cornfeld, Archaeology of the Bible: Book by Book, New York, 1976, P. 11.

(٣) Ibid: PP. 11-12.

قد يكون التوافق بين اسم شخص ومدينة ما من باب الصدفة، ولكن الأمر ليس كذلك في المنطقة التي جاء منها إبراهيم، وهذه الأسماء التوراتية لإخوة إبراهيم وأبنائه ربما كانت أسماء قبائل الأسلاف، قد أعطيت للمدن التي أسسوها أو أنهم استعاروها من المدن والقرى التي احتلوها في فترة الاضطرابات حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م.

وتبادل الاسم بين المكان وبين شخص ما كان ظاهرة عامة في الشرق القديم، وفي جميع الحالات كان ذلك يعكس اتصال أسرة إبراهيم عليه السلام بمنطقة حران، ويؤكد ما جاء في الروايات من أنها كانت موطن تلك الأسرة لفترة طويلة من الزمن.

والنص الحالي للعهد القديم (سفر التكوين ١١: ٣١) يذكر هجرة تارح من أور الكلدانية، في حين أن نص الترجمة السبعينية لا يتضمن أي إشارة إلى مدينة على الإطلاق، ولذلك فإن بعض الباحثين يرى أن ذكر أور هنا (تكوين ١١: ٢٨، ٣١) إنما هو من قبيل الخطأ أو إضافة متأخرة، بينما يشير آخرون إلى الكلمة في النص العبري (אוֹר) أور والكلمة في نص الترجمة السبعينية (אֶרֶץ) (أرض)، وقد نشأت الكلمة أور في النص العبري بحذف حرف الضاد من الترجمة السبعينية، وعلى ذلك تكون هجرة تارح (تكوين ١١: ٣١) وقومه من أرض الكلدانيين في بابل بالقرب من حران[١]. ويرى البعض أن أور كانت مدينة تقع من موقع تل الموقير في منتصف الطريق بين بغداد ورأس الخليج العربي، في حين أن البعض الآخر يفضل القول بأنها كانت تقع من منطقة حران شمال العراق القديم وعلى بعد مائتي ميل شمالها، وقد يؤدي ذلك إلى أن منطقة حران ــ أورفه شمال العراق ــ سميت بالمنطقة الآرامية الكلدانية حتى نهاية العصر الفارسي الآخيميني، فضلاً عن حران وأور كانتا مركزين لعبادة إله القمر (سن).

ولم يظهر الكلدانيون من جنوب العراق إلاّ في عصر متأخر جداً، ولما كان هناك تأثير واضح من بابل في الأسفار الخمسة عن الخليقة وأصل الكون والطوفان، فإن هذا يوحي بأن قوم إبراهيم تأثروا في معتقداتهم بالمعتقدات البابلية

---

(١) S. Ernest Wright: Biblical Archaeology, G.B, 1979, P. 41.

S. Hermann: A History of Israel in O.T Times, SCM, 1975, P. 44.

ولم يتكلموا عن معتقدات الكنعانيين[1].

ويتساءل البعض ما إذا كانت «أور كاصديم»، هي أور تل الموقير جنوب بابل هي أور إبراهيم، فَلِمَ لم تشر الألواح التي عثر عليها في ذلك الموقع إليه ولا إلى قومه[2]. وقد نلتمس العذر لمن يرى في تل الموقير موقع أور كاصديم، لأن أور اكتسبت شهرتها من أنها مسقط رأس أبي الأنبياء، وكان لها مكانتها في التراث الأدبي عند اليهود والمسلمين. وقد تابع أصحاب هذا الرأي العالم الأثري ليوناردو ولي بين عامي ١٩٢٢ ، ١٩٣٤ الذي كشف من موقع تل الموقير عن مدينة باسم أور تدلُّ آثارها على أنها كانت على مستوى حضاري رفيع، حتى أنه قدّر عدد سكانها ما بين خمسة وعشرين وخمسين ألف نسمة. وعلى أي حال فإن أور تل الموقير هذه تدهورت عندما اكتسح العيلاميون أرض سومر ١٩٦٠ ق.م[3].

وحتى بعد أن ذهب تارح بقومه إلى حران (كانت مزدهرة في القرنين ١٩ ، ١٨ ق.م) لم يكن في نيته الاستقرار بها أو على الأقل لم يكن في استطاعته ذلك، لأن المنطقة كلها كانت تجتاز فترة من عدم الاستقرار والقلق، فبينما كان

---

(١) راجع: O. Essfeldt: «Palestine in The Time of The Nineteenth Dynasty», (a) The Exodus and Wanderines, C.A.H, Vol II, 1975, II 12, P. 9.

(٢) والتوراة (سفر التكوين) ربط إبراهيم بحرّان ويتحدث عن ارتباط إسحق ويعقوب بها، وربما كان ذلك ذكرى أصلية حقيقية، بالرغم من أنه من الممكن ارتباط إبراهيم وإسحق ويعقوب بأرض الجزيرة يعكس حقيقية أنها كانت الموطن الأصلي لكل الساميين، كذلك وإن كان سفر التكوين ١١ : ٢٨ ــ ٣١ يظهر تارح والد إبراهيم مرتبطاً بأور كاصديم. والمهم إظهار أن رواية تحرك تارح في هذه المدينة لم يكن مجرد قصة رسخت في ذهن الشعب اليهودي لحدثٍ لعلّه كان قد وقع بالفعل، بل تعكس الصلة الوثيقة بين أور وحرّان باعتبارهما مركزي عبادة إله القمر. (O. Eissfeldt: C.A.H II\2, 1975, P. 9).

(٣) وليس هناك ما يمنع اعتبار أن جماعة من البدو أو أشباه البدو أسلاف إسرائيل، قدمت إلى أوركاصديم أثناء ترحالها ومنها ذهبت إلى حرّان. (Wooley: Op.Cit, P. 9).

العيلاميون يبسطون سيطرتهم على سومر في الجنوب، كان العموريون[1] يجتاحون المنطقة من الغرب، وكانت حران في طريق المغيرين، فكان على تارح أن ينجو بنفسه وقومه، واختار أرض كنعان مستقراً له ولقومه، فأكمل ابنه إبراهيم الرحلة معهم إلى تلك الأرض التي تحقق لهم الحياة المطمئنة، وإن كان بالنسبة لإبراهيم ــ بما تميزت من طبيعة جغرافية أهم معالمها التلال التي تنتشر في وسطها وجنوبها ــ تمثل منطقة بعيدة عن الصراعات يستطيع أن يتعبَّد فيها بسلام.

وبفضل موقعها على مفترق الطرق التجارية في الشرق القديم يستطيع منها أن ينشر دعوته، ولكن هذا لا يمنع من أن كنعان اختيرت لتحقيق أهداف اقتصادية، وإذا صدقنا ما جاء في سفر التكوين (١٣ : ٢) فإن إبراهيم كان يمتلك عدداً كبيراً من

---

(١) غزوة العموريين (الأموريين) حوالي عام ٢٠٠٠:
قبل عام ٢٠٠٠ ق.م وبعدها بقليل اجتاحت جميع أقطار الشرق القديم غزوات متبربرة، أوقفت إلى حين التطور الحضاري بها، بما في ذلك عصر بناة الأهرام في مصر، وأطلق عليهم البابليون اسم أهل الغرب، وتذكرهم المصادر الأكدية «آمورو Amurru» ولكن الاسم الذي حفظه العهد القديم «آموري»، ويعني العموريون (الآموريون) (Amorites). وكانت هذه الشعوب تضم جماعات يرجح أنه كان بينها الآراميون الأوائل الذين استقروا في فدّان آرام أو على الأقل جماعة انحدر منها فيما بعد الآراميون.
وبعد عام ٢٠٠ بقليل نسمع بوجود دول عمورية (أمورية) في كل المنطقة، ومن ذلك ماري وحرّان وناحور وقطانا وأوجاريت ظهرت بوصفها مدناً عمورية يحكمها ملوك عموريون، وأصبحت بابل عاصمة دولة عمورية وكان يحكمها عام ١٧٥٠ ق.م حمورابي العظيم. ويبدو أن العموريين وأقاربهم اندفعوا إلى فلسطين ومصر مثيرين للقلاقل بهما. ومن الواضح أن العموريين كانوا في الأصل بدواً ساميين سكنوا صحراء الشام غرب أرض الواقدي. وكانت غزوة العموريين واحدة من غزوات الساميين المعروفة في التاريخ.
راجع (E. Wright: Op,Cit, P. 41).
راجع أيضاً، سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، من الترجمة العربية للدكتور السيد يعقوب بكر، ١٩٥٧، (ص ٥٢ ــ ٥٧، ٢٥٢).

الأبقار وكمية كبيرة من الذهب والفضة.

وعلى ذلك لم يكن سبب خروج إبراهيم من حران للنجاة بنفسه وبقومه من الأوضاع المتدهورة في الإقليم، وإنما كان لإبراهيم هدف أكبر ذلك. وخير لنا أن نتابع القرآن الكريم فيما قصَّه عن إبراهيم الذي هداه الله إلى الإيمان به رباً واحداً ونبذه لوثنية بابل، وكان قبل أن يقلِّب ناظريه في السماء ملتمساً ربه في الشمس أو في القمر، وربما كان مثل معاصريه يتأمل في الكواكب والأفلاك والنجوم، ولكن لهدف آخر غير هدفهم[1]. ولا بأس أن نذكر أن المؤرخ اليهودي يوسيفوس

---

(١) وردت أخبار إبراهيم عليه السلام من سور كثيرة بعضها أقرب إلى الإسهاب وبعضها إلى الإيجاز، ومن هذه السور التي تتحدث عن نَبْذِه للوثنية، سورة الأنعام (٧٤ ـ ٨٣):
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

وهكذا رأى إبراهيم في الله رباً واحداً وهو خالق الكون، وكل شيء يجري في الكون بأمره ولسعادة البشر. وقد فطن إبراهيم إلى ذلك مما يطرأ على الأرض والبحر من تغيير، ومن حركة الشمس والقمر وكل المظاهر الفلكية الأخرى، والتي لَوْ تُرِكَت لشأنها لاتجه كل كوكب في مساره غير مقيدٍ بمسار الكواكب الأخرى؛ مما يوحي بوجود قوة قاهرة ألزمت الكواكب والنجوم مساراً منتظماً، ولولا ذلك لفسد الكون فحقَّت عبادة الله وشكره.

ومن أجل هذه الآراء اصطدم إبراهيم مع الكلدانيين وشعوب ما بين النهرين، فثاروا عليه، فكان عليه أن يهاجر من أرضهم بإرادة من الله وبتوفيق منه فاستقر بأرض كنعان، وما أن =

ذكر أنه اهتدى إلى الله من خلال ملاحظته للظواهر الفلكية ومحاولة تفسير حياة النجوم، وهذا ما جرى عليه في أرض الجزيرة[1]، ويضيف يوسيفوس أنه عندما جاء إلى مصر علّم المصريين الجهلاء الفلك والحساب، وأن هؤلاء المصريين نقلوا هذه العلوم إلى الإغريق[2].

ولم يكن لإبراهيم رباً من آلهة الطبيعة مثل أنو (Anu) إله السومريين وشمش إله بابل الذي عمّت عبادته منطقة الشرق الأدنى القديم، ولم يكن أيضاً إلهاً محلياً اختص بعبادته بلد معيّن، فهو خالق الكون يهدي الناس. وربما سبقت الوحدانية التي دعا إليها إبراهيم آلهة أخرى وجدت في الإقليم، ولكن إبراهيم بشّر بربه إلهاً يختلف عن آلهة عصره، فهو رب الناس جميعاً ومصدر كل الخصال الحميدة التي كان هو نفسه طموحاً لتحقيقها سعياً لخلاص روحه ومصدر كل الخصال الحميدة التي كان هو نفسه طموحاً لتحقيقها سعياً لخلاص روحه من أدران عصره.

وترك إبراهيم أرض الكلدانيين وعبر بقومه نهر الفرات فوجد نفسه أمام جماعة من البدو الرحل الساميين هم الآراميون[3]. ولعل إبراهيم وقومه تعايشوا

= استقر بها حتى قدّم القرابين وشيّد مذبحاً.

(١) Jos, Ant:I 154-157.

(٢) Jos, Ant:I 166-168.

(٣) ماذا عن موطن إبراهيم الأصلي. . .؟ حدّده الإسرائيليون المتأخرون بأنه بلاد «فدان آرام» ـ ولها اسم آخر في سفر التكوين (٢٤ : ١٠) آرام النهرين ـ وأرض فدان آرام هي الأرض بين المجرى الأعلى للفرات والمجرى الأعلى لنهر دجلة، بين قرقميش من الغرب ونينوى في الشرق. ولنهر الفرات في المنطقة رافدان هما: بلخ، والخابور. وحران هي المدينة الرئيسية على بلخ، في حين أن المدينة الرئيسية على الخابور كانت جوزان (Gozan) (تل خلف الحديثة). (سفر الملوك الثاني ١٧ : ٦). وفدان آرام كانت المنطقة التي تقع حول هذين الرافدين وخاصة حول بالخ.

S.E. Wright: Bibical Archacology, 1979, p. 41.

=

معهم فترة من الزمن. وبعد أن وصل إبراهيم إلى نهر الأردن لزم شاطئه الشرقي، ثم عبر إلى أرض كنعان ودخل شكيم (نابلس الحالية) والتي تبعد عن يبوس (أورشليم ــ القدس) بحوالي سبعة وعشرين ميلاً، وقد جاء في الإصحاحين الثالث عشر والسابع عشر أن إبراهيم أُلْهِمَ من شكيم أن الأرض التي دخلها لتكون وطناً له ولقومه، هي الأرض التي سبق القول عنها وقدَّر الله منحها له ولذريته من بعده[1]. (تك ١٣/ ١٥، ١٧/ ٨) وتغير اسم أبرام إلى إبراهيم بعد هذا الميثاق، بمعنى أنه سيكون أباً لشعوب كثيرة (تك ١٧: ٤ ــ ٥).

= وحصلت بين الآراميين وقوم إبراهيم مصاهرة، كما حدث تبادل في المعتقدات والطقوس الدينية أيضاً. ووصلت الروابط بينهما ــ حتى بعد أن هاجر العبريون إلى أرض كنعان ــ لدرجة أن شيوخهم مثل إسحق ويعقوب كانوا إذا أرادوا الزواج اتجهوا نحو «فدان آرام»، مكان تجمع الآراميون في عبر الفرات من جهة سوريا، ليتخذوا لهم زوجات، وكان آباؤهم ينهونهم عن الزواج من الكنعانيات (تكوين ٢٤: ٢٧). فالرواية التوراتية تجعل الأسلاف آراميين، فقالوا على لسان موسى: «كان أبي آرامياً تائهاً» [سفر التثنية ٢٦: ٥].

راجع د. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ١٩٧١، (ص ٦٨، ٧٣).

(١) I.Epstein: Judaism (Penguin Books) London, 1977, PP. 12-13. Jos. Ant.I P. 154.

ويذكر يوسيفوس نقلاً عن نقولا (Nicolas) الدمشقي في الكتاب الرابع من تاريخه، أن إبراهيم حكى دمشق وهو غاز بجيشه من الأرض التي تقع فيما وراء بابل واسمها أرض الكلدانيين، ولكن بعد أن لبث بها قليلاً ترك دمشق مع قومه واتخذ سبيله إلى الأرض التي اسمها كنعان، ولكنها الآن اليهودية (Judaea) حيث استقر بها. . . ولا يزال اسمه مذكوراً في منطقة دمشق، وثمة قرية هناك سميت باسمه «Abramou oikesis منزل إبراهيم»، ويضيف مترجم يوسيفوس أن ثمة كاتباً لاتينياً أسبق منه زمناً هو تروجوس بومبيوس (Trogus Pompeius) (حوالي ٢٠ ق.م) ذكر إبراهيم بين ملوك دمشق، ويقول المترجم أن رايناخ (رايناك Reinach) يرى أن هذه الروايات ذاعت في فترة كانت العلاقات فيها طيبة بين دمشق وإسرائيل.

راجع حاشية (٩) (ص ٨٠) تعليقاً على (Jos. Ant.I. 160).

وفي هذه المرحلة يقال أن الله تجلّى له وتأكد ما كان يحسه بأن هذا الذي كان يجول في صدره لم يكن إلاّ وحياً من الله الذي اختاره ليحقق رسالته، وليكون منشئاً لشعب جديد (تك ١٢: ١ ـ ٢)، وعليه أن ينقل إلى العالم أجمع ما اهتدى إليه من معرفة بالله الحق. وكان أن أقبلت عليه جماعات كانت تلتقي به في تحركه جنوباً نحو النقب، فاعتنقت رسالته وتخلت عن وثنيتها وهذه ظاهرة تستحق النظر.

وقد صوّر بعض المؤرخين إبراهيم شيخاً أو أميراً لقبيلة رعوية كان يتجول معها، وسُمح له أن يضرب خيمته في أرض كنعان، وأن يرعى غنمه وماشيته، غير أنه كان يتميز عن أمثاله من رؤساء القبائل بأنه كان يدعو إلى دين جديد أساسه التوحيد، وقد صحب إبراهيم معه ـ طبقاً لسفر التكوين الإصحاح الثاني عشر ـ زوجته سارة وابن أخيه لوطاً، ومع كل منهما قطعانٌ من الماشية[١].

ويقص الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين أمر الخلاف بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط، فاختار إبراهيم أرض كنعان واختار لوط سهل الأردن، ذلك: أنه نظر غير بعيد عن سدوم فإذا بسهول الأردن الخصبة تنبسط أمام ناظريه، وكان ذلك قبل أن يدمر الرب سدوم وجمارا، فرحل لوط إلى الشرق وهكذا افترق رعاة إبراهيم ورعاة لوط الذي ضرب خيمته في اتجاه سدوم[٢] (تك ١٣: ١٢)، كما وأن الإصحاح التاسع عشر الفقرة السابعة عشرة من نفس السفر يذكر أيضاً استقرار مؤاب بن لوط في المنطقة الواقعة إلى الشرق من الروافد الجنوبية لنهر الأردن والقسم الشمالي من البحر الميت[٣].

---

(١) H.M: PP. 4, 56-57.

(٢) يجعل يوسيفوس (Ant.I. 169) قسمة الأرض بين إبراهيم ولوط بعد عودة إبراهيم من مصر. أرض لوط هي المنطقة التي تتجه نحو السهل ونهر الأردن ليس بعيداً عن سدوم (تك ١٣: ١١ ـ ١٢).

(٣) Thomas: Op.Cit. P. 195.

ويتردد في الروايات أن إبراهيم أقام في حَبْرون[1] وما حولها (تك ١٣ :١٨)، وفي رأي البعض أن إبراهيم كان معاصراً لفترة الصراع الذي كان قائماً بين «أمْرافَل» ملك «شنعار» و «أريوك» ملك «ألَاّ سار» و «كَدَرْ لَعَوْمَر»[2] ملك عيلام و «يَدْعال» ملك الأمم الأخرى (جوييم)، وبين خمسة من ملوك صغار كانوا يحكمون منطقة البحث الميت[3]. وهذه الروايات في حاجة إلى تمحيص، وقد

---

(١) لا تستطيع الأبحاث الأثرية أن تحدِّد مدى قدم حبرون، ففي سفر العدد (١٣ :٢٢)، أن حبرون أنشئت قبل إنشاء زوان في مصر بسبع سنين، وزوان مدينة في شرق الدلتا، وكان لها عدد من الأسماء من بينها رعمسيس مدينة المستودعات ــ التي قيل أن اليهود الأسرى شيّدوها أو أعادوا بناءها عندما كانوا في الأسر (الخروج ١ :١١) ــ ، وقد ظهر أن الهكسوس أعادوا تشييدها في عام ١٧٠٠ ق.م. فيرجع تاريخ حبرون إذن إلى نفس الوقت ربما تحت اسم قرية أربع (تكوين ٢٣ :٢ ، ٣٥ :٢٧). وفي كهف المكفيلة في حبرون توجد مقابر الأسلاف: إبراهيم وزوجته سارة، وابنه إسحاق وزوجته ربيكا، وفي البهو الداخلي قبران أحدهما ليعقوب وزوجته ليا وخارج المبني قبر يوسف.

وقد تُوّج فيها داود ملكاً أولاً على يهوذا، ثم على كل بني إسرائيل (صموئيل الثاني ٥ : ٣).

راجع : (S.E. Wright: Op. Cit, P. 47).

(٢) يرى أولبريت أن كَدَرْ لَعَوْمر (Chedor Laomer) هو (Kutir-Nakhunte I) ملك عيلام، إذن أن الحوليات الأكادية كثيراً ما سجلت أعماله وتناولته الأجيال المتأخرة. (Cornfeld, P. 20).

(٣) الملوك الخمسة في أرض سدوم (Jos, I 17, 6).

1-Balas. 2-Balaias. 3-Synabanes. 4-Symobor, King of Bera (LXX Balá), Birsha (Barsá), Shinab. 5-Shemeber, Bela (Balák).

وقد سيّر إليهم ملوك آشور جيوشهم وفرضوا عليهم الجزية، وبعد فترة استمرت ثلاثة عشر عاماً ثار حكام سدوم، فاجتاح الأشوريون سوريا كلها وأخضعوا سلالة العماليق، ونزلوا أرض سدوم وقتلوا من أهلها الكثيرين وأسروا ما تبقى، وكان لوط من بين الأسرى وكان يحارب الأشوريين كحليف للسدوميين، وسارع إبراهيم إلى نجدة لوط ورفاقه من =

وردت أخبار هذا الصراع في سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر مرتبطة باسم إبراهيم (تك ١٤ ــ ٩ ــ ١٣).

ومن هنا يرى البعض أن هذا الصراع من الممكن أن يكون أساساً لتاريخ محدد قد يكون القرن الرابع عشر ق.م، ويكتفي بالقول بأن هذا السفر يشتمل على ذكريات تداولها الشعب اليهودي هي صدى لأحداث تاريخية، ولذلك فالأمل معقود على إمكانية أن تقوم رسائل تك العمارنة ــ التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ــ ما يضفي الصيغة التاريخية على بعض المعالم والشخصيات التي ترد في التوراة[1].

= السدوميين وفاجأ الأشوريين عند «دان» (Dan) (وهي لاخيش وسميت دان من عصر القضاة) وأوقع بهم الهزيمة وطاردهم إلى حبوبة (Oba) (وهي Hoba XWBάλ) [تك ١٤ : ١٥ ــ ١٦] في أرض الدمشقيين وأنقذ السدوميين. وهناك تقابل ملكي صادق ملك (Solyma) [الصيغة الهلينسية لأورشليم ʽYερουσαλiμ LXX]، ودرج يوسيفوس على استخدامها بجانب التفسير الغريب للاسم على أنه (Holy Solyma) (Jos.I. 180)، ويقول يوسيفوس إنها سميت فيما بعد هيروسوليما (Hierosolyma).

وبعد أن عقد أواصر الصداقة مع هذا الملك ورفض أي مقابل لمساعدة ملك سدوم (تك ١٤ : ٢٣)، قدّم القرابين للإله وجاءه صوت ينبئه بأن ابناً سيولد له وسيعظم شأن سلالته ويكثر عددهم، حتى أنهم ليقارنون بعدد النجوم (تك ١٥ : ٥)، وأنهم سوف يعانون من جيران أشرار في مصر لمدة أربعمائة عام، ولكن بعد ذلك سوف ينقلبون عليهم ويهزمون الكنعانيين، ويستولون على أرضهم ومدنهم (تك ١٣ : ١٤ ــ ١٨).

راجع : (Jos.I. 181-185).

(١) C.A.H II: P. 73.

كشفت الحفريات في إبلا (Ebla) (تل مردخ) التي تبعد ٣٠ ميلاً إلى الجنوب من حلب عن أكثر من ١٥,٠٠٠ من الألواح المسمارية التي تعود إلى الفترة المتأخرة من الألف الثالثة ق.م (الفترة الرابعة من عصر البرونز القديم)، وهي مكتوبة باللغتين السومرية والكنعانية، وتشمل هذه اللوحات إشارات إلى كل من جازور ومجيدو وغزة وأورشليم، =

وتكشف الروايات عن العامل الاقتصادي والاجتماعي من وراء هجرة إبراهيم وأتباعه، فهناك الخلاف بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط على المرعى وموارد المياه التي حددت لهم (تك: ١٣). أو ذلك الخلاف بين رعاة أبيمالك ملك جرار (المنطقة الجنوبية) ورعاة إبراهيم أو إسحاق على الآبار التي يملكها كل فريق (تك ٢١: ٢٢ ــ ٢٣، ٢٦: ١٢ ــ ٣٣)، ومجيء جماعات من أتباع إبراهيم إلى مصر إنما كانت نتيجة لتغيير مناطق الرعي، كما أدّت أيضاً إلى استقرار قوم إبراهيم بأرض كنعان.

ويمكن أن نضيف فضلاً عن ذلك أنَّ مجيء الأسلاف وقومهم إلى كنعان قبل دخولهم إلى مصر؛ إنما هيّأته لهم الظروف الجغرافية التي كانت تسود شمال الجزيرة العربية، وخاصة ما اتصل بها من أحوال المناخ التي دفعتهم إلى الهجرة من هذه المنطقة إلى الأرض المحيطة بها في الشرق والشمال والجنوب. والنتيجة المنطقية أن فلسطين كانت مطمح تلك الهجرات في نهاية الألف الثانية ق.م، فقد كانت تأتي إليها عناصر شبه بدوية مع حميرها وقطعان ماشيتها، ولا يستبعد أن يكون إبراهيم وقومه قد قدموا أرض كنعان كنوع من هذه الهجرات، وإن كانت

= وتشتمل على قصص تحكي خلق العالم وأخبار الطوفان التي تتقابل مع قصة التوراة عن بداية العالم. ومعظم الوثائق تتعلق بالأمور الاقتصادية وبعضها أدبية قانونية ودبلوماسية وتاريخية وجغرافية في محتواها. وكلها تشير إلى أن إبلا كانت العاصمة السياسية والثقافية لمملكة كنعانية كبيرة قديمة ساهمت في حضارة الشرق القديم، وقد انتشرت بتلك المملكة أساطير قديمة من أرض ما بين النهرين، وتتوافق قوانين إبلا مع تلك التي كانت سائدة في بلاد ما بين النهرين.

وهكذا فإنه في وقت سابق على الأسلاف شاركت سوريا وفلسطين في التراث الأسطوري والثقافي لسومر وأكاد، المنتميتين إلى السامية الشرقية، وحيثما أقام أو تجوّل أسلاف بني إسرائيل فلا بد أنهم كانوا على علم بالتراث الذي يختفي خلف القصص القديم في سفر التكوين أو احتكوا به. (Cornfeld P. 12 & H.M. P. 108).

الروايات تُغَلِّف هجرتهم تلك بغلاف من الأفكار الدينية المنبثقة عن اللاهوت بأنها كانت استجابة لأمر الله، وأن إسحق ويعقوب ظلّا بها في انتظار تحقيق الوعد الذي أعطي للأسلاف بالاستقرار مستقبلاً في فلسطين.

وقد حاولت الرواية اليهودية أن تسبغ على مجيء إبراهيم وقومه إلى أرض كنعان صفة العمل العسكري، وأنه كان تحت قيادة موحدة، ولكن يبدو من سياق التوراة أن نزولهم إلى فلسطين لم يكن له أي أثر سياسي يذكر، فقد ظلوا كما كانوا بدواً رُحلاً يعيشون على هامش المدن في فلسطين.

وهذا يعني وجود ثلاثة مراحل: مرحلة الأسلاف ومرحلة الإقامة في مصر، ومرحلة الاستقرار النهائي بأرض كنعان، وكلها ظواهر لسبب واحد بالرغم من وجود فواصل من أحداث فردية بين كل مرحلة وأخرى، وقد استقرت هذه المراحل زمناً طويلاً[١].

على أن مجيء إبراهيم إلى أرض كنعان في حاجة إلى تأريخ و تحديد للفترة الزمنية التي تم فيها، وقد اعتمد بعض الباحثين في تأريخ هذه الفترة على ما جاء في سفر التكوين برغم أن أصالته التاريخية موضع شك كبير[٢]؛ وإن كانت قلة من المؤرخين تضع عصر إبراهيم والأسلاف في الحقبة الحديثة من عصر البرونز، وحجتهم في ذلك هي التشابه الواضح بين العادات الاجتماعية والنواحي القانونية التي تفهم من سفر التكوين مع نصوص نوزي (Nuzi) (جنوب شرق نينوى) وأوجاريت، والتي تعود إلى الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر، وشرح الشريعة اليهودية في ضوء ما يقابلها من قانون «حثيٍّ» صدر في النصف

---

(١) C.A.H. II/2.

(٢) H.M: P. 118.

الثاني في الألف الثانية ق.م(١).

في حين يرى البعض الآخر استناداً إلى الأدلة الأخرى أن قتال إبراهيم لملوك الشرق وتدميره للمدن في السهل، حدث بالفترة الأولى من الحقبة الوسطى من عصر البرونز.

تشتمل الألف الثانية في سوريا وفلسطين نهاية العصر البرونزي القديم والتحول إلى عصر البرونز الأوسط وعصر البرونز الأوسط (MB) والحديث (L.B) ومقدمات عصر الحديد. وليس هناك تاريخ كاف لفترتي عصر البرونز الأوسط وعصر البروز الحديث في سوريا وفلسطين وما صدر من مؤلفات تكاد ترتكز على الوثائق الأدبية من مصر ومن بلاد ما بين النهرين.



(١) H.M: P. 96.

ألواح نوزي (Nuzi).

مدينة نوزي جنوب شرق نينوى، وهناك شواهد جديدة متأخرة بين ألواح نوزي توضح بعض ما جاء في سفر التكوين، فقد كشفت عن قانون مشابه لقوانين الأسلاف، ولكن لا يشبه أي قانون من قوانين أي فترة متأخرة. وأهل نوزي من الحورانيين، وهو شعب ذكر في التوراة باسم الحوريين (Horites)، والذين كانوا يعرفون حتى عهد متأخر بأنهم سكان الكهوف الفلسطينية، وربما كانوا يُدرجون بين العماليق في المنطقة. والمعروف الآن أنهم لم يكونوا من عنصر هندي أوروبي، وهم شعب قدِم إلى شمال ميزوبوتاميا وأنشأوا هناك دولة كبيرة، وفي القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد أخذوا الكثير من حضارة العموريين (الأموريين) بما في ذلك العادات.

المرحلة الأولى من عصر البرونز الأوسط

أرّخها أولبريت ٢١٠٠ ــ ١٩٠٠ ق.م.

وهناك افتراض بوجود تأثير عموري (أموري) قوي، في حين أنها عند بعض العلماء فترة رعي بين حضارات كبيرة ضخمة كانت قائمة في الألفين الثالث والثاني ق.م.

وفي رأي أحد الأثريين أن ثمة عناصر جديدة في هذه الحضارة وفدت مع غزاة (Kurgan) جاءوا من وراء القوقاز، وينكر البعض أن تكون كذلك وربما أنها حضارة محلية، ودخول عناصر جديدة من الخزف والأواني المعدنية، يؤكد مجيء عناصر شبه بدوية من سوريا بين ما تبقى من هذه العناصر التي وفدت من المراكز الحضرية، عند اضمحلال عصر البرونز القديم في فلسطين.

وعلى ذلك فوجود حضارة مادية مولّدة والتي ظهرت لأول مرة في شرق الأردن، يؤكد نظرية أولبريت بافتراض وجود التأثير العموري. (الأموري).

ولكن يجب أن نكون على حذر، فإن الأثريين لم يرسموا ــ بعدُ ــ صورةً شاملة لحضارة الفترة الأولى من العصر البرونزي الأوسط ككل إذا تجاوزنا البحث عن أصولها والتعرف على التحركات العرقية التي ارتبطت بظهورها في فلسطين، ولكن المادة التي بين أيدينا شحيحه ولا تسمح بالوصول إلى نتائج، والاتفاق

الوحيد إنما في التأكيد على الروابط بين المرحلة الأولى من عصر البرونز الأوسط (MBI) مع عصر البرونز القديم أكثر من ارتباطها بالفترة الوسطى من عصر البرونز، مع التركيز على حياة شبه مستقرة أكثر منها رعوية بدوية، ويجعلون تاريخها ٢٢٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق.م أقدم من تقدير أولبرايت بقرن. ولكن هذه الفترة حددها الأثريون وعلماء التوراة بعصر الأسلاف.

● ● ●

المرحلة الثانية (أ)

من عصر البرونز الأوسط (MB II A)

(۲۰۰۰ ــ ۱۸۰۰ ق.م)

وهي فترة تتميز بأنها المرحلة الأولى من عصر البرونز الأوسط الحقيقي (MB II B-C). وهذه الفترة (MB II A) تتميز بحياة المدن وهي المرحلة التكوينية للحضارة المادية التي ازدهرت في سوريا وفلسطين خلال معظم الألف الثانية ق.م والتي تميز الحضارة الكنعانية العمورية القديمة، وبلغت تلك الحقبة الطويلة ذروتها بعد قرنين من (MB II C)، والواردات من مصر تظهر التأثير المصري ولا تثبت حكماً مصرياً في آسيا، والفترة (MB II A) تتعاصر مع نهاية عصر الإقطاع الأول ونهضة مصر مع الأسرة ۱۲ (۱۹۹۱ ــ ۱۸۷٦ ق.م)، وبالمقابل فإن الوضع الحضاري في فلسطين كان جزءاً من تطورات حضارية أكبر من أرض الجزيرة بعد نهاية عصر سرجون، وبدأ التأثير العموري في التصاعد مع فترة حكم أور الثالثة (حوالي ۲۰٦۰ ــ ۱۹۵۰ ق.م).

• • •

الأسلاف والمرحلة الأولى من عصر البرونز

في رأي أولبريت أن عصر البرونز الأوسط (الذي أرّخه كما ذكرنا ٢١٠٠ ـ ١٩٠٠ ق. م) يقابل عصر الأسلاف في التوراة، وأنها كانت الفترة المناسبة لهجرتهم من أور إلى حران، وربما يؤيد هذا القول اكتشافات جلوك في جنوب شرق الأردن، إذ أثبتت ازدهار المنطقة في المرحلة الأولى من عصر البرونزو الأوسط. ولكن المنطقة ما لبثت أن اقفهرّت من سكانها واستمرت هكذا لعدة قرون[١].

وعلى ذلك فالسرد التاريخي في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين عن وصف حروب إبراهيم مع ملوك الشرق وتدمير للمدن في السهل، يمكن تحديده بالمرحلة الأولى من الحقبة الوسطى من عصر البرونز (MBI)[٢]، وتشير اكتشافات جلوك في هذه التحديد إلى أنه عندما وجد في النقب صورة مماثلة من (MBI) بادر القول بأن هذا هو عصر إبراهيم في النقب؛ وذهب أولبريت في محاولة الربط بين إبراهيم وبين (MBI) إلى حد أنه جعل هذه المرحلة من عصر البرونز الأوسط تنتهي في عام ١٨٠٠ بدلاً من ١٩٠٠ ق.م، وصوّر إبراهيم كتاجر متجول يرتاد الطرق التجارية جنوباً ليصل إلى سيناء عبر النقب، وقال: إن المواقع المرتبطة بالأسلاف

---

(١) أولبريت: آثار فلسطين، ٨٥، وهنا يريد أولبريت أن يربط تاريخ الأسلاف بالمخلفات الأثرية في أكثر من مكان في فلسطين، ولكن هذه الفكرة مرفوضة الآن.

راجع: (Cornfeld: Op. Cit, P. 19).

(٢) H.M: PP. 93-94.

في تجوالهم مثل شكيم وبيت إيل وحبرون إنما عمرت في عصر البرونز الأوسط (MBI)، ويدعم ذلك بشواهد من الآثار.

وبالرغم من أنه بعد عام ١٩٤٠م تخلّى المؤرخون عن وجود فكرة الربط بين الأسلاف والمرحلة الأولى من عصر البرونز الأوسط (MBI) وبين الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين؛ إلاَّ أن أولبريت أعاد هذا الرأي مرة أخرى إلى الوجود، وهذا الرأي أكثر إزعاجاً من رفض نظرية العموريين، وقد وصف أولبريت عصر الأسلاف بأنه جزء من عصر العموريين في النصف الأول من الألف الثاني ق.م وناقش عصر البرونز الأوسط (MBI) دون الإشارة إلى هذه المشكلة[١].

● ● ●

(١) H.M: P. 95.

عصر الأسلاف والمرحلة الثانية
من عصر البرونز الأوسط وعصر البرونز الحديث

ارتبطت الفترة الأخيرة من عصر البرونز الحديث (حوالي ١٢٠٠ ق.م) في سوريا وفلسطين بما حلَّ في الشرق القديم، وتدمير حضارة موكيناي في بلاد اليونان، وهجمات شعوب البحر التي أدت إلى سقوط إمبراطورية الحيثيين في آسيا الصغرى، وتدهور مملكة الميتاني (في حوران)، وعودة آشور واستسلام الكاسيين لأسرة إيسن الثانية في بابل، وانتشار الآراميين الأوائل. وبينما استمرت تقاليد العصر البرونزي الحديث في فلسطين وفي كنعان، فإن فترة البرونز فترة اضطراب صاحبت قدوم إبراهيم إلى أرض كنعان واستقراره مع قومه[١].

ويبدو أن معظم المؤرخين وعلماء التوراة لم يتبعوا أولبريت وجلوك في ربط الأسلاف بالمرحلة الأولى من العصر الأوسط، وهم يتفقون على جعل عصر الأسلاف في الألف الثاني ق.م؛ أي في المرحلة الثانية من العصر الأوسط بين القرنين العشرين والسادس عشر ق.م؛ في حين نجد قلّة من المؤرخين يضعون فترة الأسلاف في العصر البرونزي الحديث (LB) ويعتمدون إلى حد كبير على التشابه بين العادات الاجتماعية والقانونية في سفر التكوين ونصوص نوزي وأوجاريت التي تعود إلى الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر، وثمة تأييد غير

(١) H.M: P. 91.

مباشر لرأيهم يجعل فترة الأسلاف في عصر البرونز الحديث (LB)، وهو شرح القانون الإسرائيلي في ضوء ما يقابله من قانون حثيٍّ يعود تاريخه إلى النصف الثاني من الألف الثاني ق.م[1].

ولكننا نلحظ أن نظرية الخروج المزدوج التي قدّمها رولي (Rowley) تجعل الدخول المبكر للإسرائيليين مع يعقوب إلى فلسطين كان في سياق تحرك الخابيرو في عصر رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر ق.م، ولو أنه يقر بأنه لا يريد تأريخ عصر إبراهيم.

ولكن إيزفيلدت[2] (Eissfeldt) الذي استند إلى قدر محدود من الأدلة الأثرية، يقول: إن المحاولات المختلفة للوصول إلى تأريخ صحيح للأسلاف يستند إلى التواريخ الواردة في العهد القديم، وفي رأيه أن عصر أسلاف إبراهيم إنما سبق ــ على الأرجح ــ الاستقرار النهائي في أرض كنعان بقرنين أي حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر ق.م، وأشار إلى النسّابين التوراتيين الذين قدّروا أربعة أجيال بين إبراهيم وبين الاستقرار في أرض كنعان. فإذا قدرنا لكل جيل أربعين عاماً فإن ذلك يجعل مجيء الأسلاف في المرحلة الأخيرة من عصر البرونز الحديث.

ومن المثير حقاً للقارىء غير المسلم، ما تردد عند بعض المؤرخين، من أن شخصيات الأسلاف ليست شخصيات تاريخية إنما هي رموز تجسد القبائل أو الجماعات، وهذا أمر عادي في الفكر الإسرائيلي، وقد يكون الرأي المريح لنا هو أنهم كانوا بالفعل شخصيات تاريخية، وإن كانت طبيعة المصادر التوراتية تحول

---

(١) H.M: P. 96.

(٢) O.Eissfeldt: C.A.H. II/2, PP. 312-314.

راجع: (H.M: OP. Cit P. 96).

دون الاقتناع بأنهم كانوا كذلك[1].

ويجب أن يوجه النقد إلى المأثورات التوراتية ولا داعي لأن يجهد عالم مثل أولبريت نفسه ليثبت من الآثار تاريخية إبراهيم وأسلافه[2]. وإن كانت هناك حقائق معروفة من مصادر خارجية هي موضع شك في صلتها بالموضوع، ويجب أن تؤخذ بأقصى حد من الحذر. ويشير إيز فيلدت بأن ما ورد في العهد القديم يتناقض تناقضاً ذاتياً، فطبقاً لما جاء في سفر الملوك الأول (٦ : ١) فإن خروج بني إسرائيل من مصر قد حدث قبل بداية بناء الهيكل بأربعمائة وثمانين عاماً، وربما كان ذلك (بناء هيكل سليمان) حوالي عام ٩٧٠ ق.م، وبذلك يكون الخروج من مصر في عام ١٤٥٠ق.م وحسب ما جاء في سفر الخروج (١٢ : ٤) استقرت إقامتهم في مصر أربعمائة وثلاثين عاماً، وعلى ذلك يصبح تحرك بني إسرائيل من فلسطين حوالي عام ١٩٠٠ ق.م[3].

وبناء على ذلك فإن فترة الأسلاف تحسب على أنها الفترة التي تعطي نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية، ولكن تاريخ الأسلاف جُعل أكثر اقتراباً من تاريخ الخروج من مصر بمقتضى تأريخ آخر، ثم أشار إيز فيلدت إلى ما ذكره النسابون من جعل إبراهيم يسبق الاستقرار في كنعان بأربعة أجيال[4] هي كل من

---

(١) O.Eissfeldt: Op. Cit P. 315.

H.M: P. 97.

(٢) H.M: P. 98.

(٣) O.Eissfeldt: C.A.H II/2 PP. 74-78.

(٤) فترة الأربعمائة عام تقابل احتفال المصريين بمرور أربعمائة عام على حكم الإله ست للدلتا، وسجل ذلك على لوحة تانيس (Zoan). وجاء في سفر العدد (١٣ : ٢٢) أن حبرون شُيِّدت قبل (Zoan) زوان في مصر بسبع سنين، وتقابل الأرقام مع الإشارة إلى حبرون زوان، أن منطقة تانيس والاحتفال بمرور أربعمائة عام، كل ذلك يوحي بأنها أساس فترة الأربعمائة عام لإقامة اليهود في مصر. (Confeld P. 21).

إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف، بحيث يخلف كل جيل الجيل الآخر في تسلسل مباشر ويعطي لكل منهم في المتوسط أربعين عاماً، وطبقاً لما جاء في سفر الخروج (١ : ٨) حل فرعون جديد محل الذي حبا يوسف بعطفه وضغط على الإسرائيليين ضغطاً اضطرهم إلى الهجرة من مصر مباشرة، فإذا اعتبرنا أن الخروج تم في القرن الثالث عشر فإن زمن الأسلاف يجب أن يكون في القرن الرابع عشر.

ولتحديد فترة الأسلاف من مصادر خارج التوراة، فإن المحاولة الأهم هي ربط الأسلاف بشعوب عاشت في القرون الأولى من الألف الثانية في أرض الجزيرة وشمال سوريا ومناطق أخرى(١). وهذه الشعوب هي (الأموريون) العموريون

(١) وتميزت الفترة ما بين نهاية القرن ١٨ ق.م وبين منتصف القرن ١٦ [وهي تقابل الفترة الأخيرة من عصر البرونز الأوسط في القسم المتوسط من مرحلته الثانية (MB II B)، وكل القسم الثالث من المرحلة الثانية من هذا العصر] بقيام شعب آسيوي هو خليط من الساميين الغربيين والحورانيين يسمى الهكسوس في عدة موجات بغزو مصر خلال عصر الدولة الوسطى ١٩٩١ ـــ ١٧٨٦ق.م، وهذا يُفسِّر وجود أسماء سامية في وقت مبكر في عصر تلك الدولة، وتكوين إمبراطورية شملت إلى جانبها كنعان وسوريا. وتظهر في قوائم الملوك والشخصيات البارزة أسماء لكثير من الساميين، بعضها يتشابه مع أسماء الأسلاف، ولفترة طويلة كان يسود الاعتقاد الجازم بقيام ارتباط بين مجموعة الأسلاف والهكسوس. وكان يدعم هذا الرأي الإشارة إلى حدثين مؤرخين في التوراة، أو لهما أن حبرون شُيِّدت قبل زوان (Zoan) (تانيس) في مصر بسبع سنين (تانيس هي صُوعَن في سفر العدد ١٣ : ٢٢)، وهي عادة مرتبطة بغزو الهكسوس لمصر وإنشاء تلك المدينة حوالي عام ١٧٠٠ ق.م. والإشارة التالية هي أن إقامة الإسرائيليين في منطقة تانيس استمرت ٤٣٠ عاماً (خروج ١٢ : ٤٠). وهذا العدد من السنين يرتبط بمنطقة الهكسوس في تانيس ويرمز له «بلوحة الأربعمائة عام»، التي أقيمت قبل ولاية رمسيس الأول بقليل حوالي ١٣٢٠ ق.م، وتُخلِّد حكم الإله ست على كل مصر، ويرد اسم هذا الإله مقترناً باسم الإله بعل الإله الأكبر عند الكنعانيين، وتقول اللوحة: العام ٤٠٠ ـــ الشهر الرابع من الفصل الثالث ـــ اليوم الرابع من حكم ملك الوجه القبلي والوجه البحري في مصر، ست العظيم في قوته. =

والكنعانيون الشرقيون والشعوب السابقة على الآراميين أو بصفة عامة الساميون الغربيون. وأسماء هذه الشعوب تشبه الأسماء القديمة التي ترد في العهد القديم إلى حد كبير. ويشترك العهد القديم مع هذه المجموعة من الشعوب في الفكر الاجتماعي والقانوني والعادات، ومن ثم كان الجهد الذي بذل لربط الأسلاف مع هذه المجموعة ووضعهم في القرون الأولى من الألف الثانية ق.م، ويترتب على ذلك أن دخول أتباع إبراهيم ـ في مجيئهم ـ إلى مصر شكّلوا جانباً من غزوة الهكسوس لها حوالي ١٧٠٠ ق.م، ويترتب على ذلك أن يكون خروج اليهود

= فإذا كان ظهور ست على رأس اللوحة وهو مرتدٍ لملابس آسيوية مرتبطاً بسيادة هؤلاء الملوك الأجانب؛ فإن هذه اللوحة تجعل بداية حكمهم حوالي عام ١٧٢٠ ق.م. وعلى أي حال فإن الاحتفال بمرور ٤٠٠ عام يحدد تاريخ إعادة رمسيس الأول لإنشاء تانيس. ويأتي هنا تعليق غريب، وهو أن رمسيس الأول باتخاذه الإله ست، إنما يُصرّ على أن ملوك الأسرة التاسعة عشرة قد اعتبروا أنفسهم الورثة الرسميين للحكام الهكسوس الذين كانت تانيس عاصمتهم القديمة. (Cornfeld: Op. Cit, P. 14).

وما زال أصل الهكسوس موضع خلاف والأفضل تفسيره في إطار الوضع العرقي والسياسي والعسكري الذي كان يسود المنطقة في النصف الأول من الألف الثانية ق.م، وكانوا يأتون إلى الدلتا في موجات متعاقبة، وربما ارتبط بهم عناصر حورانية جاءت إلى سوريا من الشمال، بمعنى أن الهكسوس كانوا خليطاً من الساميين الغربيين والحورانيين. وارتبطت الصراعات التي كانت تدور بين حكام «ميزوبوتاميا» في الألف الثانية ق.م مع مقدم الساميين الغربيين وإغارات العيلاميين (سكان إيران القدماء)، وأخيراً توارت القوى المتنافسة أمام الساميين الغربيين الذين شكّلوا ما يسمى بالأسرة البابلية الأولى وأول ملوكها حمورابي (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق.م). فواصل جهود أسلافه في إخضاع العيلاميين، حتى قوّض مُلكهُم نهائياً، كما أخضع لحكمه أقاليم ماري بالقرب من بابل والسوبارتو المتاخم لجبال كردستان، والجوتي. ومن الجدير بالذكر أنه اصطدم بساميين آخرين هم الآشوريون بقيادة ملكهم «ريم ـ سين»، الذي تحالف مع العيلاميين فكان مصيره الهزيمة مع حلفائه. (S.Hermann: Op. Cit, PP. 19-20).

راجع ظاظا: الساميون ولغاتهم، (ص ٣٧ ـ ٣٩).

مقترناً بطرد الهكسوس حوالي ١٥٧٠ ق.م، وهو الأمر الشائع طبقاً لما ذكره كُتّاب العصرين الهلينستي[1].

---

(١) التحركات الواسعة لشعوب الشرق القديم في القسم الثاني من الفترة الثانية من عصر البرونز الأوسط، أسفرت عن ظهور مملكة الحيثيين في آسيا الصغرى ومملكة الميتاني في شمال ما بين النهرين في منتصف القرن ١٦ ق.م، ومن أبرز مجموعة المملكة الأخيرة الحورانيون والهند إيرانيون. وكنتيجة لهذه التطورات أصبحت سوريا وفلسطين تحت تأثير هذه المجموعات الجديدة التي سادت العناصر المحلية، وكوّنوا أرستقراطية تحكم من مدن محصّنة وعرفوا باسم ماريانو (Marianu)، وكانوا يقاتلون في عرباتهم في حين أن العناصر الدنيا كانوا من المشاة. وكانت كل مدينة بمثابة إمارة إقطاعية يحكمها أمير أو ملك صغير تسانده طبقة من النبلاء. وفي أسفل السّلم المجموعات الوطنية وسكان المدن من الفقراء المعدمين وعبيد الأرض وأشباه العبيد، وكان القسم الثالث من الفترة الثانية من عصر البرونز المتوسط مرحلة انتقال إلى عصر البرونز الحديث. (Cornfeld P. 14).

راجع: O.Eissfeldt: C.A.H II/2, P. 8.

وظهور الحورانيين الذين غزوا شمال ميزوبوتاميا وكونوا مملكة ميتاني التي امتدت حتى سوريا، قد أخضعوا آشور لهم وهبطوا بها إلى الحضيض.

وفي عام ١٣٦٥ ق.م قضى الحيثيون على مملكة ميتاني، ممّا مكّن آشور من أن تعود إلى مركز القوة. وتقدم الحيثيون حتى سوريا واصطدموا بمصر ودارت معركة بين رمسيس الثاني (١٢٩٠ ــ ١٢٢٣ ق.م) في قادش على نهر العاصي وبين مواتالّيس (Muwatallis) الثالث ملك الحيثيين. وكان لا بد من إحداث توازن قوى في المنطقة لولا مجيء غزوات شعوب البحر التي قضت على إمبراطورية الحيثيين.

وفي فترة غزوات شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ ق.م وما حلّ بالحيثيين وبمصر، جاءت من الجزيرة العربية وسوريا موجة جديدة من الساميين تسيطر على المناطق الصالحة للزراعة في الداخل. وهؤلاء هم القبائل الآرامية الذين انتشروا على كل منطقة الهلال الخصيب وادعوا حقهم في حكم المنطقة الواقعة بين سوريا وبابل حيث كانت بابل وآشور تجتازان أزمة طاحنة وتغيّر ميزان القوى في سوريا وفلسطين تماماً. وتحت الحكم المصري انتعشت المدن المستقلة بكل سهولة، كما تشير إلى ذلك رسائل العمارنة، وكذلك وثائق أمنتحب =

وحتى إذا أزحنا جانباً في مختلف المسميات للعموريين ــ التي تجعل من الصعب تحديدهم بطريقة مرضية ــ فإن ما يشتركون فيه مع الأسلاف من سمات يعد مجالاً لتفسيرات عديدة تسمح بتحديد وضع الأسلاف في هذه المجموعة[١].



= الثالث وأمنتحب الرابع (إخناتون)، كما كشف عنه من وثائق من أوجاريت (رأس شمرة في شمال سوريا). وتصادف ذلك مع استقرار الفلسطينيين، وهم من شعوب البحر، في السهل الساحلي بدون أي مقاومة مصرية تستحق الذكر. أما المناطق الداخلية التي تغلب عليها التلال فقد أصبحت مفتوحة أمام الآراميين الذين أسسوا لأنفسهم مدناً مستقلة في سوريا. (S.Hermann: Op. Cit, PP. 20-21).

(١) O.Eissfeldt: C.A.H., II, 2, P. 74.

يعقوب ودخول بني إسرائيل إلى مصر

وهناك موقف مشابه بالنسبة لنصوص نوزي التي يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثاني ق.م، إذ تشتمل على بعض الأفكار والعادات التي ظهرت في بعض قصص الأسلاف. ولذلك تبقى لقصص الأسلاف صور يلفها الضباب والظلال، ومن الصعب الوصول إلى تاريخ، وأي محاولة لتأريخ عهدهم يعتبرأمراً يثير كثيراً من النقاش، وترجع الأهمية لعمل هؤلاء الأسلاف من خلال الروايات التي عرفناهم من خلالها ــ وليست من خلال حياتهم الخاصة ــ وما وعدوا به في المستقبل من أجل بني إسرائيل في أرض كنعان[١].

يرى بعض الباحثين أن الفترة بين يعقوب وموسى تمثلها أربعة أجيال، وأن يعقوب قدم إلى مصر وعمره حوالي ١٣٠ سنة ولم يستقر بها أكثر من سبع عشرة سنة، في حين أن عمر يوسف كان ثمانية وثلاثون سنة عند قدوم إخوته من فلسطين وقد بلغ عمره ١١٠ سنة، وبذلك عايش يوسف الجيل الثالث لإفرايم. ويبدو أن هناك فترة جيل واحد بين وفاة يوسف والخروج. وبناء على ذلك ففترة الاستقرار بمصر تقدر بقرنين من الزمان، فموسى يعتبر من الجيل الثالث من ناحية أمه «يوكابد» ابنة لاوي، بينما كان من الجيل الرابع من ناحية أبيه.

(١) Op. Cit. Ibid: P. 82.

والمعروفأن عدد أولاد يعقوب وأحفاده الذين دخلوا إلى مصر مع يعقوب هو سبعون نفساً، وذلك طبقاً لما ورد في سفر التكوين (٤٦ :٢٧)، ومن العجيب أن يتضاعف عددهم إلى ٦٠٠,٣٥٥ ألفاً طبقاً لما جاء في سفر العدد (١ : ٤٦). وهذا العدد لا يشمل اللاويِّين، وهذه الأعداد التي تزايدت على ستمائة ألف قد خرجت من مصر مع موسى، وهو رقم مبالغ فيه أشد المبالغة، فلا يعقل أن يتضاعف السبعون إلى ستمائة ألف خلال قرنين من الزمان.

وفيما يلي نورد هنا تعداد كل سبط في زمن الخروج وذلك طبقاً لما ورد في سفر العدد الإصحاح الأول.

١ ــ رأوبين ٤٦,٥٠٠	٧ ــ إفرايم ٤٠,٥٠٠
٢ ــ شمعون ٥٩,٣٠٠	٨ ــ مِنسَّى ٣٢,٢٠٠
٣ ــ جاد ٤٥,٦٥٠	٩ ــ بنيامين ٣٥,٤٠٠
٤ ــ يهوذا ٧٤,٦٠٠	١٠ ــ دان ٦٢,٧٠٠
٥ ــ يسساكر ٥٤,٤٠٠	١١ ــ آشر ٤١,٥٠٠
٦ ــ زبولون ٥٧,٤٠٠	١٢ ــ نفتالي ٥٣,٤٠٠

أما سبط لاوي فلم يتم تعداده ضمن بني إسرائيل وذلك طبقاً لما ورد في سفر العدد (١ : ٤٧).

وإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى هذه الأعداد، نجد أن عنصر المبالغة واضح أشد الوضوح، ولذلك اعتقد بعض المؤرخين بأن هناك خلطاً في التأريخ، والمعنى الأقرب إلى الصواب هو أن الألف تعني الجماعة أو العشيرة، وعلى ذلك فالمقصود بـ ٦٠٠ ألف هو ٦٠٠ عشيرة على أساس أن الجماعة عشرة أفراد، وعلى ذلك يصبح عدد الذين خرجوا مع موسى ما يقرب من ستة آلاف نسمة، وهو عدد معقول ومناسب لما ردَّده بعض المؤرخين الذين افترضوا أن شبه جزيرة سيناء قد

ابتلعتهم وتاهوا فيها. بالإضافة إلى أن موسى كان يفصل في النزاع والمشاكل التي كانت تقوم بين بني إسرائيل في سيناء، وهذا ممكن بين ستة آلاف، ولكن لا يمكن أن يقضي موسى ويصدر الأحكام بين ما يزيد على ستمائة ألف من بني إسرائيل وهو الرقم المبالغ فيه. وإذا رجعنا إلى ما جاء في سفر الخروج (١: ١٥ ــ ٢٢) نجد أن قابلتين كانتا تقومان بمساعدة نساء بني إسرائيل في مصر في عمليات الوضع، وأن ملك مصر كلّمهما واسم إحداهما شعرة والأخرى قرعة (خروج ١: ١٥). وهذا الأمر مقبول ومنطقي لمجموعة من البشر يصل تعدداها إلى ستة آلاف نسمة، بينما يبدو خيالياً أن تقوم قابلتان بخدمة ستمائة ألف من البشر.



موسى والخروج من مصر

تشير الروايات إلى أن بني إسرائيل قضوا في مصر عدة عقود من الزمن، ثم أجبرهم فرعون جديد على تشييد عدة مدن منها رعمسيس (بررمسيس) ـ مكان بدء الخروج وهي على الأرجح قرب صان الحجر الحالية ـ وإيثام، وهذا معناه نشاط معماري ممّا يشير إلى أن الفرعون هو رمسيس الثاني[1] (١٣٠٤ ـ ١٢٣٧ ق.م)، الذي كان من أشهر البنائين في مصر الفرعونية، وعلى ذلك يصبح تاريخ دخول الإسرائيليين إلى مصر في نهاية القرن الرابع عشر وتاريخ خروجهم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لأن الرواية تعطي الإحساس بأن الفترة الفاصلة بين المعاملة الطيبة لفرعون مصر وفترة إجبارهم على العمل لم تَدُمْ سوى عقود محدودة، حتى امتحنوا بنقمة فرعون الذي وُلِدَ موسى في عهده وتربى في قصره في عاصمة مصر، فلما بلغ أشده وخرج من المدينة خائفاً يترقب اجتياز سيناء إلى

(١) ما زال تحديد شخصية الفرعون الذي خرج في عهد بنو إسرائيل من مصر موضع خلاف، والرأي الذي كان سائداً هو رمسيس الثاني، ولكن هناك رأي آخر يقول إنه إخناتون (أمنتحب الرابع) باعتباره كان مهتماً بالمسائل الدينية وتوحيد آلهة مصر في إله واحد، ومن ثم عاد موسى عليه السلام من أرض مدين في محاولة للخروج ببني إسرائيل بسلام من مصر، ولكن لم يُخرج كل بني إسرائيل من مصر مع موسى؛ وإنما بقيت طائفة أخرى ربما هي التي خرجت في عهد رمسيس الثاني أو بعده بقليل.

YEIVEN: The Israelite Conquestes of Canaan Appendex, PP. 235-242.

أرض مدين (شمال الحجاز وعلى مشارف شبه جزيرة سيناء وتعتبر نهاية العقبة)، وفيها أقام عشر سنين أجيراً لصهره شعيب كاهن مدين، وكان يرعى الغنم وأحياناً يدخل سيناء، وهناك على ذروة جبل الطور في البقعة المباركة من الوادي المقدس، تجلّى له الله تعالى ودعاه الوحي بأن يخرج ببني إسرائيل من مصر، وأيّده بمعجزات نبوته وبعثه رسولاً ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ ﴾ [سورة طه: ٩ ـــ ١٣].

وعلى شاطىء اليم من أرض سيناء، كانت نجاة موسى عليه السلام بأتباعه من كيد فرعون وجُنده. وفيها كان التيه الذي قضي به الله على بني إسرائيل أربعين سنة، لما عَصوا الله ورسوله وأضلّهم السامري.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝١٤١ ﴾ [سورة الأعراف: ١٣٧، ١٤١].

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ ﴾.

﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤ ﴾ [سورة طه: ٥٩، ٦٠، ٨٣، ٨٤].

• • •

مخالفة السياق القرآني لقصة
هارون والعجل الذهبـي في التوراة

وقصة كفر بني إسرائيل تحت طور سيناء وموسى على قمته، يتلقَّى الشريعة من ربه متفقة بين التوراة والآيات الخاصة بما في القرآن الكريم، بل لعلها في كتاب الله أكثر اختصاراً ووقاراً. ولكن من أين جاء الذهب الذي صنعوا منه العجل؟ تقول التوراة ــ مفتخرة ــ أنهم قد استولوا عليه بجريمة نصب واحتيال وخيانة للثقة والأمانة! فرووا على لسان الله تعالى: «واهبُ الشعب (يعني بني إسرائيل) حظوة في عيون المصريين، فإذا انصرفتم لا تنصرفون صفر اليدين، بل تسلب المرأة (الإسرائيلية) من جارتها ومن نزيلة بيتها (من المصريات) أمتعة فضة وذهب وثياباً، تجعلونها على أبنائكم وبناتكم فتسلبون المصريين!» [سفر الخروج ٣: ٢١، ٢٢].

وعندما تمت المعجزة وعبروا البحر، وأوغلوا في صحراء سيناء، صعد موسى الجبل وهم في أسفله ينتظرون «ورأى الشعب أن موسى قد أبطأ في النزول من الجبل، فاجتمع الشعب حول هارون وقالوا له: قم فاصنع لنا إلهاً يسير أمامنا، فإن ذلك الرجل موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا الأقراط الذهبية التي في آذان نسائكم وأبنائكم وبناتكم وأحضروها لي. فنزع جميع الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها هارون. فأخذها من أيديهم، وصوّرها في قالب، وصنعها عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذا إلهك

يا إسرائيل، الذي أخرجك من أرض مصر! فلما رأى ذلك هارون بنى أمامه مذبحاً! وأعلن هارون قائلاً إن غداً عيد الرب، فقوموا مبكرين، وأحرقوا الأضحيات، وقرّبوا ذبائح سلامة! وجلس الشعب يأكلون ويشربون، ثم قاموا يلعبون» [خروج ٣٢:١ ــ ٦].

وقد لخّص ذلك القرآن الكريم في واحدة فقط من آياته البينات ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وأهم من ذلك ما يليه من سياق القصة. فالتوراة تدين هارون وتعلق مسؤوليته عن تلك الردَّة؛ في حين أن القرآن الكريم يشير بأصبع الاتهام إلى شخص آخر ويجعل منه داعية إلى الضلال، وهو السامري. فالتوراة تقول بعد عبادة اليهود للعجل: «فقال الرب لموسى: هيا فانزل فقد فسد شعبك الذي أخرجته من مصر. وسرعان ما حادوا عن الطريق الذي أمرتهم بسلوكه، وصنعوا لهم عجلاً مسبوكاً فسجدوا له وذبحوا له، وقالوا هذا إلهك يا إسرائيل الذي أخرجك من أرض مصر. وقال الرب لموسى: قد رأيت هذا الشعب، فإذا هم شعب قساة الرقاب. والآن دَعْني ليضطرم غضبي عليهم فأفنيهم، وأجعلك أمة عظيمة. فتضرّع موسى إلى الرب إلهه وقال: يا رب لمَ يضطرم غضبك على شعبك الذين أخرجتهم من أرض مصر ببأس شديد ويد قوية؟ ولِمَ يقول المصريون إنه أخرجهم من هنا بمكيدة ليغنيهم بين الجبال ويبيدهم عن وجه الأرض؟

ارجع عن حُمُوّ غضبك وعُد عن مساءة شعبك، واذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل (يعقوب) عبيدك الذين أقسمت لهم بذاتك وقلت لهم: إني سأكثر نسلكم كنجوم السماء وجميع الأرض التي تحدثت عنها سأعطيها لنسلكم فيرثونها إلى الأبد!» [خروج ٣٢:٧ ــ ١٤].

ثم تأتي المشادة مع هارون مسبقة بوصف قصصي للمنظر كله:

«ثم انصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيهما، ومن هنا كانا مكتوبين واللوحان هما صنعة الله، والكتابة هي كتابة الله، منقوشة على اللوحين! وسمع يوشع (خادم موسى) صوت الشعب في ضوضائهم، فقال لموسى: صوت حرب في المحلّة! فقال: ليس ذلك بصياح نصر أو هزيمة، بل إني أسمع صوت غناء. فلما دنا من المحلة رأى العجل والرقص! فاشتعل غضبُ موسى ورمى باللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل، ثم أخذ العجل الذي صنعوه فأحرقه بالنار؟ وسحقه حتى صار ناعماً، وذراه على وجه الماء، وسقى بني إسرائيل.

وقال موسى لهارون: ما صنع بك هؤلاء الشعب حتى جلبت عليهم إثماً عظيماً؟ قال هارون: لا يضطرم غضب سيدي! أنت عارف بالشعب إنهم أشرار» [خروج ٣٢: ١٥ ــ ٢٢].

وأما القرآن الكريم فيقول في هذا الموقف: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٨٣ ــ ٩٠].

وهكذا نجد السياق القرآني يبعد هارون عن أن يكون مسؤولاً عن كفر بني إسرائيل، وعن صنع هذا الصنم الذهبي، ويبرز لذلك شخصاً آخر هو السامري

المتزعم لتلك الردة. وكيف يمكن تصور غير ذلك في حق هارون وهو أبو أئمة الدين عندهم، وحتى الآن من شروط الحاخام أن يرجع نسبه إلى هارون؟ ولكنهم نسبوا إلى موسى أنه دخل في مفاوضات ومساومات مع الله، وحصل لهؤلاء المرتدين عَبَدة الذهب على عفو تام وشامل، كما استطاع أن يطفىء غضب الله عليهم، ويسترد لهم كل الوعود التي كانت قد أعطيت لهم، حتى العهود الإقليمية الخاصة بما يسمونه «أرض الميعاد» وهي وعود تتشدَّق بها الصهيونية إلى اليوم.

ومن وصف التوراة (سفر الخروج) رجَّح الباحثون طريق الخروج، وهو على ما يبدو الطريق الذي كانت تسلكه بعثات التعدين المصرية قديماً إلى جنوب سيناء، فبدأوا رحيلهم من بلدة «رعمسيس» إلى سكوت، ومنها إلى إيثام، ثم «فم الحيروت». وهناك أدركهم فرعون مصر، ولكن كانت نجاة موسى عليه السلام بأتباعه من كيد فرعون وجنده إلى «برية شور» في سيناء، ثم وصلوا «مارة» و «إيليم» ثم نزلوا إلى «دفقة» بوادي فيران ثم وصلوا «رفيديم» وهناك دارت أول معركة لبني إسرائيل مع العماليق سكان المنطقة المحليين، ومن «رفيديم» واصلوا سيرهم إلى «برية سيناء» في مواجهة جبل سيناء «جبل موسى» حيث تلقى موسى الشريعة، واستقر بنو إسرائيل في «برية سيناء» ما يقرب من عام، رحلوا بعدها إلى «قادش برنيع» مارين «بحضيروت» و «برية فاران» ثم عصيون جابر الواقعة على نهاية خليج العقبة، ومنها إلى حيث رحلوا إلى «جبل هور» في مدخل أرض الأدوميين.

وعلى أي حال فطبقاً لرواية التوراة فإن موسى الذي ولد لأبوين ينتميان إلى قبيلة لاوي (ليفي)، قد حدَّد للإسرائيليين الخارجين معه أرض فلسطين المقدَّسة كهدف ــ من أهداف هذا التحرك ــ يجب الوصول إليه لضمان سلامتهم، وأما الأكثر احتمالاً وتصديقاً فهو أن الهدف كان اللحاق بالقبائل ذات الصلة باللاويين والمقيمين حول قادش (برنيع) والالتحام بهم، وربما كانت هناك فكرة الحج إلى

جبل سيناء المقام الأول للرب. وتمت رحلة الخروج كما أوردناها طبقاً لرواية التوراة التي استطردت بأن موسى بأمر من الرب حثَّ بني إسرائيل على تحطيم أغلالهم في مصر ونجح بالتالي في تنفيذ ما أمر به، وقد لاقت هذه الرواية معارضة بعض الباحثين الذين أظهروا أن الرواية مثلت الحقائق التاريخية تمثيلاً خاطئاً.

ولكن ليس هناك من أسباب تجزم بعدم الاقتناع بأن موسى حث على التحرك خارج مصر بما كان يبشر به كأمر مباشر صادر من الرب ، وهذا العمل القيادي الكبير الذي قام به موسى في رحلة الخروج لا يكاد يقارن بدعوته الدينية والتي أعقبها تغيير اجتماعي كبير في بنية المجتمع داخل بني إسرائيل، فمن الناحية الدينية فقد أوحى الرب لموسى بالشريعة وأسس العقيدة حول إله واحد أحد، إلاَّ أن اليهود اعتبروه إلههم القومي الخاص بهم ولذلك اعتبروا أنفسهم «شعب الله المختار»[1].



---

(١) ظاظا: الساميون ولغاتهم (ص ٧٦).

التمهيد لغزو كنعان

أما من الناحية التنظيمية فقد حدَّد موسى مهام كل سبط من الأسباط الاثني عشر ومسؤوليته في رحلة الخروج، فيما عدا سبط اللاويين الذي كانت له الزعامة الدينية على سائر الأسباط. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك مجلس تشريعي برئاسة موسى يضم سبعين رجلاً اختارهم بنفسه.

وعندما وصل موسى وقومه إلى «فاران»، أرسل رجالاً إلى أرض فلسطين للقيام باستطلاع أفضل طرق الاقتراب ومدى التحصينات هناك، وهذا نص ما أورده سفر العدد (ص ١٣ :١٧ ــ ١٨) «اصعدوا من هنا إلى الجنوب، واصعدوا إلى الجبل، وانظروا الأرض ما هي، والشعب الساكن فيها أَقَويٌّ أم ضعيف، قليل أم كثير، وكيف هي الأرض جيِّدة أم ردية».

وعادوا بعد أربعين يوماً إلى «برية فاران» ليقدموا إلى موسى بعض ثمار فلسطين ويُطلِعوه على نتيجة استطلاعهم لطرق وتحصينات فلسطين والتي وجدوها جيدة، وأخبروه بأن العماليق يسكنون جنوب فلسطين، وأن الحيثيين واليبوسيين والعموريين يسكنون الجبال، في حين يسكن الكنعانيون على ساحل البحر (العدد ١٣ : ٢٧ ــ ٢٨).

وبعد أن وصف العائدون من استطلاع أرض فلسطين الكنعانيين بقوة بأسهم، بدأت حركة تزمّر بين قوم موسى ضده وضد أخيه هارون؛ وصعد بعضهم إلى

الجبل غاضبين مطالبين بعزل موسى والعودة إلى مصر. وحسب رواية التوراة فقد غضب الرب عليهم فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم (العدد ١٤ : ٤٢ ـ ٤٥).

وعند هذه المرحلة تبدو رواية التوراة غامضة مضطربة وخاصة في سفر العدد الإصحاحات ٢١، ٢٢، ٢٣ وسفر التثنية الإصحاح الأول والثاني، ويقرر سفر العدد (٣٢ : ١٣) وتثنية (٢ : ٧) ما نصه: «فحمى غضب الرب على إسرائيل وأتاههم في البرية أربعين سنة حتى فني كل الجيل الذي فعل الشر في عيني الرب».

وفي هذه الرواية يرى بعض الباحثين أن ما بقي من بني إسرائيل قَضَوا فترة الأربعين سنة مع موسى في منطقة قادش، التي كانت آخر منطقة وصلوا إليها بجوار جبل هور على مدخل أرض أدوم، وهناك توفي هارون بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر[١] (العدد ٣٣ : ٣٨).

ويبدو من رواية التوراة أن موسى خطط لمهاجمة أرض فلسطين من ناحية شرق الأردن بعد أن رأى صعوبة اختراقها من ناحية الغرب. وكانت خمس مما لك

---

(١) كانت الموقعة الأولى في جنوب أرض كنعان حيث حاول بنو إسرائيل الاستيلاء عليها، فتصدّى لهم الملك (عراد) الكنعاني وهزمهم. وأرغموا على تغيير خط سيرهم واتجهوا عبر بادية فرين إلى منطقة أدوم، وقد رفض ملكها السماح لموسى وجماهيره الغفيرة بالمرور في أرضه. وفي أدوم كانت تعيش عشيرة كبيرة من سلالة عيسو بن إسحق الذي تزوج من نساء كنعانيات، وكان موسى قبل أن يتجه إلى أدوم وقد أرسل رسلاً إلى ملكها يستأذنه بالمرور إلى منطقة مؤاب، لكنه رفض ذلك، وتحوّل بنو إسرائيل إلى جبل هور وفيه توفي هارون ودفن وكان عمره آنذاك ١٢٣ سنة. واتجه بنو إسرائيل شرقاً عبر صحراء مؤاب إلى المنطقة (الأمورية) الواقعة شرق نهر الأردن. ودارت المعارك بين سيحون ملك (الأموريين) والغزاة الذين اعتمدوا على أعدادهم الضخمة التي تفوق عشرة أضعاف عدد الأموريين. واستولى الغزاة على حشبون المدينة الرئيسية وجميع القرى، ثم زحفوا إلى منطقة باشان شمالاً وقتلوا ملكها عوج وأفراد بيته وقومه. (راجع سفر العدد: الإصحاح ٢١).

في هذه الناحية الشرقية هي: مملكة سيحون من جلعاد (العموريون)، ومملكة باشان، ومملكة عمون التي استولى عليها العموريون من العمونيين، ومملكة مؤاب، ومملكة أدوم، والمملكتان الأخيرتان تجنبهما موسى وقومه لمناعة تحصيناتهما في حين استولوا على الممالك الثلاث الأولى.

وتحدثنا التوراة على أن موسى قد توفي ـ على جبل بنو شرق الأردن ـ وأرض فلسطين على مرمى بصره، فتولّى يوشع بن نون قيادة بني إسرائيل من بعده. وتبدو رواية التوراة غامضة عند ذكرها وفاة موسى، وإن جاءت في الإصحاح الأخير من التوراة (تثنية: ٣٤) بما نصه: «فصعد موسى إلى جبل نبو من فيافى مؤاب، إلى رأس الربوة المواجهة لأريحا، فأراه الرب جميع الأرض حتى جلعاد إلى دان. وجميع نفتالي وأرض إفرايم ومنسّى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب، والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صُوغر. وقال له الرب: هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً: لنسلك أعطيها، قد أريتك إيّاها بعينيك، ولكنك إلى هنا لا تعبر، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب بأمر الرب، ودفن في الوادي في أرض مؤاب تجاه بيت فغور ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا»[١].



(١) سفر التثنية (٣٤: ١ ـ ٦).

الغزو الإسرائيلي لكنعان

يبدو أن الأسباط الإسرائيلية قد بدأت التسلل الدموي إلى أرض كنعان قبل فترة وجيزة من تولي سيتي الأول عرش مصر (حوالي ١٣٠٤ أو ١٣١٨ ق.م).

ويقصّ علينا التاريخ الفولكلوري أن قيادة بني إسرائيل انتقلت إلى يوشع بن نون، الذي قاد غزو الأسباط الاثني عشر لأرض كنعان، وعبر بهم إلى الضفة الغربية للأردن، وكان قد بدأ بمهاجمة مدينة أريحا واحتلالها بعد أن أحرقها بنو إسرائيل بالنار وبقروا بطون نسائها وأطفالها ونهبوا ثرواتها من الذهب والفضة.

وكذلك فعلوا مع مدن عاي والجلجال وشيلوح وبقية المدن الكنعانية التي احتلوها أثناء تقدمهم إلى يبوس (القدس). وخلال غزو بني إسرائيل لفلسطين، اتحد ملك اليبوسيين «أدوني صادق» مع أربعة من الملوك المجاورين (ملك حبرون ـ ملك يرْمُوت ـ ملك لخيش ـ ملك عجلُون) وتصدَّوا ليوشع بن نون، إلاَّ أنهم وقعوا في الأسر فأعدمهم، وبرغم ذلك لم يتمكن بنو إسرائيل من احتلال يبوس (القدس) نفسها، إذ كانت محصنة تحصيناً منيعاً، حيث قاومهم اليبوسيون الذين اتحدوا مع ملك حاصور ضد يوشع، إلاَّ أنهم انهزموا أيضاً وتشتت شملهم (يوشع ١١ :١ ـ ٩)، ومع ذلك لم يتم الاستيلاء عليها إلاَّ بعد وفاة يوشع، حيث حاصرها بنو إسرائيل ودمروها وأشعلوا النار في المدينة. ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على قلعة اليبوسيين (حصن صهيون فيما بعد).، وبقيت في أيديهم مدة

عهد القضاة وفترة حكم شاءول (١٠٢٠ ـ ١٠٠٠ ق.م) أول ملوك بني إسرائيل.

وبذلك سقطت في يد يوشع إحدى وثلاثون إمارة للكنعانيين، والأرجح أن نبي إسرائيل لم يطردوا الكنعانيين المقيمين في جازر، فأقام الكنعانيون بين إفرايم إلى هذا اليوم وكانوا عبيداً يؤدون الجزية (يوشع ١٦: ١٠، قضاة ١: ٢٨ ـ ٢٩).

وكان يوشع بن نون قد شرع قبل وفاته في تقسيم فلسطين إلى أنصبة قبلية بين أسباط بني إسرائيل الاثني عشر محدِّداً مكان كل سبط، فقد بدأ في توزيع الأسباط بالقرعة تبعاً لتعداد أفراده كما ورد في سفر العدد (٢٦ ـ ٥٢ ـ ٥٦)، ما نصه: «ثم كلّم الرب موسى قائلاً: لهؤلاء تقسَّم الأرض نصيباً على عدد الأسماء، الكثير تكثر له نصيبُه، كل واحد حسب المعدودين منه يعطي نصيبه، إنما بالقرعة تقسم الأرض حسب أسماء أسباط آبائهم يملكون، حسب القرعة يقسم نصيبهم بين كثير وقليل»[1].

وتقول الرواية إن القرعة أجريت بحضور «إلعازار» الكاهن: الذي كان مرتدياً لباسه الكهنوتي، وقد وقف أمامه يوشع وجميع الأسباط الاثني عشر، ووضع أمامه قدراً يحتوي على جميع أسماء الأسباط، وكان هناك قدر آخر به أسماء الأماكن التي ستوزع. ووقف بجوار «إلعازار» اثنان من الكهنة الشباب يرفع كل واحد منهما أسماء من أحد القدرين، وهكذا تمت إجراءات القرعة. [يوشع ١٣: ٦].

وجاء في سفر يوشع ما نصه: «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته، كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحيثيين وإلى البحر نحو مغرب الشمس يكون تخومكم»[2].

---

(١) سفر يوشع (٦: ٢١، ٢٤).

راجع د. سيد فرج راشد: القدس عربية إسلامية، الرياض، ١٩٨٦، (ص ٤٧ ـ ٤٩).

(٢) سفر يوشع (١: ٣ ـ ٤).

واستقر سبطان ونصف في المنطقة التي تقع شرق الأردن وهم: رأوبين وجاد ونصف سبط مِنَسّى، وكان رأوبين وجاد قد تقاعسا عن المضي مع بقية الأسباط لعبور نهر الأردن، وذكّرهما موسى قبل وفاته بغضب الرب عليهما إذا لم يساعدا في دخول كنعان القوية التحصينات، فتعهّدا بالتقدم مع بقية الأسباط بعد أن يأمنا في استقرارهما في شرق الأردن، وهي أرض مملكة سيحون (الأموريون) وأرض مملكة عوج (باشان).

واستقر سبط دان على سفوح جبال يهوذا وفي جزء من السهل الساحلي المجاور، ونتيجة لضغط الفلسطينيين فقد نزحت بعض عشائر قبيلة دان إلى الشمال، وهناك أقاموا مدينة باسم سبطهم دان، وهي على ما يبدو كانت في أقصى شمال فلسطين القديمة.

واستقر سبطا يهوذا وبنيامين حول القدس، في حين احتل كل من سبطي إفرايم ومنسّي تلال السامرة في شمال القدس، حيث أصبح نصف سبط منسّى في شمال جبل إفرايم وسبط إفرايم إلى الجنوب.

واستقر سبطا يسساكر[1] وزبولون في شمال منطقة منسّى، وهي المنطقة الواقعة بين وادي مرج بن عامر (يزراعيل) الخصب غرباً إلى ساحب البحر الأبيض. واستقر سبط آشر في الجليل الغربـي، في حين أصبح الجليل الشرقي نصيب نفتالي (بما في ذلك بحيرة طبرية).

أما سبط اللاويين (ليفي) فكانت له أعمال الكهانة على بني إسرائيل، وذلك حسب ما ورد في سفر العدد (٢٥:١٠ ــ ١٣) ما نصه: «فكلّم الرب موسى:

---

(١) يبدو أن الاضطرابات التي حدثت في المنطقة قد اضطرت الملك سيتي الأول أن يقود حملة إلى مكان لم يبعد كثيراً عن «بيت شان» الذي كان مركزاً للقيادة المصرية، وأعاد الأمن بعد قتال دام يومين. وأطلق على الذين تسببوا في هذه الاضطرابات اسم أبرو (Apru) في النص المصري للوحة سيتي الأول، (Yeiven Op. Cit, P. 36).

فنحاس بن إلعازار بن هارون قد ردَّ سخطي عن بني إسرائيل بكونه غار غيرتي في وسطهم حتى لم أُفْنِ بني إسرائيل بغيرتي، ولذلك قُل هاأنا ذا أعطيه ميثاق السلام، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي لأجل أنه غار لله وكفّر عن بني إسرائيل».

ولم يكن لسبط اللاويِّين مكان محدد للإقامة مثل بقية الأسباط، وذلك نتيجة لقيامه بالكهانة في كل أماكن الأسباط الاثني عشر، وحسب ما ورد في سفر يوشع (١٣ : ١٤) ما نصه: «ولسبط لاوي لم يُعْط نصيباً».



الفصل الثاني

داود ومملكة بني إسرائيل

* عصر القضاة وعرب فلسطين (اليبوسيون والأدوميون والمؤابيون والعمونيون والكنعانيون.
* داود وتماسك الأسباط الاثني عشر.
* سليمان وانقسام مملكة بني إسرائيل.
* مملكتي إسرائيل ويهوذا في عَهْدَي رحبعام بن سليمان ويربعام الأول.
* خطايا يربعام الأول.
* الوثنية الكنعانية وتأثيرها على الفكر الديني في المملكة الشمالية.
* حملة ششنق ضد مملكتي إسرائيل ويهوذا.
* عمري وبناء السامرة كعاصمة لإسرائيل.
* ملوك إسرائيل بعد عمري (أهمهم آحاب).
* أسرة ياهو ملك إسرائيل.

عصر القضاة وعرب فلسطين

هناك حقيقة هامة مؤداها أن العبريين عندما تسلّلوا إلى فلسطين وجدوا بها اليبوسيين والأدوميين والمؤابيين والعمونيين والكنعانيين وغيرهم، وهؤلاء جميعهم عرب (تكوين ١٥:١٩). لم يكن اليهود إذن هم الشاغلون الأوائل لفلسطين، بل كانوا بالأحرى ولفترة محدودة بين كثيرين غيرهم من الشعوب العربية، ولا يستطيعون بحال من الأحوال المطالبة بوضع استثنائي لهم في سياق هذا التاريخ الطويل، إلاَّ أن الصهيونية السياسية تُخضع أحداث الماضي للتلاعب والتحريف، حيث اعتبروا غزو فلسطين في عهد يوشع حرباً مقدسة، وتتذرع بالوعد الإلهي الوارد في سفر التكوين (١٥:١٨) ونصه: «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». ولا يوجد خارج التوراة أي إشارة أو وثيقة تثبت هذه الرواية التي انفرد بها سفر التكوين.

وبعد وفاة يوشع بن نون اشتدت الأزمات وسادت الفوضى بين بني إسرائيل في فلسطين، وارتد كثير منهم عن العقيدة اليهودية إلى الوثنية، ولذلك تشرّبوا كثيراً من عادات الكنعانيين وطقوسهم الدينية، فنهض عدد من الزعماء المحليين وتصدوا لذلك وحاربوا دفاعاً عن الكيان الديني والاجتماعي؛ وهؤلاء هم القضاة الذين سميت باسمهم حقبة من التاريخ اليهودي تلت غزوهم لفلسطين بنحو قرنين من

الزمان. وفي هذه الأثناء شنَّ الفلسطينيون هجوماً كبيراً، بدأ من المنطقة الساحلية وانتهى إلى داخل فلسطين، وحاربوا بكل قوة وهزموا بني إسرائيل، وهدموا هيكل سيلون[1] وسبَوا تابوت العهد.

وفي هذه الفترة أيضاً كان المديانيون والعمونيون والمؤابيون والأراميون يواصلون إغارتهم ضد بني إسرائيل، وساعدهم على ذلك الفرقة التي كانت تمزق الأسباط الإسرائيلية من الداخل.

شاءول أول ملوك بني إسرائيل (١٠٢٠ ـ ١٠٠٠ ق.م): واستمرت حالة الفوضى والتمزق حتى جاء النبي صمويل التشبي وهو من سبط بنيامين وآخر القضاة ـ ونجح من أن يجمع مجلساً من ممثلي أسباط الشمال والجنوب، ورشح لهم شاءول ملكاً على كل بني إسرائيل فبايعوه، وبذلك تحققت فكرة الوحدة الوطنية التي نادى بها صمويل الذي عاون شاءول في حكمه بني إسرائيل، كما استعان بابنه يوناتان وبرجل قوي يجيد فنون القتال من سبط يهوذا وهو داود. وكان صمويل وبقية بني إسرائيل قد نصَّبوا شاءول (حوالي عام ١٠٢٠ ـ ١٠٠٠ ق.م) ملكاً عليهم في الجلجال[2].

وقد أقيمت هذه الوحدة السياسية في وقت كان الموقف التاريخي مواتياً على نحو فريد، فكانت مصر تجتاز فترة تأخر واضمحلال، أما آشور فكانت مشغولة

---

(١) سيلون: هي الآن خربة سيلون، كانت في منطقة سبط إفرايم، ولم تكن أهمية كبيرة قبل أن ينقل تابوت العهد إلى هيكلها، وقد ظلَّ التابوت بها حتى وقع في أيدي الفلسطينيين الذين ربما هدموا المدينة والهيكل معاً (حوالي ١٠٠٠ ق.م).

(٢) صمويل (١١ : ١٤ ـ ١٥). وتقع الجلجال في سهل أريحا إلى الشمال الشرقي للقدس، وهي أول قرية احتلها بنو إسرائيل بعد أن عبروا نهر الأردن بعد خروجهم من مصر، وقد اتخذها يوشع مركز لعملياته ضد الكنعانيين.

A. Lods: Israel from its Beginning, PP. 352-358.

بتأمين حدودها وتوطيد دولتها في العراق القديم. وكان نظام الحكم في عهد شارول قائماً على أساس غير ثابت، إذا أن عجزه عن السيطرة على الفئات المعارضة داخل فلسطين منعه من توطيد سيطرته عليها، كما كان نزاعه مع داود زوج ابنته ميخال من الأسباب التي عجّلت بسقوطه[1] وكان شاءول قد بدأ سلسلة من الحروب ضد أعدائه، ومن مقدمتهم الفلسطينيون الذين هزموه في معركة فاصلة على جبل جلبّوع. وقد انتهت المعركة بمقتل شاءول منتحراً مع أبنائه الثلاثة، مما أتاح الفرصة أمام داود ليصبح ملكاً[2].



(١) يوحنان أهاروني: إرتس يسرائيل بتقوفت همقرا (أرض إسرائيل في عصر المقرا، ١٩٦٢م، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

راجع: A.C. Welch. The Religion of Israel under the Kingdom, 1912, PP. 36-40.

(٢) ١ صمويل (٣:٥)، حيث جاء فيه أن قوة الفلسطينيين تقدر بحوالي ٣٠,٠٠٠ ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس، مما يوضح مدى قوة تسليحهم في هذا الوقت.

R.A. Macalister: Then philistines, Their History and Civilization, 1914, P. 90.

E. Heaton: The philistines and old Testament, 1971, PP. 170-171.

داود (١٠٠٠ ـ ٩٦١ ق.م)
وتماسك الأسباط الاثني عشر

حاول داود المحافظة على تماسك مملكة بني إسرائيل بالتقرب إلى الأسباط الشمالية، ذلك أنه كان هو نفسه من سبط يهوذا في الجنوب، وكان داود قد حاول أن يعيد الموقف لصالح بني إسرائيل لكن الأسباط الشمالية رفضت مبايعته وأقاموا إشبوشت ـ ويسمى أيضاً إشبعل ـ بن شاءول ملكاً عليهم لمدة عامين، وذلك بمساعدة أبنير قائد جيش شاءول. وكان إشبوشت قد اتخذ «محانيم» عاصمة له (٢ صم ٢ : ٨ ـ ١٠)، بينما بايعت الأسباط الجنوبية داود ملكاً عليها في «حبرون» (الخليل)، حكم فيها سبع سنوات ونصفاً (٢ صم ٢ : ١١)، واستمرت أثناءها الحرب بين الأسباط الشمالية والأسباط الجنوبية وانتهت بموت إشبوشت. وفي أعقاب ذلك اجتمع ممثلو بني إسرائيل من الشيوخ وقواد الجيش، وعقدوا مجلساً في مدينة حبرون حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م ونصّبوا داود ملكاً على كل بني إسرائيل[١]. (٢ صم ٥ : ٣).

وكان داود قد لجأ إلى الفلسطينيين لمساعدته في نضاله ضد شاءول والتي انتهت بموته، ومن الغريب أن نجد كاتباً يهودياً هو ـ يوحانان أهاروني ـ ينكر مساعدة الفلسطينيين لداود، على الرغم من إشارة العهد القديم لهذه المساعدة، والتي وردت في سفر صمويل الأول ونصها «قال داود في قلبه، إني سأهلك يوماً

---

(١) Lods: Israel. PP. 359-360.

M.L. Margolis: A History of the jewish people, 1969, PP. 45-47.

بيد شاءول فلا خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين فييأس شاءول مني». (١ صم ٢٧ : ١). وبلغت الفترة التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر (١ صم ٢٧ : ٧).

كما أكد أهاروني مقاومة الفلسطينيين لوحدة بني إسرائيل[1]، وحقيقة الأمر: أنهم حينما قاوموا هذه الوحدة، وظهروا كقوة عسكرية لا يستهان بها، في هذا الوقت، خطط داود للقضاء عليهم وهزمهم من معركتين فاصلتين في وادي الرفائيين (٢ صم ٥ : ١٧ ــ ٢٥، ٨ : ١٠) جنوبي القدس، حيث طاردهم حتى المنطقة الساحلية، وبذلك انحسر خطرهم عن مملكة داود فترة من الزمن. ونتيجة لذلك أصبحت لداود حرية السيطرة السياسية والدينية، فزحف إلى يبوس[2] (القدس)

---

(١) يوحنان أهاروني: المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) ذكرت أول إشارة إلى مدينة القدس في النصوص المصرية السائدة منذ القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد. وكان اسمها على الأرجح (روشاليم Rushalimum)، ووردت بعد ذلك في رسائل تل العمارنة (القرن ١٤ ق.م) باسم «أوروسالم».
وقد سميت يبوس نسبة إلى اليبوسيين، وهم فرع من الكنعانيين سكنوا القدس وما حولها. (يوشع ١٥ : ٨، ٦٣ ــ قضاه ١ : ٢١، ١٩ : ١٠)، ويبدو أن اسم يبوس الذي سمى اليبوسيون باسمه هو أحد أولاد كنعان (تكوين ١٠ : ١٥).
وكان المصريون يطلقون عليها اسمها اليبوسي «يابيتي» و «يابتي» وأحياناً يستخدمون اسمها الكنعاني «أورسالم». ومن المحتمل أن صيغة هذه الكلمة آرامية تتركب من مقطعين: المقطع الأول «أور» بمعنى موضع أو مدينة، والثاني «سالم» بمعنى السلام وهو غالباً اسم إله وثني لسكان فلسطين الأصليين وهو إله سلامة القوافل، وعلى ذلك فكلمة «أورسالم» تعني مدينة السلامة. وظل اسم «يبوس» عَلَماً على المدينة (قضاه ١٩ : ١٠) حتى استولى عليها داود، وصار بعد اسمها «مدينة داود» (١ أخ ١١ : ٧، ٢ صم ٥ : ٩). وقد وجد اليهود بعد ذلك صعوبة في كتابة اسمها «أوروسالم» باللغة العبرية، فوردت في أسفار العهد القديم ــ وهو الكتاب المقدس لليهود ست مرات تحت اسم «يروشاليم» ولكنها وردت بدون ياء ٦٥٦ مرة في هذه الأسفار أيضاً.

بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، إلاّ أنه واجه مقاومة شديدة من اليبوسيين[1] سكانها العرب الأصليين، إلاّ أنه تمكن من احتلالها بعد أن انتزع منهم جبل صهيون[2]، وبنى عليه قطة حصينة ساعدته على إكمال استيلائه على المدينة العربية التي اتخذها عاصمة لملكه. (٢ صم ٢:٨ ــ ١٠). وكان اختياره للقدس دليلاً واضحلاً على حنكته السياسية، فهي تتمتع بمزايا كثيرة من أهمها أنها ذات موقع

= ثم نجد اسم القدس وارداً من نقوش الإمبراطور الآشوري (حوالي ٧٠٠ ق.م) تحت اسم «أورسليمو». وفي عهد الإسكندر الأكبر سماها اليونان «هيروسوليما» ثم صار اسمها «إيليا كابيتولينا» في عصر الإمبراطور الروماني «إيليو هدريان» وظلّت تعرف بهذا الاسم «إيليا» حتى أوائل الفتح الإسلامي، وسميت كذلك في العهدة العمرية.

أما اسم «القدس» فقد عرفت به المدينة منذ بداية تاريخها عندما أقيمت فيها أماكن مقدسة للعبادة ومن الجلي أن المؤرخ اليوناني «هيرودوت» (٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق.م) لم يذكر اسم أورشليم ولكنه ذكر كلمة «قديتس» مرتين، فاسم القدس محرَّف في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا»، ومما يثير في النفس ريبة أن اليهود أطلقوا عليها أحياناً اسم «مدينة القدس» (إشعيا ٤٨:٢ ــ نحميا ١١:١) أما بيت المقدس» فقد أطلق على المدينة بدءاً من العصر الإسلامي. ومن أسمائها «الزيتون».

ومؤدى هذا كله أن مدينة القدس كانت تحمل اسم أورشليم وهي الصيغة العربية لاسم أوروسالم الآرامي، قبل غزو الإسرائيليين لها، وهي تحتل مكانة بارزة في التاريخ قبل الوجود اليهودي فيها.

راجع سيد فرج راشد: القدس عربية إسلامية الرياض، ١٩٨٦، ص ٢٧ ــ ٢٨.

(١) اليبوسيون هم بناة مدينة القدس، وكانت على عهدهم تُسمّى «يبوس»، ويعود أصلهم إلى شبه الجزيرة العربية، حيث كانوا بطناً من بطون العرب الأوائل نشأوا في صميم الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية، واستوطنوا فلسطين. وأغلب الظن أن ذلك حدث حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م.

(٢) جبل صهيون: هذه التسمية ليست عبرية بل هي فلسطينية قبل الوجود اليهودي. وتأتي كلمة صهيون من الكلمة الكنعانية القديمة «صيّة צִיָּה» ومعناها قمة، وبقي منها في اللغة العربية صياصي الجبال بمعنى قممها.

استراتيجي على تل مرتفع وسط فلسطين، وهي مدينة محايدة لا تنتمي لأي من الأسباط الاثني عشرة، ممَّا جعله لا يظهر أمام بني إسرائيل بمظهر الملك القبلي، الذي يحاول أن يفرض عليهم نفوذه، ذلك أنه لو قُدِّر له أن يختار مدينة من بنيامين أو إفرايم، لخاطر بفقد يهوذا التي كانت أقوى ساعد له.

وبالاستيلاء على القدس واستعادة تابوت العهد، صار للدولة في عهد داود من جديد مركزها السياسي والديني، وبسلوك سياسة قوية موجهة توجيهاً موفقاً، صارت له السيطرة على فلسطين، كما أنه استولى على مدن الفلسطينيين وضمها لمملكته واعتبر أهلها عبيداً له لأنهم قاوموا حملاته. كما استولى على مؤاب وأدوم وشرق الأردن، ثم اتجه إلى آرام وزحف إلى دمشق واستولى عليها وامتدت سيطرته إلى حماه، وصار الآراميون عبيداً لداود بعد أن عيّن محافظين له من آرام.

وهكذا اتسعت مملكته على حساب ممالك الشرق واستولت على ثرواتها الهائلة من الذهب والنحاس. وكما أسلفنا فقد أقام علاقاته التجارية على صداقته مع حيرام الملك الفينيقي «الصور» [٩٨١ ـ ٩٤٧ ق. م]. (٢ صم ٨: ١ ـ ١٤).

وقد حاول داود أن يحافظ على التماسك القبلي لأسباط بني إسرائيل، فأحضر تابوت العهد إلى القدس لكي تكون مركزاً دينياً (٢ صم ٦٠: ١١ ـ ١٢). ولا يدري أحد على وجه اليقين الصورة المثلى لهذا التماسك. ولكننا رأينا أنه لم يحدث اندماج حقيقي بين الأسباط الشمالية والجنوبية، وبقي هذا الانفصال قائماً في ضمائرهم، حتى أن سياسة التوسع التي اتبعها داود[1] لم تستطع تماماً القضاء على عوامل الانهيار داخل مملكته، مما فجّر الثورة التي تزعمها ابنه إبشالوم ضده،

(١) حاربت بنو إسرائيل في أرض مؤاب ونجح داود في إخضاعها (٢ صم ٨: ٢)، والمعروف أن ثمة قرابة كانت بين إسرائيل ومؤاب بن لوط الذي كان ابن عم إبراهيم (تك ١٩: ٣٧).

D.Winton Thomas (Editor): Documents from old testamemt times, London, 1958, P. 195.

وعمّق أسباب التمزق والخلاف بين الشمال والجنوب، مما اضطر داود إلى الفرار إلى ما وراء نهر الأردن لينجو بنفسه[1] (٢ صم ١٥: ١٩). ولما كانت عشيرة داود من سبط يهوذا فقد بدأ الإسرائيليون يُسمون باليهود أيضاً منذ هذا الوقت.

ولكن أهم العوامل التي ساعدت داود على الاحتفاظ بنوع من التوازن المشوب بالحذر داخل فلسطين، الضعف الذي كان يجتاح مصر من هذه الفترة مما أفقدها سيطرتها على فلسطين وبلاد الشام، بالإضافة إلى ما أصاب الدولة الأشورية من اضمحلال بعد وفاة تجلّات فالصر الأول عام ١٠٧٦ ق. م.

ولكن عهد داود كان في جملته عهد يسر ورخاء ارتفع به اليهود في العصور الكئيبة اللاحقة إلى رتبة العصر الذهبي. وقد بلغت فيه الحياة السياسية التجارية درجة عالية من التقدم، واحتفظ الدين إلى حد بعيد ببساطته الأولى ونقائه القديم، وبنقل تابوت العهد إلى القدس تركّز الدين القومي في العاصمة الموحّدة. وفي عهد داود اتفقت مُثُل الكهنة مع مُثُل الملك، وبفضل هذا الانسجام نعمت إسرائيل زمناً بالسلام والازدهار. ولكن سياسة سليمان بعد ذلك وضعت حدّاً لهذا التحالف (بين الملك والكهنة)، فعلى الرغم من بناء المعبد المركزي ليهوه فإن قبوله صوراً أجنبية من العبادة، كان لا بدَّ أن يحدث صراعاً بين الولاء السياسي والولاء الديني ويؤدي إلى أزمة دينية كما سنرى[2].



(١) A. Sachar: History of the Jews, 1973, P. 35.

A.T. Olmstead: History of palestine and syria, 1923, PP. 316-317.

Lods: Israel, P.360.

(٢) موسكاتي: ص ١٤٢، ١٥٠.

سليمان وانقسام مملكة بني إسرائيل

بعد موت داود خلفه ابنه سليمان (٩٦١ ـ ٩٢٢ ق.م) على عرش بني إسرائيل، وكان على عكس والده يميل إلى حلٍّ مشاكله السياسية والاقتصادية حلولاً دبلوماسية. ومما لا ريب فيه أنه نجح في تدعيم العلاقات الودية التي أقامها داود مع ملك صور، وفي سبيل توثيق علاقاته مع مصر تزوج ابنه فرعون مصر أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين وأهدى له مدينة جازر التي كان قد استوى عليها مؤخراً من الكنعانيين (١ ملك ٩: ١٦).

ويرى ركشيوتي أن فرعون مصر الذي زوّج ابنته لسليمان هو سي آمون (حوالي ٩٧٠ ـ ٩٥٠ ق.م) وهو الملك الأخير من الأسرة الحادية والعشرين[١]، ولكن أولمستد يشير إلى أن الذي استولى على مدينة جازر هو ششنق الأول (٩٤٥ ـ ٩٢٤ ق.م) ثم أهداها إلى سليمان كعربون صداقة[٢].

سليمان وبناء المعبد المركزي:

وإذا أردنا الكشف عن الاهتمامات الحقيقية التي كانت تشغل سليمان، فإننا نجد أنه أدرك مبكراً أن مملكته الصغيرة لن تدوم إلاَّ بتدعيم علاقاته الودية مع الدول العظمى التي تحيط به. هذا بالإضافة إلى أنه استفاد بالموقع المتميز لفلسطين على طرق التجارة بين مصور وسوريا وكذلك على الطريق المؤدي إلى

(١) Riccitti: History of Israel, vol.I.

(٢) Olmstead: Op.Cit, P. 340.

البحر الأحمر، فدخل مع ملك صور شريكاً في الأسطول التجاري، وأدّى ذلك إلى مساعدة حيرام ملك صور لسليمان في بناء المعبد عن طريق إمداده بالذهب وخشب الأرز وبقية المواد اللازمة لعملية البناء، بالإضافة إلى إمداده بالكثير من العمال المهرة.

ويتحدث سفر الملوك أيضاً (١ ملك ١٠ :٢٨ ــ ٢٩) عن تجارته في الخيول والعربات الحربية، ويبدو أنه كان محتكراً لهذه التجارة فعلاً، لأن تجارتها مع مصر وسوريا كانت تعتمد بالطبع على الطرق البرية، وهذه كانت جميعاً في يد سليمان، والإصطبلات الملكية الكبيرة التي كشفت عنها في مجيدو تؤكد مدى اهتمام سليمان بتربية الخيول، وثمة كشف أثري آخر يُلقي بعض الضوء على الحياة الصناعية أيام سليمان، فقد كشف الدكتور جلوكN. Glueck خلال١٩٣٨ ــ ١٩٤٠ في عصيون جابر على ساحل البحر الأحمر (تل الخليفي غرب ميناء العقبة)، مناجم للنحاس ومصانع تنقيته، يدل بناؤها على تقدم كبير[١].

وقد بدأ سليمان ببناء سور يحيط بجبل الموريا، ثم أخذ في بناء المعبد المركزي الذي كان قد بدأه والده داود قبل وفاته، ومن المؤكد أن المهندس المعماري الفينيقي الذي صمَّم هيكل سليمان قد استوحاه من الفن المعماري السامي، فالتصميم العام لمعبد سليمان يكاد يماثل تصميم المعبد الكنعاني مع اختلافات جوهرية، أهمها أن قدس الأقداس كان في نهاية المعبد: ودليلنا على ذلك أن المعبد الكنعاني الذي تم اكتشافه في بيت شان والذي يعود تاريخه إلى عام ١٣٠٠ ق.م، كان نقطة تحول في تصميم المعبد الكنعاني، فهو يتكون من غرفة خاصة مربعة الشكل تقع في نهاية الغرفة الرئيسية للمعبد، ويتم الوصول إلى الغرفة العليا بواسطة بعض الدرجات حيث يوضع تمثال الإله، وتمثل الغرفة العلوية قدس

---

(١) موسكاتي: ص ١٤٣ ــ ١٤٤، ٢٨٠.

الأقداس الذي كان صفة مميزة لمعبد سليمان فيما بعد، وكانت هذه السمة موجودة أيضاً في معابد مصر والعراق.

وهذا يوضح لنا أن الإسرائيليين بعد دخولهم أرض كنعان، قد اندمجوا تماماً مع أهل كنعان، حيث تشربوا كثيراً من عاداتهم وطقوسهم الدينية، واستمرت المعابد الكنعانية تخدم الكنعانيين والإسرائيليين. ومن هنا بدأوا في الاعتياد على الطقوس الكنعانية، حتى أصبحت الأعياد الكنعانية أعياداً إسرائيلية.

ويشير أولبريت إلى أن موسيقى المعبد ومغنّيه الأوائل كانوا كنعانيي الأصل أو تعلموا على يد الكنعانيين، وعندما وضع داود موسيقى الإنشاد الديني وهي التي تبعها سليمان من بعده، لم يكن لديهما نموذج يسيران على هديه اللهمّ إلاّ النماذج الكنعانية. ومما يؤكد ذلك أن طوائف الموسيقيين المتأخرين كانوا يفخرون بنسبهم إلى أسر تحمل أسماء كنعانية[١].

ويشير العهد القديم (١ ملك ٦ :٣٨) إلى أن الهيكل قد استغرف بنّاؤه سبع سنوات، وكان سليمان قد شرع بناء ملكه في السنة الرابعة وهي السنة الأربعمائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من مصر (١ ملك ٧ :١). بينما استغرق بناء قصر سليمان وملحقاته ثلاثة عشر عاماً.

ومن منطلق اتفاقية التبادل التجاري والفني بين سليمان وحيرام ملك صور كما أسلفنا، أصبحت القدس قلعة للصناعة حيث كانت تضم مائة وثمانين ألفاً من العمال وعلى رأسهم ثلاثة آلاف وستمائة من الملاحظين.

وينقسم العمال والفنيون الذين جاءوا لتنفيذ مشروع بناء الهيكل وملحقاته إلى الفئات الآتية.

(١) Albright: Archeologyof Rligion of Israel, PP.116-167.

١ ــ ٣٠,٠٠٠ عامل لقطع الأخشاب أرسلهم سليمان إلى لبنان، بواقع عشرة آلاف عامل بالتناوب كل شهر، ويستريحون شهرين في منازلهم.

٢ ــ ٧٠,٠٠٠ حمّال لحمل الأحمال.

٣ ــ ٨٠,٠٠٠ حجّار يقطعون من الجبل (من محاجر سليمان في الزاوية الشمالية من جبل الزيتون).

٤ ــ ٣,٣٠٠ من الملاحظين.

٥ ــ ٥٥٠ بنّاءً من صور وجبيل لعملية البناء، وقد اشتهرت هاتان المدينتان بإتقان بناء الحصون والقلاع في العصور القديمة.

ومن المعروف أن طول هيكل سليمان ستون ذراعاً (٣١,٥ متراً) وعرضه عشرون ذراعاً (١٠,٥ متراً). وهو مقسّم إلى ثلاثة أقسام، ويبلغ ارتفاعه حوالي عشرة أمتار، وقد بني داخل الهيكل قدس الأقداس (المحراب)، وهو غرفة مكعبة طولها عشرون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً وارتفاعها عشرون ذراعاً، وقُسِّمت إلى جزأين الجزء الداخلي منها به تابوت العهد المقدس (تابوت الشهادة) حيث أودع به «لوحا الشهادة» اللذان نقشت عليهما الشريعة، والتابوت مصنوع من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، ويُغطَّى تابوت العهد بتمثالين للكروبين[1]، وأحدهما على يمينه والآخر على يساره وطول جناحي الكروب

---

(١) والأثر البابلي واضح في صورة الكروبين، وكلمة «كروب» ليست عبرية خالصة وكان الشائع أنها مشتقة من كلمة (Gryps) (جروبس) اليونانية، وهي اسم لكائن خرافي له جسم أسد ورأس طائر (نسر عادة)، ولكن الرأي السائد الآن أن كلمة كروب أكادية الأصل، أخذت من (karibu) كارب، ومادة «كرب» من الأكادية معناها «صلّى وبارك»، ثم تطورت فكرة الكروبين لدى اليهود في العصور اللاحقة.

راجع سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، من الترجمة العربية للدكتور يعقوب بكر ــ هامش المترجم ص ٣٠٤.

الواحد عشرة أذرع، والكروب مصنوع من خشب الزيتون المطعَّم بالذهب (١ ملك ٦: ٢٣ ــ ٢٨). أما الجزء الثاني من قدس الأقداس فيحتوي على المذبح الذهبي للقرابين، وإلى يساره منضدة تحمل الشمعدان السباعي حيث يضاء أثناء إقامة الطقوس، وعلى الجانب الأيمن توجد منضدة مصنوعة من الذهب لخبز التقدمة، ولا يسمح إلاَّ للكاهن الأعظم بالقيام مرة واحدة كل سنة لدخول قدس الأقداس.

ويفصل قدس الأقداس عن القاعة الوسطى باب أسدل عليه ستارة مرسوم عليها الكروبين. وهذه القاعة هي مكان اجتماع الناس للعبادة وإقامة الشعائر، ويلي القاعة الوسطى قاعة المدخل وليس بها أثاث ديني، ويليها من الخارج باب الهيكل، والطابق العلوي به غرفة للكاهن، ويوجد على جانبي باب الهيكل عمودان من النحاس (١ ملك ٧: ١٥) وتوجد أحواض لغسيل الذبائح على جانبي الفناء الخارجي أمام باب الهيكل.

وقد أقام سليمان أبنية أخرى بجوار الهيكل منها قصره الذي استغرق بناؤه ثلاث عشرة سنة. وقد صوَّر العهد القديم سليمان على أنه بنى هياكل لمعبودات وثنية منها: كموش إله موآب ومُلُك إله بني عمون، وذلك لاعتبارات سياسية ولإرضاء زوجاته الأجنبيات وشعوبهن (١ ملك ١١: ٥ ــ ٩).

ومن هذا الوصف التفصيلي لمعبد سليمان وملحقاته نجد أن الفن الفينيقي والمصري والتأثير الكنعاني والبابلي شاهد على صدق ما نقوله، فجانب كبير من تصميم المعبد الكنعاني يتخذ شكل وحدات متكررة في معبد سليمان، وكذلك نجد على مقربة من مدخل الهيكل الذي احتل مكان الصدارة اثنان من الأعمدة على شاكلة المسلاَّت المصرية، على أن تلك الطقوس كانت ترجع أيضاً في أصلها إلى عبادة الشمس[1] (معبد آتون في تل العمارنة). بالإضافة إلى ذلك فهيكل سليمان

(١) Lods: Israel, P.143.

مستطيل يأخذ الاتجاه من الغرب إلى الشرق (نحو الشمس) وكان هذا الاتجاه سائداً في المعابد في مصر وبابل.

وإذا كان الباحثون قد قلَّلوا من الأهمية المعمارية لهذا البناء الجديد معتمدين على المأثور الذي جاءتهم به الكتب اليهودية وفي مقدمتها ما جاء في سفر الملوك الإصحاحين السادس والسابع، فإن الذي لا شك فيه هو أن عمل سليمان لم يكن بناء معبد مركزي فحسب، بل إنه خطط لبناء مدينة تضم معبداً مركزياً وقصراً ملكياً فاخراً[1]، بالإضافة إلى المباني الدينية والإدارية التي يضمها حي خاص بجانب ثكنات للحرس الملكي، وحيٌّ خاصٌ لغير التابعين للشريعة الموسوية من نسائه وحَشَمه، وأقام الأسوار الفاصلة بين هذه الأحياء. كما أعد خزانات المياه والأحواض التي يجد فيها المتعبدون والحجاج ما يحتاجون إليه من الماء.

فالأمر كما نرى ليس مشروعاً صغيراً نفذه سليمان كما اتفق، ولا كما تصوره بعض العلماء من خلال مقاييس المعبد التي جاءت في العهد القديم كما أسلفنا، وإنما هو شيء يسهل معه تصور ما جاء في القرآن الكريم حول ضخامة الجهد الذي

---

(١) استغرق بناء قصر سليمان ثلاث عشرة سنة، واحتوى على عدد من الأبنية قد سيجت بنفس السور الذي أحاط به الهيكل الأول. وكانت مبانيه الرئيسية من الجنوب إلى الشمال هي: بيت وعر لبنان «للحرس الملكي والسعاة الراكبيين»، ويسمى أيضاً مقراً لغابة اللبناني وبه الخزائن ومستودع السلاح؛ وطوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً وارتفاعه ثلاثون ذراعاً، وقد أسس على دعائم من خشب الأرز وتحلَّى بالذهب. كما يحتوي على خمس وأربعين غرفة مقامة على أربعة صفوف من الأعمدة، وأقام صالة كبرى خصصها للاجتماعات والاحتفالات الرسمية. كما أنشأ رواق الأعمدة طوله خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثون ذراعاً، وأقام كذلك قاعة الكرسي أي رواق القضاة. وبيت الملك الذي يسكنه أقيم داخل رواق القضاة وقد تصدره عرش البرج العاجي للملك وهو المقر الملكي نفسه. كل هذه المباني أقيمت من حجارة كريمة وخشب أرز. وثمة حقيقة أخرى هي أنه كان هناك طريق مباشر بين مدخل القصر الملكي ومدخل المعبد. (١ ملك ٧: ١ ــ ١٠).

بذله سليمان لجعل عاصمة ملكه على نمط الممالك المطلقة السلطان في الشرق الأدنى القديم، خاصة وأن عهده قد امتاز بتقدم تجاري كبير. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة سبأ: آية ١٢ ــ ١٣].

وهكذا يبدو لنا أنه لا تعارض بين ما جاء في القرآن الكريم من عظمة ملك سليمان وما ورد من العهد القديم (سفر الملوك الأول)، ولذلك نشعر أن مُلْك سليمان كان أبعد ما يكون عما أراد الباحثون أن يصفوه به من الصغر والتقشف، وإلاّ لما واجه هذا التمرد الذي تواتر في المأثور أن سببه الظاهر كان الإسراف، وكثرة النفقات، ممّا أرهق بني إسرائيل بإقامة نظام من الضرائب لدرجة أنه لكي يقر عدالة التوزيع بينهم، جعل الإنفاق على المملكة على كل سبط من الأسباط الاثني عشر شهراً من السنة. ويبدو أن سليمان قد قام بتقسيم المملكة ــ فيما عدا يهوذا ــ إلى اثني عشر قسماً إدارياً لا تتوافق في حدودها مع حدود الأسباط الاثني عشر[1].

---

(١) Olmstead: Op.Cit, P. 343.

E.W. Heaton: Op.cit, p. 32.

والأقاليم الإدارية كما وردت في سفر الملوك الأول (٤: ٧ ــ ١٩) هي:

الإقليم الأول: جبل إفرايم، وهو يشمل الأرض الواقعة بين جبل يهوذا ووادي مرج بن عامر بما فيها مدينتا شكيم والسامرة.

الإقليم الثاني: يتكون من ماقص وتل شعلبيم وبيت شمش وإيلون وبيت حانان.

الإقليم الثالث: يتكون من أربوت في جبل منسّي، ومنطقة سوكوه وكل أرض حافر.

الإقليم الرابع: يتكون من مرتفعات دور جنوب جبل الكرمل.

الإقليم الخامس: يتكون تعنك ومجيدو وكل بيت شان.

الإقليم السادس: يتكون من راموت جلعاد. =

(١ ملك ٤ : ٧ ــ ١٩).

ويشير الكاتب اليهودي «إشعيا برس» أن سليمان قد عيّن حكاماً على كل قسم، وذلك لتسهيل جباية الضرائب من رعاياه، وتجهيز الإمدادات الخاصة بالبلاط الملكي شهراً كل سنة(١ ملك ٤ : ٧). ومن ناحية أخرى فقد كان هدفه الأول من ذلك جمع شملهم ومحاولة القضاء على النزعة الانفصالية بينهم[١]. وقد صوّر العهد القديم سليمان على أنه أعفى الحاشية الملكية من الضرائب، حيث أن يهوذا كانت تُحكم إدارياً بواسطة الملك من خلال نائب له (١ ملك ٤ : ١٩).

وهذا يوضح لنا كيف أن بناء الهيكل في القدس على مرأى من الأسباط الشمالية الذي اعتبرته مركز الجباية الضرائب الباهظة، كان إساءة من حقهم أكثر منه اجتذاباً لهم.

والواقع أنه بلغ من شدة هذه الضرائب أن البلاد، برغم مظاهر الرخاء، كانت تسير نحو أزمة اقتصادية، فكان للعامل الاقتصادي أن يلعب دوراً هاماً من الأزمة السياسية التي تلت فعلاً موت سليمان. وهكذا كان نظام الضرائب وأسلوب جبايتها

= الإقليم السابع: يتكون من محانيم.

الإقليم الثامن: يتكون من أرض نفتالي في منطقة الجليل.

الإقليم التاسع: يتكون من منطقتي أشر وبعلوت.

الإقليم العاشر: يتكون من أرض يسساكر في منطقة الجليل السفلي.

الإقليم الحادي عشر: يتكون من أرض بنيامين بين القدس في الجنوب وبيت إيل في الشمال، وهي تقع إلى الغرب من القسم الثاني.

الإقليم الثاني عشر: يتكون من جلعاد وأرض سيحون وعوج، وهي الحدود الجنوبية لمملكة إسرائيل فيما بعد.

راجع: سفر الملوك الأول (٤ : ٧ ــ ١٩).

(١) إشعيا برس: محقريم بيديعت هأرتس وطبوجرافيا مقرائيت (بحوث من الجغرافيا والطبوغرافيا التوراتية) (ص ٢٤٥ ــ ٢٤٨).

بالإضافة إلى التقسيم الإداري الجديد، السبب الرئيسي وراء الثورة التي انفجرت لأول مرة أثناء حكم سليمان والتي تم إخمادها حوالي عام ٩٤٣ ق.م واضطر زعيمها يربعام بن نباط للهرب إلى ششنق فرعون مصر وأول ملوك الأسرة الثانية والعشرين[١].

وكان إنشاء المعبد المركزي في أورشليم (القدس) أشهر ما قام به سليمان من أعمال عامة. وقد ضم هذا العمل الضخم عناصر فنية من كنعان، فينيقية وغير فينيقية، وكذلك من مصر وأرض الرافدين. والدين اليهودي نفسه لم يظل بعيداً عن مثل هذا التأثر، فالرواية اليهودية تنعى على سليمان أنه أدخل صوراً أجنبية من العبادة، ولسنا ندري أتجاوز هذا نطاق الحيل الدبلوماسية أم لا، ولكنه كان، رغم المنافع التي قد يكون جلبها من ناحية السياسة الخارجية، خطوة هدّدت بخطر الوحدة القومية للأسباط الاثني عشر. وهذه الرواية وأمثالها جعلت بعض المؤرخين يأخذوها بتحفظ.

إن ثمة ظلماً لمقام النبوة، فما كان لنبـي مكرّم أن يجلب إلى ديانته عناصر وثنية. إن مثل هذه الترهات يجب مجابهتها بالرفض لا بمجرد التحفظ. وما زالت صورة سليمان التي رسمها بعض الباحثون صورة قاتمة لا تليق بنبـي يتصرّف بموجب رسالة ووحي من ربه عزّ وجلّ.



---

(١) Lods Op.Cit, PP. 371-372.

B. Porten: Archieves From Elephantine, 1978, P. 7.

مملكتي إسرائيل ويهوذا
في عهدي رحبعام بن سليمان ويربعام الأول

بعد وفاة سليمان انتهى نفوذ العبريين السياسي في فلسطين، وطغت على السطح مظاهر الانفصال والشقاء القديم بين بني إسرائيل من الأسباط الشمالية والأسباط الجنوبية.

والفكرة الأولى التي برزت بعد سليمان في عهد رحبعام كانت مسألة استمرار الوحدة بين يهوذا وإسرائيل مع بقاء القدس (أورشليم) مركزاً للحكم. ويبدو أن خلافة العرش في بلاط القدس (أورشليم) تمت بدون أي صعوبة، فلم نسمع عن معارضة من جانب البلاط أو من سكان دولة يهوذا.

ولكن الأمر اختلف مع القبائل الشمالية في إسرائيل التي لم تر أن لملك يهوذا في أورشليم الحق في السيادة عليه تلقائياً بل عدته ذلك أمراً غير طبيعي. ولمعالجة هذا الأمر كان من الضروري أن يتخذ على الأقل إجراءً قانونياً في أرض إسرائيل الشمالية. فضلاً عن ذلك نتساءل عما إذا كانت إمكانية اتخاذ هذا الإجراء القانوني قد حظي باهتمام جدي من قِبَلْ القبائل الشمالية، التي ربما كانت قد قررت عدم الاعتراف بخليفة سليمان ملكاً عليهم بأي حال. ويُشكك بعض المؤرخين في ذهاب رحبعام إلى شكيم ليحصل على تأييد لقيام حكمه، بدلاً من أن يستقبل في القدس (أورشليم) ممثلين للقبائل الشمالية.

وبعد وفاة سليمان تبنّت القبائل الشمالية في إسرائيل فيما يظنّ موقفاً سلبياً تماماً، وقد يفسّر ظهور رحبعام في إسرائيل إما بأنه حاول إقناع قبائلها بقبول حكمه أو إرغام إسرائيل على الاعتراف بحكمه[1].

ويبدو أن رحبعام قد أدرك بحنكته السياسية ضرورة أن يبدي احترامه للأسباط الشمالية بحضوره إليهم لكي يبايعوه ملكاً، ولذلك عقد اجتماعاً في شكيم ــ كانت مثل حبرون في يهوذا، مركزاً لتجمع الأسباط الشمالية ــ حضرته هذه الأسباط، طلبوا فيه من رحبعام ــ بكل تصميم ــ تخفيض الضرائب عن كاهلهم التي أثقلهم بها والده، وإلغاء كل الجهاز الإداري المفرط في الصرامة (١ ملك ١٢ : ٤، ١٠)، حتى يصبح ملكاً عليهم. وهكذا أصبحت شكيم مركزاً مهماً للأسباط الشمالية لتأكيد الذات ضد الجنوب، وفوق كل شيء مقاومة مطالب الملك في أورشليم والإطاحة بطموحاته إذا لم يستجب لشروطهم. فطلب منهم الإنصراف والعودة بعد ثلاثة أيام استدعى خلالها مستشاريه من الشيوخ فنصحوه بالاستجابة لمطالبهم؛ إلاّ أنه لم يذعن لهم وبدلاً من ذلك اتبع نصيحة صغار السن من الشباب، وكان ردّه عليهم، أن أبـي عذّبكم بالسياط أما أنا فسوف أعذبكم بالعقارب (١ ملك ١٢ : ٦ ــ ١١). وعلى أثر ذلك قتلوا المفوّض الملكي «أدورام» المسؤول عن العمل الإجباري والذي جاء لإنزال الرعب في قلوب الأسباط الشمالية، فرجموه بالحجارة على مرمى من الملك الذي لم يفعل شيئاً سوى أن امتطى عربته وأسرع بالفرار إلى أورشليم (١ ملك ١٢ : ١٨)؛ وتلا ذلك ما قرره المجتمعون في شكيم من الأسباط الشمالية (عدا سبطي يهوذا وبنيامين) بالانفصال عن آل داود والمناداة بيربعام بن نباط ــ من سبط إفرايم ــ ملكاً عن الأسباط الشمالية من بني إسرائيل (١ ملك ١٢ : ١٩)، والذي كان حاضراً هذا الاجتماع بعد عودته من مصر. بينما ظل سبطا

---

(١) Hermann: Op.Cit, P.189.

يهوذا وبنيامين على ولائهما لرحبعام بن سليمان (٩٣٢/ ٩٣١ ـ ٩١٦/ ٩١٥ ق.م) الذي كوّن مملكة يهوذا في الجنوب واتخذ أورشليم (القدس) عاصمة لها (١ ملك ١٢: ١٧).

وهكذا كانت نهاية المملكة الموحدة التي حققها داود وسليمان، ولم تُبذل أي محاولة جادة لاستعادة الوحدة من جديد. وأي دارس للتاريخ يتتبع بعناية سير تاريخ هذه الأسباط على أرض فلسطين حتى هذا الحدث، لن يجد أن انفصال الدولتين كان إجراءً مثيراً للدهشة.

* * *

أصبح ليهوذا اهتمام خاص بحدودها الشمالية إن لم يكن في عهد رحبعام، فإن ذلك كان في عهد خلفائه. ذلك أن أورشليم أصبحت على مقربة من الحدود مع مملكة إسرائيل التي كان في استطاعتها تبعاً لذلك تهديدها، لذلك حرص ملوك يهوذا على إيجاد منطقة عازلة في شمال المدينة، حيث كانت منطقة جبل سكوبس الذي يمثل حافة جبلية مرتفعة تنحدر بلطف إلى مسافة تسعة أميال من أورشليم، حيث ترتفع الأرض على شكل حافة جبلية تشغلها الآن منطقة الرملة والبيرة؛ وهي المنطقة التي استقرّت بها قبيلة بنيامين. وللسيطرة على هذه المنطقة ومنذ عهد رحبعام تقاتلت مملكة يهوذا وإسرائيل. ومشكلة الحدود الشمالية ليهوذا مرتبطة بالموقع الذي نزلت به قبيلة بنيامين وكذلك بتاريخها، إذ كانت أرض بنيامين أصلاً من أرض إفرايم (سبط من الأسباط الشمالية) وهذا موضع تساؤل ونقاش. ونعرف أن شاءول جاء من بنيامين واعترفت به إفرايم[١].

ومع أن مملكة إسرائيل كانت أكبر من مملكة يهوذا من حيث المساحة وكثافة السكان، فإنها كانت أقل اندماجاً بين أسباطها، كما كانت أقل تنظيماً داخل أراضيها، بالإضافة إلى أنها كانت معرَّضة تماماً للهجوم من جانب آشور وبعض

(١) Hermann: Op.Cit, P.193, 198.

الدويلات الآرامية. أما مملكة يهوذا فكانت حدودها مؤمنة فيما عدا حدودها مع مصر(١).

كان يربعام (٩٣٢/٩٣١ ــ ٩١١/ ٩١٠ ق.م) أول ملك يُختار من سبط إفرايم، كما أنه كان من الملوك القلائل الذين اختارهم الأسباط مثل شاءول وداود.

وكان اتخاذه من مدينة شكيم عاصمة له دليلاً على انفصال الأسباط الشمالية عن مملكة يهوذا.

وكان يربعام قد أتى من مدينة «صردة» في أرض إفرايم الجبلية، وعمل هو وقومه في أعمال البناء في أورشليم. وكان سليمان قد لاحظ كفاءة يربعام فعيَّنه مسؤولاً عن الحرس الملكي في أسرة سليمان، وذات يوم قابله «أخيا الشيلوني النبي» وهو في طريق عودته إلى إفرايم في إسرائيل الشمالية، وقيل أن أخيا كان يرتدي رداءً جديداً، واقتصر اللقاء عليهما فقط. وقد مزّق أخيا هذا الرداء إلى اثنتي عشرة قطعة دفع بعشر منها إلى يربعام، وأعلن باسم يهوه أن مملكة داود سوف تُقسَّم، وقال سأخذ المملكة من ابنه (أي من سليمان) وأعطيك عشرة أسباط، وأعطى ابنه سبطاً واحداً (يقصد بنيامين) [١ ملك ١١: ٢٦ ــ ٣٥]، وذلك لأنهم تركوا يِهْوَه ومالوا إلى استيعاب طقوس عبادة عشتروت إله الصيدونيين وكموش إله المؤابيين وملكوم إله بني عمون.

وهذا القول بتمزيق المملكة يعني حتماً أن الانفصال كان قد حدث في عصر

---

(١) يبدو أن تعداد مملكة إسرائيل قرب نهاية القرن الثامن قبل الميلاد قد وصل إلى ما يقرب من ٨٠٠,٠٠٠ نسمة وفي مملكة يهوذا حوالي ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، وهو تعداد مبالغ فيه.

راجع: Heaton Op.Cit, P.21.

Olmstead: History of Assyria, P. 131.

S. Sies fried Hermann: A History of Israel In O.T times (by J.Bowden) London, 1975 P. 189.

سليمان نفسه، إذ أن يربعام على الأقل دُعي ليجهز لانفصال إسرائيل عن سليمان، وبالرغم من أننا لا نسمع أكثر من ذلك فنحن نستنتج حتماً أن يربعام قد بذل جهوداً في هذا الاتجاه، وإلاَّ فإن الملاحظة الواردة من سفر الملوك الأول (١١ : ٤٠) بأن سليمان سعى إلى قتل يربعام تصبح غير مقبولة.

فرَّ يربعام إلى مصر ولكن يبدو أنه عاد إلى إسرائيل عندما جاءت الأنباء بموت سليمان. ومن هناك أثار المشاعر ضد أورشليم أو على الأقل شجع الحركات المعادية لها، وإذا أخذت هذه الفكرة من أسفار (١ ملك ١٢ : ٢ ــ ٣، ٢٠) فإنها تصبح غامضة، فمن ناحية يبدو أن يربعام قد عاد بمحض اختياره في حين قيل أنها تعني أنه أعيد إليها.

ورواية العهد القديم تعتبر رسالة «أخيا الشيلوني» بمثابة قرار اتخذه يهوه بنفسه، ولكن ليس هناك إشارة إلى مسح يربعام بالزيت عندما نصّبه الشعب ملكاً عليهم في شكيم بنفس الطريقة التي نُصِّب بها شاءول ملكاً. وليس هناك ذكر لمرحلتين: مرحلة تعيين الملك، ومرحلة بيعته، بينما داود وسليمان دُهنا بالزيت وبُويعا من جانب يهوذا في آن واحد، وهذا يعني إسباغ الصفة القانونية على اختيارهما، وربما حدث نفس الشيء مع رحبعام وقد احتفظ بالمبدأ الأُسري وحافظت عليه يهوذا وأورشليم.

وهذا الخلاف في الإجراءات في الدولتين ظل مرعياً طوال عصر الملوك، وحافظ بيت داود على الولاية الوراثية في أورشليم. وفي إسرائيل أيضاً تكونت أسر، ومؤسس الأسرة الحاكمة كان يُعَيّن بصفة منتظمة ملكاً من قبل أحد الأنبياء. وأصبح شيئاً مميزاً أن تعيين نبـي لحاكم يشجعه على إبادة كل أسرة الملك الحاكم. ومِنْ ثَمَّ اعتبرت دولة إسرائيل الشمالية، أرضاً للثورات، التي تبدو كما لو كان المحرّض عليها يدعي أنها إرادة قدسية، جعلت تعيين النبـي للحاكم أمراً ممكناً وشرعياً ومن ثم يكون التغيير ممكناً.

وعلى الرغم من أن يربعام قد اتخذ من شكيم (نابلس) عاصمة له (١ ملك ١٢:٢٥)، لأنها تقع في قلب البلاد وبها مصادر كثيرة للمياه وتقع فيها الأماكن المقدسة ــ مما كان يجذب إليها الأنظار ــ ، إلاَّ أن شكيم لم تتميز بحصانة فوقها. فهي تقع في أرض الوادي، ولا تشكل موقعاً دفاعياً جيداً ولذلك بنى مدينة فينوئيل[١] التي تقع في شرق الأردن على مخاضة اليبوق. ويبدو أن سبب الانتقال الأول يعود إلى التهديد المسلح من جانب مملكة يهوذا ومن جانب مصر أيضاً (حملة ششنق كما سيرد بعد ذلك). لكن بعض المؤرخين ذكروا سبباً مهماً لانتقاله من شكيم، ذلك أنه لقى معارضة من أهلها بسبب إقدامه على إقامة معبدين: أحدهما في دان في الشمال، والآخر في بيت إيل في الجنوب، كبديل لمعبد أورشليم وجعل بيت إيل مزاره الملكي المقدسي.

ويبدو أن اختيار يربعام الأول لموقع فينوئيل جاء اختياراً موفقاً واستراتيجياً فمن السهل نسبياً انسحاب الملك إليها. وطرق اتصالها بشكيم جيدة بدرجة كافية. وكان بإمكانه إما أن يعبر وادي بيدان Bedan ويستخدم وادي فرّان، الذي يتميز بسعة المرور فيه وسهولته وبعبور الأردن عند المخاضات بالقرب من مصب اليبوق وبذلك يستطيع الوصول بسرعة إلى فينوئيل، أو أنه كان في إمكانه الوصول إلى المخاضات باستعمال وادٍ يسير من شكيم في اتجاه جنوب شرقي وينزل إلى وادي الأردن بعد عبورة عدة منحدرات سهلة في الإقليم الذي يعرف الآن باسم «مجدل بن فاضل».

وبعد ذلك نقل عاصمته إلى «ترصة»[٢] حيث استقر بها (١ ملك ١٤:١٧)،

---

(١) Eva Danelius: «The sins of Jeroboam Ben-Nebat».

The Jewish Quarterly Review, Vol. 58 (1967-1968), P. 100.

(٢) Hermann: Op.Cit, PP. 192-193.

ترصة: مدينة كنعانية قديمة هُزمت على يد يوشع بن نون (يوشع ١٢:٢٤)، وأصبحت بعد =

واستمرت عاصمة للملكة الشمالية حتى عصر الملك عمري (١ ملك ١٦ :٢٣ ـ ٢٤).

ويبدو أن ترصه كانت على الطريق المباشر «صيد ـ صور ـ الجليل ـ أورشليم» المؤدي إلى فينيقيا، وكذلك تقترب ترصة من شكيم، كما أن خطوط الاتصال بها كانت جيدة، وهي لذلك جديرة بأن تكون العاصمة ليس فقط من أجل التقارب مع فينيقيا، وإنما من أجل إحكام سيطرة يربعام على الطريق المؤدي من مملكة يهوذا إلى فينيقيا، حيث كانت مملكة يهوذا حريصة على علاقاتها مع فينيقيا، ولا يمكن توثيق هذه العلاقات إلاّ بإقامة طريق استراتيجي يخترق إسرائيل، لذل حرص يربعام على أن يجعل عاصمته في هذه المنطقة. والقول بأن زوجة يربعام حضرت إلى ترصة وأن ابنها مات هناك يعتبر دليلاً على أن العاصمة قد انتقلت في وقت مبكر من فترة حكمه إلى ترصه. (١ ملك ١٦ :٢٣ ـ ٢٤). ويحتمل أن هذا التغير قد فرضته العوامل السياسية والعسكرية التي حكمت

= ذلك عاصمة للملكة الشمالية منذ عهد يربعام الأول حتى عهد عُمْري (١ ملك ١٦ :٢٣ ـ ٢٤). والواقع أنه لا يمكن تحديد موقع ترصة من نصوص التوراة على وجه الدقة، والافتراض المعقول أن السامرة كعاصمة جديدة بعد ذ لك لم تبعد كثيراً عن ترصة.

بيت إيل: يقوم مكانها الآن «بيتين» على بعد ١٦ كم إلى الشمال من القدس. وهي مدينة قديمة كانت قائمة في العصرين البرونزي الوسيط والمتأخر، وكانت تسمى في الأصل لوز (تكوين ٢٨ :١٩ وسفر القضاة ١ :٢٣)، ثم سميت باسم هيكل بيت إيل المشهور شرقيها (ويقوم مكانه الآن برج بيتين).

دان: تقع في أقصى شمال فلسطين عند أحد منابع نهر الأردن، كما أن بئر سبع على الحد الجنوبي لكنعان، ولهذا يقال في العهد القديم: «من دان حتى بئر سبع» [القضاة ٢٠ :١ صمويل الأول ٣ :٢٠، صمويل الثاني ١٧ :١١] أي إسرائيل كلها. وكان اسم المدينة لَيِش قبل أن يهاجر إليها سبط دان وتسمى باسمه (القضاة ١٨ :٢٧ ـ ٣٠). ويقوم مكانها الآن تل القاضي غربي بانياس.

العلاقات بين مملكة إسرائيل وآرام، فقد كانت ترصة نقطة استراتيجية فعلاً ولكنها في وقت السلم كانت محطة للقوافل.

ويفسٌر هذا التنقل بين ثلاث مراكز للحكم (شكيم ـ فينوئيل ـ ترصة) بعدم توفر الأمن للملكية في إسرائيل التي كانت تواجه صعوبات في مراحلها الأولى، ولم يتوفر لها مكان إقامة مث أورشليم التي كانت بلا تساؤل مدينة ملكية وكانت في الواقع ملكاً خاصاً للملك[1].



(١) سيد فرج راشد: القدس عربية إسلامية (ص ٦٤).

خطايا يربعام الأول

ورغبة من يربعام الأول في توسيع شقة الخلاف واستمرارها بين المملكتين: إسرائيل ويهوذا، فقد أحاط هذين المعبدين (في بيت إيل ودان) بهالة من القدسية، ولكي يعوضهما عن نقص تابوت العهد وغيره من الأشياء التقليدية المقدسة اليهودية المرتبطة بمعبد أورشليم؛ قام يربعام بتزويد كل منهما بعجل ذهبي وخصَّ فريقاً من الكهنة لخدمة كلا المزارين لأداء الطقوس الدينية. ولم يكن ذلك بالأمر الجديد كما لم يكن يعني أن يهوه لم يعد رباً للإسرائيل، ذلك لأنها اعتادت تجسيد يهوه في شكل عجل (١ ملك ١٢ :٢٨ ــ ٣٢). والسبب الذي دفع بالملك إلى هذا الاختيار خوفه من ردَّة الأسباط الشمالية بعد زيادة المعبد المركزي في أورشليم ورجوعهم إلى رحبعام. وربما يمثل العجلان الذهبيان استمراراً لعبادة الأصنام التي تعوَّد إلى الديانة الكنعانية، ولم يكن ذلك جديداً في إسرائيل، وربما كان تقليداً للآراميين المجاورين الذين كانوا يُسَرُّون من تمثيل بعل هدد في شكل عجل أو ثور[١].

---

(١) الإمام ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والنحل، الجزء الأول، ١٩٦٤، (ص ١٥٣ ــ ١٥٤).

تابوت العهد (تابوت الشهادة): حيث أُودع به لوحا الشهادة اللذان نُقشت عليهما الشريعة التي تلقَّاها موسى على جبل حوريب في سيناء عند خروج بني إسرائيل من مصر. والتابوت =

ويبدو أن يربعام الأول (بعد الانشقاق) أساء في الحكم، إذ أنه أدخل طقوس الوثنية الكنعانية في صميم عبادة الله، وكان ذلك على ما يبدو، بسبب تطلعه سياسياً إلى إرضاء أمراء الكنعانيين الذين كان سليمان قد أذلهم في البلاد (١ ملك ٩: ٢٠ ــ ٢١)، وإلى اجتذابهم لدين الله، والإسراع بهذه الطريقة في إدماجهم في بني إسرائيل. وقد أصبحت «أخطاء يربعام» هذه سياسة تقليدية لكل ملوك إفرايم (إسرائيل) الذين جاءوا من بعده[1] [١ ملك ٥: ٣٠، ١٦: ٢، ٢٦، ٣١]، [٢ ملك ١٣: ٢، ١١ ــ ١٤: ٢٤].

= مصنوع من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وغُشي بذهب نقي من الداخل والخارج، وصنع حوله أكليل من الذهب وفي معبد سليمان كان تابوت العهد يغطى بتمثالين من الكروبين واحد عن يمينه والآخر عن يساره، وطول جناحي الكروب الواحد عشرة أذرع، والكروب مصنوع من خشب الزيتون المطعّم بالذهب وارتفاع الكروب عشرة أذرع. وكان تابوت العهد في معبد سليمان يوضع في نهاية غرفة قدس الأقداس (١ ملك ٦: ٢٣ ــ ٢٨).

وليس لدينا معلومات عن مقاييس الكروبين أيام موسى. وهما حارسان للتابوت وما يضمه من لوحين حجريين كتب عليهما موسى الوصايا العشر، قوام العهد الذي قطعه الرب مع موسى وبني إسرائيل (الخروج ٣٤: ٢٧ ــ ٢٨). ولعل الكروبين رمز لحراسة الهيكل عامة حين تُنسخ صورها على الستائر والحجاب في خيمة موسى، في حين تُحفر صورها على هيكل سليمان. وقد اختفى تابوت العهد من معبد أورشليم بعد وفاة سليمان، فلم يكن موجوداً زمن إرميا (إرميا ٣: ١٦)، والطريقة التي يتكلم بها إرميا عنه توحي بأنه اختفى منذ زمن السبـي البابلي ٥٨٧ ق.م، ولا يذكره حزقيال في وصفه لمعبد أورشليم بعد ذلك، كما أنه لم يكن موجوداً في المعبد الثاني الذي بناه اليهود في أورشليم بعد عودتهم من المنفى (عام ٥٣٨ ق.م).

راجع: Lods Op.Cit, P. 425.

(١) م. ص. سيجال: أنبياء بني إسرائيل من الترجمة العربية للدكتور حسن ظاظا، بيروت (ص ٤٣).

إن قصة العجول الذهبية كما جاء في سفر الملوك تبرهن بوضوح على أن العجول لم تكن تمثل آلهة أخرى، كما أن القصة لم تربط بينها وبين أي عقيدة أجنبية، ومن ثَمَّ فإنها لا بدَّ أنها كانت تنتمي إلى عبادة يِهْوَه نفسه. ومن المرجح أن العجول لم تكن نماذج مجسدة لآلهة إسرائيل، فمن الواضح أنه للدوافع السياسية التي أسلفناها، قام يربعام ببناء معابد في مملكة إسرائيل على غرار معبد أورشليم، ولذلك كان في حاجة إلى رمز يحل محل تابوت العهد الجنوبي، فأقام كما أسلفنا العجلين الذهبيين اللذين كانا على الأرجح من النوع المجنَّح، ويمكن اعتبار ذلك بمثابة تطوير أو نموذج آخر للكروب.

ويؤكد مؤرخو سفر الملوك أن يربعام قد عيّن كهنة من غير اللاويين، ومن هنا تأتي الرابطة بين عجول يربعام وعجل الصحراء الذي كان قد صنعه قوم هارون أبي النظام الكهنوتي الإسرائيلي، والأرجح أن عجول يربعام كانت قد صممت بواسطة كهنة هارونيين، كان بعضهم يخدم في المعابر المحلية الكبيرة في الشمال، ومما لا شك فيه أن قصة عجل الصحراء قد رويت في التراث الشمالي بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي رويت بها في التراث الجنوبي.

ومن الجلي أن النبيين إلياهو واليشع لم ينبذا العجول، وبالتالي لم يطالبا الشعب بأداء الطقوس في هيكل أورشليم، ومع ذلك لم يصفهم العهد القديم بالوثنية[١].

ومما يثير اهتمامنا أن كثيراً من المؤرخين قد تصدَّوا لقصة عجول يربعام بشيء من المبالغة، ومنهم المؤرخ اليهودي جريتز حيث أشار إلى أن يربعام ربما عبد عجل «أبيس» أثناء إقامته مع اليهود في مصر وحتى نهاية عصر سليمان، تحت

---

(١) Lods: Israel, P. 218.

راجع سيد فرج راشد: السامريون واليهود، الرياض ١٩٨٧ (ص ٣٩ ــ ٤٠).

اسم عجل «عبير» وقد نقل عبادة عجل أبيس إلى مملكة إسرائيل في الشمال بعد عودته من مصر في أعقاب موت سليمان وانقسام مملكة بني إسرائيل من بعده. ويرى جريتز أن عجول يربعام كانت تمثل يهوه وليست كقاعدة يتجلّى فوقها. بينما يرى العالم نافيل الذي اكتشف معبد دير البحري في مصر ــ أن يربعام ربما قد قبل أثناء إقامته في مصر عبادة هاتور البقرة المقدسة «سيد السماء والأرض» ونقلها إلى إسرائيل، وهي تشبه في صفاتها عجل أبيس.

ولكن أولبريت يرى أن يربعام قد مثّل يهوه في صورة غير مرئية متجلياً فوق العجل الذهبي، في حين يرى هيلمر أنه قد أسيء فهم أعمال يربعام حتى أن البعض ذهبوا في قولهم أن يربعام بزواجه من أميرة مصرية، قد تأثر بالمفاهيم الدينية لمصر وهي البلد التي قضى فيه فترة طويلة، ثم نقل معه هذه العبادة إلى إسرائيل بعد أن أصبح ملكاً. وهذا التفسير لا يمكن قبوله بسهولة، على الرغم من أن عبادة العجل كانت شائعة بين الأمم الشرقية في هذه الفترة[١].

أما قصة عجل الصحراء وعجول يربعام في بيت إيل ودان التي يقال أنها ضُممت بواسطة كهنة هارونيين، فإنها تدعونا إلى وقفة مع قصة كفر بني إسرائيل في طور سيناء وموسى على قمته كما أوردناها في قصة موسى. فالتوراة تدين هارون وتعلن مسؤوليته عن تلك الردة؛ في حين أن القرآن الكريم يشير بأصبع الاتهام إلى شخص آخر ويجعل منه داعية إلى الضلال، وهو السامري. وهكذا تأتي تبرئة هارون من مسؤولية صنع العجل الذهبي وكفر بني إسرائيل طبقاً لنص القرآن الكريم بلغته القاطعة. ومن هنا نجد قصة عجول يربعام وصناعتها بواسطة كهنة هارونيين تبدو بعيدة عن الحقيقة خاصة وأن من شروط الحاخام أن يرجع نسبه إلى هارون.

---

(١) E. Naville: The XI th Dynasty Temple at Deir El-Bahri, Part I, 1907, PP.37, 63-65.

W.F. Albright: From the stone age to Christianity, 1940, P. 229.

وعلى كل حال فإننا لا نستطيع الجزم برأي قاطع في هذا الإجراء الذي ينسب إلى يربعام، نظراً لأن قلّة ما لدينا من الشواهد قد لا تسمح لنا بإصدار حكم في ضوئها، لأن الرواية التي وصلتنا تلوّنت وشُوهت نتيجة كراهية مملكة يهوذا ليربعام، ومع ذلك فلعلّ يربعام يكون قد قصد من وراء أعماله تلك تأسيس مملكة تقوم على نفس الشعائر والمعتقدات الدينية التي قام عليها التحالف القديم بين الأسباط أيام صمويل والتي ضَعُفَتْ معالمها أيام حكم داود وسليمان. ثم إن يربعام بقيامه بتحصين بعض المدن مثل شكيم وفينوئيل وبيت إيل، إنما أعاد إلى ذاكرة معاصريه أسماء تلك الأماكن المقدسة التي اقترنت باسم يعقوب الذي كان أول من قدّسها من اليهود[1].

إذن فليس هناك فارق بين العجول في معبدي دان وبيت إيل والكروبين من هيكل أورشليم، وينبغي ألاّ تضللنا الروايات اليهودية التي تحاول أن تُعطى الانطباع بأن الكروبين تنطوي على أفكار دينية أكثر نقاء من العجول. وهكذا كانت الوثنية منتشرة في الجنوب وفي الشمال بعد موت سليمان تحت مسميات مختلفة، وكلتا المملكتين تدعيان أحقيّة معابدها بالقداسة وتحيطانها بهالة من الاحترام والقدسية، ويتهمان بعضهما بالكفر والخروج على الشريعة الموسوية.



(١) Olmstead: Op.Cit. P.323.

راجع: F. Edward: Vol. 11,6 Op.Cit, PP.272-273.

الوثنية الكفائية وتأثيرها
على الفكر الديني في المملكة الشمالية

كانت المملكة الشمالية موبوءة دائماً بالوثنية الكنعانية، ويرجع ذلك إلى التفوق الحضاري لفينيقيا، إذا كان بَعْل هو إلهها الكبير، ووصلت المسألة عند اليهود إلى حدٍّ أنهم أسموا الأوثان بالبعليم (١ ملك ١٨ :١٨)، وبعل هو إله الخصوبة الأكثر تفوقاً في كنعان. كما يبدو أن الطقوس الخاصة بالآلهة الأشورية «إنليل» ــ كبير الآلهة في آشور ــ و «عشتروت» قد تسربت إلى المجتمع اليهودي وخاصة في المملكة الشمالية.

إلى جانب هذا كانت الوثنية الفلسطينية قد تسربت من منطقة الساحل الفلسطيني ــ غزة وأشدود ويافا ــ وكان الإله «داجون» والإلهة «أشيرا» أهم الآلهة الوثنية الفلسطينية. ويبدو أن عبادة داجون كانت منتشرة بين الساميين قبل مجيء الفلسطينيين بفترة طويلة. وقد رسخت عبادة داجون في رأس شمرة حيث كان معبده ينافس معبد بعل وكلا المعبدين يرجع تاريخهما إلى حوالي ٢٠٠٠ ق.م.

وقد عرف الإله بعل تحت أسماء أخرى أولها «عمورة» ثم «هود»، وقد ظهر بعل في النصوص الموجودة في أرض الرافدين ورأس شمرة على أنه الإله هود.

وشخصية بعل كإله للعواصف قد تم التعبير عنها في رأس شمرة على أنه الإله

المحارب ذو الخوذة والصولجات، أما «يهوه» فهو الذي يمشي على مشارف الأرض (عاموس ٤:١٣، ميخا:٣)، ولكن خصوبته الشديدة اقترنت بالثور، ويتشابه يهوه مع بعل في كثير من صفاته.

ونستدل من ذلك على أن اليهود بما فيهم السامريون قد مالوا إلى استيعاب بعض طقوس عبادة بعل بدون تطويرها، وذلك في الأيام الأولى لاستيطانهم في فلسطين (قضاة: ٣:١٢ ــ ١٤)، ولعل اسم بعل كان يطلق علي يهوه أيام القضاة والملوك الأوائل، ويبدو أن الصفات المستعارة من الإله بعل، قد امتزجت بشخصية الإله يهوه كلية[١].

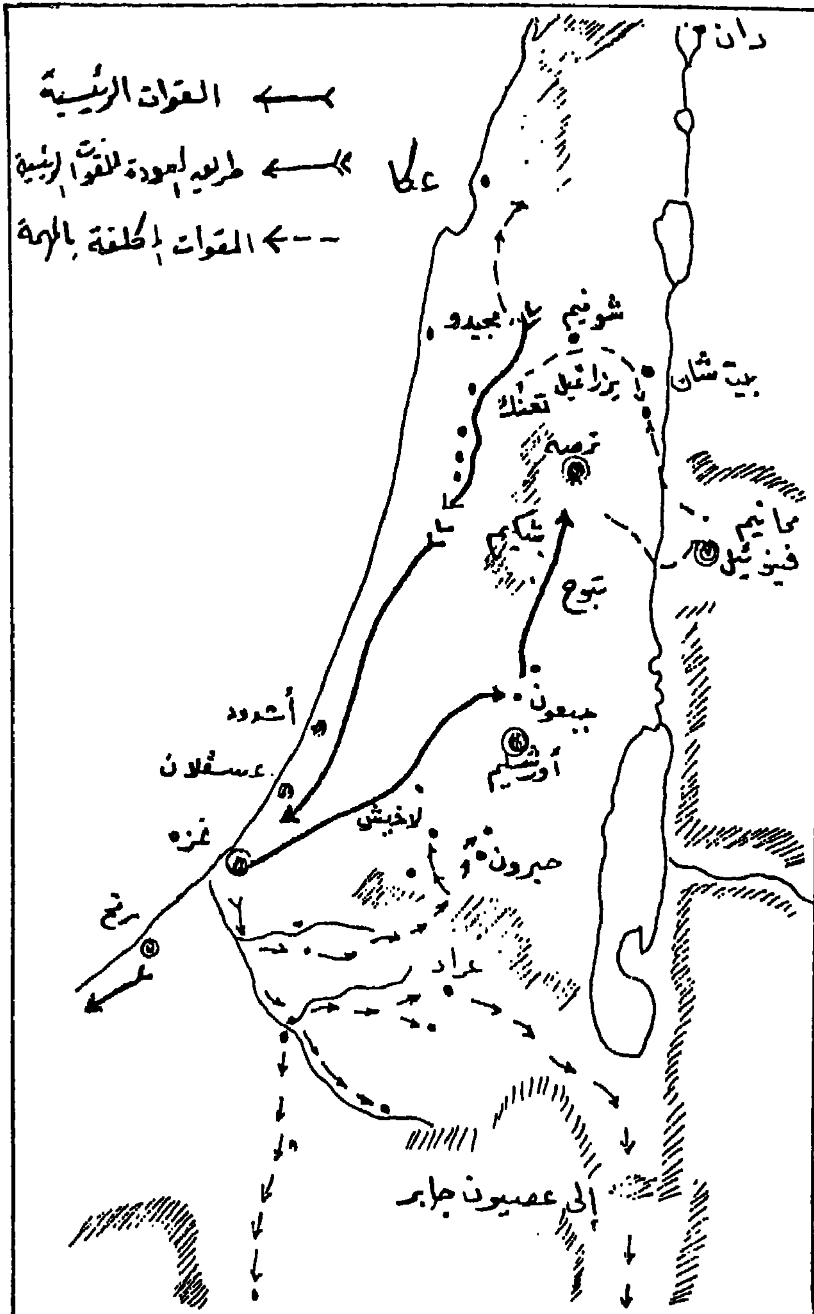


(١) B. Mazar: The Campaign of pharaoh shishak to Palestine, SVT 4, 1957, P. 57. FF.

Hermann: Op.Cit, P. 196.

راجع:

سيد فرج راشد: السامريون واليهود (ص ٤٢ ــ ٤٤).



حملة ششنق الأول على فلسطين (٩٢٥ ق.م)

نقلاً عن كتاب «القدس عربية إسلامية»، ص ٦٨.

حملة ششنق ضد مملكتي يهوذا وإسرائيل

لقد شهدت السنة الخامسة من حكم رحبعام غزو ششنق فرعون مصر الذي اكتسح مملكتي يهوذا وإسرائيل في ربيع عام ٩٢٤ ق.م. كما تشير نصوص العهد القديم (١ ملك ١٤: ٢٥ ــ ٣١). وكان ذلك في أعقاب الغزوات المتلاحقة التي جاءت من الخارج لتضعضع من كيان يهوذا وإسرائيل، فالآراميون والمؤابيون والعمونيون والعرب والأدوميون والفلسطينيون، قد ضيّقوا الخناق على المملكتين.

وعلى الرغم من أن تفاصيل حملة ششنق غير مؤكدة إلاّ أن مصادر الآثار تعطينا صورة عن سير العمليات العسكرية في مملكتي يهوذا وإسرائيل، وقد أيّد أهاروني ما جاء في هذه الحفريات التي سنعرض موجزاً لها.

يبدو أن ششنق قد اتخذ مدينة غزة مركزاً لتجمع قواته، حيث قسمها إلى ثلاث حملات اتجهت اثنتان منها إلى النقيب[1]، أما الحملة الثالثة والرئيسية فقد

---

(١) يوحانان أهاروني: المرجع السابق، (ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨).

ولعلّ أحد هذه القولات توغل في منطقة النقب إلى عصيون جابر، التي تقع على مسافة حوالي مائة ميل جنوبي البحر الميت على خليج العقبة، ولكن ذلك بعيد الاحتمال نظراً لوعورة المنطقة وبعد المسافة.

راجع: K.A. Kitchen: The third Intermediate Period in Egypt, 1958, P.296.

Hermann: Op.Cit, no. 29, P 196.

A.H. Sardiner: Egypt of the Pharaon, 1961. PP.326-330.

اتجهت بقيادة ششنق نفسه إلى الشمال الشرقي مخترقة سهل فلسطين، حيث هاجم المدن الحصينة في يهوذا، وسلك الطريق إلى مدن جبعون وبيت حران وعجلون واستولى عليها، وكان الطريق يمر بأورشليم، ولعله اقترب منها حيث اتخذ جبعون قاعدة عسكرية ينطلق منها إلى محاور عمليات في فلسطين، وفي نفس الوقت انتظر قرار رحبعام ملك يهوذا، إما بالاستسلام ودفع جزية كبيرة أو بتحمل عاقبة مهاجمة القدس (أورشليم) وتدميرها. وقد اختار رحبعام الخضوع ودفع الجزية ليؤمن عرشه وحكومته بالإضافة إلى تسليم كنوز سليمان، حتى يتجنب إراقة الدماء (١ ملك ١٤:٢٥ ـ ٢٧، ٢ أخ ١٢:٢ ـ ١٢). ولذلك لم تظهر القدس (أورشليم) في قائمة المدن التي استولى عليها ششنق(١).

واستمر في التقدم إلى الشمال في اتجاه المملكة الشمالية (مملكة إسرائيل)، وعندما شعر يربعام بن نباط بقرب وصول ششنق إلى ترصه، انسحب يربعام عبر الأردن إلى فينوئيل ثم محانيم.

وبعد أن استولى ششنق على شكيم اتخذ ترصه قاعدة له، وأرسل منها حملة فرعية لمطاردة يربعام جنوب شرق فلسطين وعبرت نهر الأردن إلى فينوئيل ومحانيم، وفرضت الجزية عليه واعترف بتبعيته لششنق، وبعد ذلك استمرت هذه الحملة في تقدمها في اتجاه «بيت شان» حيث استولى عليها، ومن هناك اخترقت وادي مرج بن عامر (يزراعيل) واستولت على «شونيم» «وتعنك»، واستمرت لتتقابل مع القوة الرئيسية بقيادة ششنق عند «مجيدو»، والذي كان قد تحرك إليها واتخذ منها قاعدة لعملياته العسكرية في شمال إسرائيل، ومن المحتمل أنه أرسل حملة فرعية أخرى إلى عكا والجليل. ومن الغريب أن العهد القديم لم يتحدث عن موقف يربعام من حملة ششنق(٢).

---

(١) Kitchen: Op.Cit, P. 298.

(٢) أشار لودز إلى بعض الآراء حول غزو ششنق الذي كان موجهاً ضد مملكة يهوذا فقط، وأنها =

وبعد انتهاء عملياته في الشمال تجمعت قواته عند مجيدو لتنظيم عودتها إلى مصر، ويشير أهاروني إلى أن ششنق قد تحرك إلى الجنوب عبر الطريق الساحلي من الكرمل ماراً بعارونا وبوريم ويحيم وسوكوح متجهاً إلى غزة، ومن المؤكد أنه التقى هناك بالمجموعتين اللتين كانتا تقومان بعمليات عسكرية في النقب، ثم عاد إلى مصر متخذاً الطريق الساحلي عبر سيناء حيث احتفل بالنصر في تانيس(١).

وقد سجل ششنق أعمال حملته في فلسطين بعد عودته إلى مصر على الحائط الجنوبـي الغربـي لمعبد آمون من الكرنك، كما حدَّد الأماكن التي قام بغزوها.

ومن المهم ملاحظة أن اسم أورشليم (القدس) ــ وهي المدينة الوحيدة التي جاء اسمها بوضوح في العهد القديم عند الحديث عن غزو ششنق لفلسطين ــ لم يرد في قائمة الكرنك، ويستبعد كثير من الباحثين أن يكون اسم أورشليم قد فقد من القائمة، ومن ثمّ كانوا على حق في محاولاتهم المتكررة لكشف عن اسم أورشليم تحت اسم آخر. بالإضافة إلى هذا جاءنا العهد القديم بقصة ناقصة عن هذه الحملة حيث ورد به أن ششنق استولى على المدن الحصينة التي كانت تابعة ليهوذا (٢ أخ ١٢: ٢ ــ ٤). وقد وجد أيضاً على الحائط الجنوبـي لمعبد آمون رسومات لآلهة وآلهات من طيبة يسوقون إلى ششنق أكثر من مائة وخمسين أسيراً

= نفذت بطلب من ملك إسرائيل رحبعام بن نباط على فرض أن رجبعام كان قد استولى على مملكة إسرائيل. وقد ناقش لودز هذا الفرض وقال: على فرض أن ششنق قد استولى على فلسطين كلها مدينة تلو الأخرى اعتماداً على الافتراض الأول، وهو سيطرة رحبعام على المملكة الشمالية من قبل ولو بصفة مؤقتة، ــ إذا افترضنا صحة ذلك الرأي ــ فمن الغريب أن سفر الملوك قد صمت عن ذكر هذا النجاح لرحبعام، رغم أن كل الشواهد توضح أن العهد القديم دائماً يذكر بإسهاب انتصارات ملوك يهوذا.

Lods: Op.Cit, P.408.

راجع: Olmstead: Op.Cit, P. 356.

(١) أهاروني: المرجع السابق. (ص ٢٧١ ــ ٢٧٢).

مكبلين، يمثلون مختلف المدن الحصينة لإسرائيل مثل تعنك ومجيدو، وربما كان اسم فينوئيل من بينها، وليس محتملاً أن تكون أسماء المدن الشمالية قد أضيفت عن طريق الكتبة الملكيين من قوائم سابقة لإرضاء الملك، كما أنه من غير الممكن كذلك أن يكونوا قد ذكروا كل الأماكن المعادية والصديقة التي تدفع الجزية لمصر.

ويظن أن مهاجمة فرعون مصر (ششنق) كان أثناء حكم سليمان نفسه(١).

وقد حكم رحبعام المملكة الجنوبية سبعة عشر عاماً بينما حكم يربعام المملكة الشمالية اثنين وعشرين عاماً، وقد انتقلت العداوة إلى أحفادهم وظلت لسنوات طويلة، وإن تحولت إلى علاقات ودية في بعض الأحيان.

الوضع السياسي في إسرائيل بعد وفاة يربعام:

أدّى تأثير هذا الصراع بين المملكتين إلى ظهور محاولات ناجحة للفلسطينين من أجل الاستقلال تحت زعامة حكام المدن. ولم تتوقف المصادمات مع الفلسطينين وفقدت يهوذا تبعاً لذلك الكثير في المنطقة الساحلية. وقد يفسر ذلك عدم ذكر سفر أخبار الأيام الثاني (١١: ٥ ـ ١٠) الشريط الساحلي، وهي تلك القائمة التي رجح أنها استندت إلى وثائق رسمية، وشملت أسماء المدن الحصينة التي شيدها رحبعام أو عمل على تطويرها.

وقد خلف رحبعام ابنه أبيام (٩١٦/ ٩١٥ ـ ٩١٤/ ٩١٣ ق.م) الذي ورد ذكره في سفر الملوك الأول: الفصل ١٥، وكذلك في سفر أخبار الأيام الثاني: الفصل ١٣، أن أبيام حشد أربعمائة ألف مقاتل وزحف بهم على مملكة إسرائيل، وخرج إليه يربعام بثمانمائة ألف والتقى الجيشان في معركة فاصلة انهزم فيها يربعام وقتل من جيشه حوالي ٥٠٠,٠٠٠ ألف مقاتل، واستولى أبيام نتيجة لذلك على مدن بيت إيل ويشانه وعفرون وقراهم (وهذه الأرقام مبالغ فيها إلى حدٍّ كبير،

---

(١) Lods: Israel, PP. 374-385.

ويجب أن نأخذها بحذر شديد) وخلف أيام ابنه آسا (٩١٤/٩١٣ ــ ٨٧٤/ ٨٧٣ ق.م).

ناداب (٩٠١ ــ ٩٠٠ ق.م):

وكانت وفاة يربعام بن نباط (يربعام الأول) مؤذناً بتغيير واضح في سياسة إسرائيل، كما كانت أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى الضعف الذي أصابها. ونتيجة لعدم استقرار السلطة الملكية فقد أفل نجم ناداب بن يربعام (٩١١/ ٩١٠ ــ ٩١٠/ ٩٠٩ ق.م) وظلَّت مشكلة حدود يهوذا هي المشكلة المسيطرة على حكمه حتى انتهى الأمر باغتياله في السنة الثانية لحكمه، نتيجة مؤامرة نسج خيوطها بعشا بن أخيا (٩١٠/٩٠٩ ــ ٨٨٧/ ٨٨٦ ق.م) من سبط يسساكر، والذي قضى نهائياً على أسرة يربعام واستولى على العرش (١ ملك ١٥: ٢٧ ــ ٢٩). وقد أظهر «بعشا» قدراً كبيراً من الشجاعة وحسن التدبير، وكان قد اتخذ ترصة عاصمة له (١ ملك ١٥: ٣٣)، وذهب في عدائه ليهوذا إلى حد التحالف مع بن هدد ملك دمشق، واتجه إلى الجنوب مؤيداً بهذا التحالف حيث استولى على «رامة» المحصنة والتي تقع على بعد خمسة أميال من القدس (أورشليم)، لكي يغلق الطريق المؤدية إلى مملكة يهوذا (١ ملك ١٥: ١٦ ــ ١٧)؛ ولكن آسا ــ ملك يهوذا ــ نجح في استمالة بن هود إلى جانبه بما قدمه له من العطايا الثمينة من كنوز المعبد والقصر، وبذلك انقلب ملك دمشق على حليفه بعشا، وأرسل الملك هدد بفرقة إلى الجليل خرَّبت الكثير هناك، مما دفع بعشا إلى التخلي عن تحصيناته في «رامة» وانسحب ليواجه غزو بن هدد. وقد استخدم آسا مواد البناء التي كان بعشا قد أعدها لكي يحصن رامة، في تحصين مدينتي «جبع» و «مصفاة» في مواجهة إسرائيل (١ ملك ١٥: ٢٠ ــ ٢٤).

وكان بعشا قد حكم مدة أربعة وعشرين عاماً في ترصة توفي بعدها وفاة طبيعية ودفن بها. وتولى «إيلاه» العرش (٨٨٧/ ٨٨٦ ــ ٨٨٦/ ٨٨٥ ق.م) بعد وفاة

والده بعشا إلاّ أنه حكم عامين فقط (١ ملك ١٦: ٨) وراح ضحية مؤامرة لضابط كبير هو زمرى الذي قتل إيلاه وهو غارق في سكره (١ ملك ١٦: ٩ ـ ١٠)، وحاول زمرى أن يُثبِّت مركزه بقتل جميع ذكور «بيت بعشا» (١ ملك ١: ١١) معتقداً أنه بذلك يستطيع اغتصاب المملكة لنفسه ولكنه كان مخطئاً، وقد حكم في ترصة سبعة أيام فقط.

تلقى الجيش نبأ مؤامرة زمري وما أسفرت عنه من نتائج أثناء قتاله الفلسطينيين في جبتون، فنادى الجنود على الفور بقائدهم عمرى ملكاً على إسرائيل، وقد بادر ومعه الشعب إلى حصار ترصة حيث كان يتحصن زمري. ولما رأى أن الزمام قد أفلت من يده دخل إلى القصر الملكي في ترصة، وأشعل النار في نفسه وتوفي (١ ملك ١٦: ١٨).

وجبتون كانت مدينة فلسطينية تقع فيما يبدو بين مدينتي عقرون وجازر، وبذلك كانت في المنطقة الجبلية التي تؤدي إلى السهل الساحلي، حيث كان الصدام العنيف المتكرر ضد الفلسطينين[١].

• • •

(١) Hermann: Op.Cit, P. 202.

عمري وبناء السامرة كعاصمة لإسرائيل

بعد انتحار زمري حدث صراع على العرش بين عمري وبين «تبني بن جينه»، وكان تبني يتمتع بتأييد ما يقرب من نصف الشعب ولكن بوفاته (١ ملك ١٦ : ٢٢) أصبح عمري ملكاً (٨٨٦/ ٨٨٥ ــ ٨٧٥/ ٨٧٤ ق.م) على إسرائيل اثنتي عشرة سنة، وذلك من السنة الحادية والثلاثين من حكم آسا ملك يهوذا (٩١٤/٩١٣ ــ ٨٧٤/ ٨٧٣ ق.م). حكم منها ست سنوات في ترصة (١ ملك ١٦ : ٢٣) كما فعل أسلافه.

وقد اتخذ عمري خطوة هامة من السنة السادسة من حكمه تدل على حنكته السياسية والعسكرية، وهي أنه قام بشراء تل صغير من رجل يدعى «شيمر» بوزنتين من الفضة (١ ملك ١٦ : ٢٤) وحصّنه وأقام عليه عاصمته الجديدة التي أطلق عليها اسم «السامرة» باسم شمير مالك التل، وعملية شراء التل لها دلالة مهمة من أن رجلاً غير إسرائيلي ظل محتفظاً بملكيته في مكان عال من أرض إفرايم الجبلية. وعندما اشترى عمرى أرضاً لم يكن لها علاقة أصلاً بإسرائيل، ولكنها الآن أصبحت ملكية شخصية لعمري، الذي جعل منها موقعاً يقيم عليها عاصمة دولته الجديدة. وهذا يذكرنا بالطريقة التي اشترى بها داود أرضاً من أرنان اليبوسي على جبل «المريا» في القدس. وقلّد عمري داود ولكن لم يستول على مدينة كانت قد شيدت من قبل بسكانها ونظمها، وإنما بدأ ببنائها كشيء جديد تماماً، ولم يطلق

عليها اسم «مدينة عمري» كما فعل داود الذي أسمى القدس (أورشليم) «مدينة داود».

لم يكن عمري ـ كما هو واضح إذن ـ يريد قطع الصلة بالتاريخ القديم للموقع، وإنما كان يهدف من احتفاظه بالمدينة إلى الاحتفاظ بالعنصري الكنعاني وبعلاقته مع كنعان[١].

وكان عمري يهدف إلى نقل مقره الملكي إلى مدينة لا تنتمي إلى قبيلة معينة مثل مدينة شكيم (نابلس حالياً) التي تنتمي إلى قبيلة إفرايم، بالإضافة إلى ذلك فالسامرة تتميز بحصانة موقعها حتى لا تقع تحت رحمة أي هجوم مفاجىء على النحو الذي تعرضت له ترصة من قبل، والتي استولى عليها عمري نفسه في أقل من أسبوع. وهكذا فإن اختيار موقع السامرة كانت له دلالات عسكرية هامة، حيث فشل الآراميون أكثر من مرة من حصارها، كما أن الآشوريين اضطروا إلى حصارها لمدة ثلاث سنوات قبل أن ينجحوا من الاستيلاء عليها عام ٧٢٢ ق.م على يد سرحون الثاني كما سنوضح فيما بعد، وقد أثبتت الحفائر الأثرية قوة تحصيناتها[٢].

* * *

ويذكر أهاروني أنه ربما كان من أسباب عدم اختيار عمري لأحد المراكز القديمة في جبل إفرايم مثل شكيم، أنه كان يريد أن يؤسس عاصمته الجديدة في موقع السامرة الذي يسيطر على مفترق الطرق الغربية لجبل إفرايم، والتي كانت تقع على مسافة عشرة كيلومترات إلى الشمال الغربي من شكيم.

وربما كان عمري في اختياره للسامرة مماثلاً لما فعله داود في اختياره

---

(١) Hermann: Op.Cit, P. 206.

(٢) Lods: Op.Cit, P.378.

A. Alt: Essays on O.T. History and Religion PP.322-323.

أورشليم (القدس) كمدينة محايدة عاصمة لبني إسرائيل، وكانت رغبة عمري أن يؤسس مدينة السامرة لتكون عاصمته المنافسة لأورشليم[1]. فإذا رجعنا إلى الفترة الزمنية منذ عصر يربعام الأول وحتى عصر عمري لنعرف كيف سارت المملكة، فإننا نرى أن الأخطار المحدقة بالدولة قد هدأت، ومن هنا بدأ تفكير عمري في نقل عاصمته من ترصة بهدف أن يكون لمملكة إسرائيل مكانٌ مقدسٌ للحج مثل الجنوبيين، فبنى السامرة في هذا الوقت على طريقة سليمان عند بنائه لأورشليم؛ وهذا يعني بناء معبد وقصر وحي ملكي بالإضافة إلى سور للمدينة تتخلله بوابات وأبراج[2].

وتقع السامرة في وادي سعير وهو موقع استراتيجي يسيطر على الطريق الشمالي الجنوبي في مواجهة أي زحف من مملكة يهوذا، بالإضافة إلى سهولة اتصالها بفينيقيا الذي كان يرتبط معها بمعاهدة تحالف، وتقع السامرة على بعد حوالي اثنين وأربعين ميلاً إلى الشمال من أورشليم وخمسة وعشرين ميلاً إلى الشرق من صور، وعلى بعد خمسة أميال شمالي غرب شكيم في منطقة تقع بعيداً ــ في غرب أماكن الملوك في شكيم وترصة وفينوئيل ــ وهي أقرب إلى الساحل الكنعاني. وقد تعمد عمري اختيار هذ المكان كعاصمة ليمارس تأثيره على هذه المناطق التي تقطنها شعوب مختلطة. وهو هنا يشبه داود الذي اختار أورشليم لأنها تقع في منطقة الحدود بين يهوذا وإسرائيل ليكون على مقربة من الدولتين اللتين يحكمهما.

وقد أطلق اسم السامرة في بادىء الأمر على العاصمة التي أسسها الملك عمري في مملكة إسرائيل، ثم اتسعت دائرة الاسم فشملت الإقليم الشمالي كله حوالي نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. واسم السامرة يعني «برج الحراسة» وينطبق

---

(١) أهاروني: المرجع السابق صفحات ٢٧٧ ــ ٢٧٨.

(٢) G.A. Smith: Historical Geography of Holy land, 1966, P. 227.

هذا الاسم على طبيعة وصفها الجغرافي وسط مملكة إسرائيل[1].

وإذا كانت الحفائر تؤكد وصف العهد القديم أن عمري قد أسس السامرة في موقع بكر، فإن بعض المؤرخين يختلفون في أمر بناء السامرة، فعندما اشتراها عمري لم يشتر تلاً خالياً ولكنه اشترى تلاً كان مقاماً عليه قرية صغيرة، وعند تخطيط المدينة أفاد من الشكل الطبيعي للتل إذ ارتكزت معظم المباني على الصخر مباشرة، ويتراوح ارتفاع التل بين أربعمائة وثلاثين متراً وثلاثمائة وخمسين متراً فوق سطح البحر، ومن المرحلة الأولى قام عمري بوضع حجر الأساس لأسوار قلعة مستطيلة الشكل مقياسها مائتان وتسعون قدماً (٩٠ متراً) من الشمال إلى الجنوب، وخمسمائة وثمانون قدماً (١٨٠ متراً) من الغرب إلى الشرق. وقد صممت هضبة السامرة لتكون حياً ملكياً على طراز الحي الملكي الذي بناه سليمان في القدس، وربما كان الحي الملكي عند أول تخطيط للمدينة محاطاً بسور غير محصن، وإن كان يتيمّز بالفخامة، إلاَّ أنه تم تحصين الهضبة في المرحلة الثانية بسور منيع وخاصة من الناحيتين الشمالية والغربية، ويبلغ سمكه مائة وستين سنتميتراً وكان ارتفاعه يتراوح بين مترين وأربعة أمتار، وذلك على الرغم من الانحدار الشديد للهضبة في الاتجاه الشمالي. ويبدو من تخطيط المنطقة أن مدخل المدينة عند إقامة السور في المرحلة الثانية كان من ناحية الشرق[2].

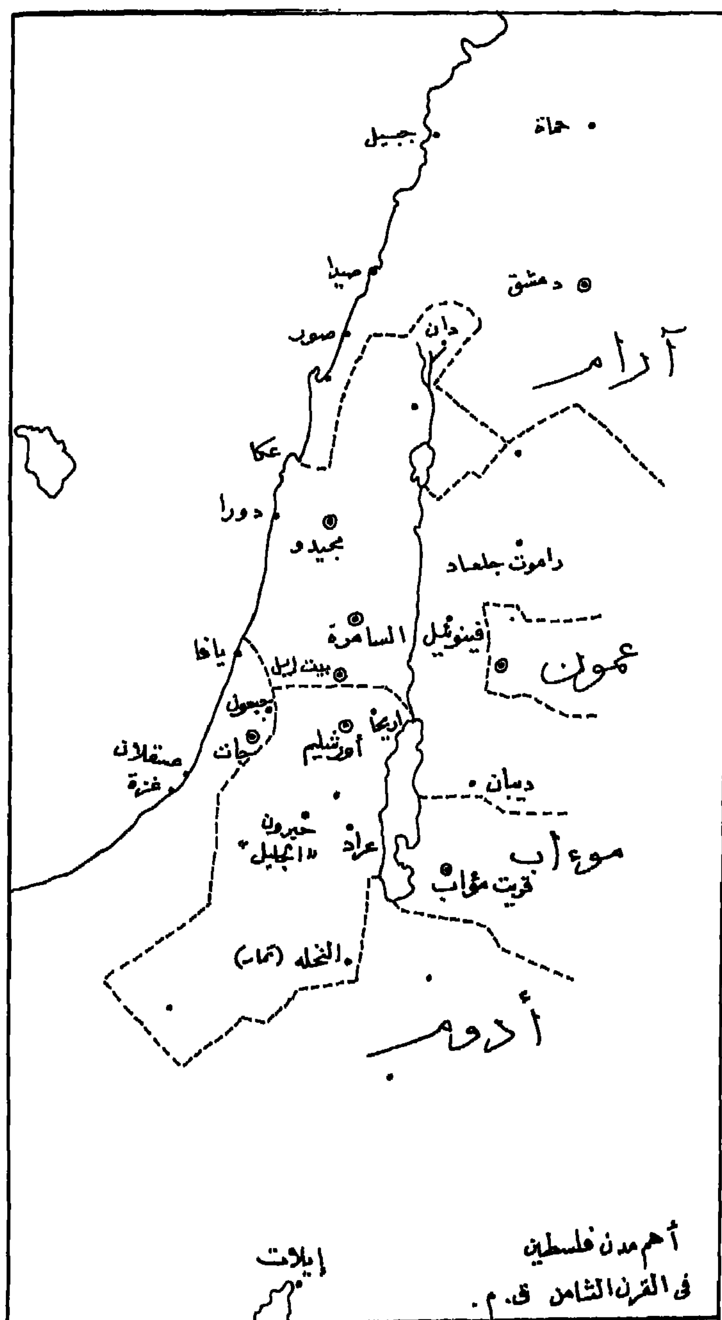
وكان الحي الملكي في السامرة يضم العديد من المباني والقصور وأهمها القصر الملكي، الذي دلَّت الحفريات على أنه بُني على هيئة سلسلة من الأفنية التي تحيط بها الحجرات على نمط قصور بابل وإن كان أكثر تواضعاً، ويبدو من أسلوب زخرفة القصر أن عمالاً فينيقيين قد قاموا بتنفيذه متأثرين بالفن المصري[3].

---

(١) Hermann: Op.Cit, P. 207.

(٢) Kathleen Kenyon: Archaology in th Holy Land, PP. 263-268.K

(٣) Kathleen: Op.Cit, P.263.



أهم مدن فلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد
نقلاً عن كتاب «القدس عربية إسلامية» ص ٧١

عمري وعلاقاته الدولية

على الرغم من أن سفري الملوك الأول والثاني لا يرويان لنا شيئاً تقريباً عن عمري، إلاّ أن المصادر الآشورية تمدنا بمعلومات عن مدى أهمية حكم عمري، إذ أنه ذُكر في النقوش الآشورية «لهدد نيراري» الثالث «وتغلات فالصّر» الثالث وسرجون الثاني. ومن المحتمل أن يكون عمري قد دفع الجزية «لآشور ناصر بال» الثالث (٨٨٠ ــ ٨٦٠ ق.م) تفادياً لأي صدام مسلح مع آشور. أما فيما يتعلق بعلاقاته مع دمشق فيبدو أن عمري كان أقلّ نجاحاً في معاركه ضد الآراميين، إذ اضطر إلى التنازل لهم تحت تأثير الضغط المستمر عن عدد من المدن التي تقع شرق الأردن ومن بينها «راموت جلعاد» (١ ملك ٢٠:٣٤). ومن المرجح أن دمشق كان يهمها في المقام الأول تأمين اتصالها بالبحر المتوسط، ولعل هذا يوضح أمر صراعها الدائم مع مملكة إسرائيل، وفضلاً عن ذلك كان عمري مضطراً لأن يسمح للآراميين بأن يقيموا داخل السامرة أسواقاً خاصة بهم أشبه بالمواني المفتوحة، وأعطاهم «حق امتياز التجارة لشعب دمشق»، وذلك لأن التجار الآراميين اتخذوا من دمشق طريقاً للتجارة ينقلون عبرها تجارتهم إلى ساحل البحر المتوسط، ولم يحصل عمري للسامريين من دمشق على امتيازات مماثلة[1]

(١) المرجع السابق (ص ١٧٥).

Lods: Israel, P.377.

(١ ملك ٢٠: ٣٤).

ويُعزى إلى بنهدد الثاني ــ الذي يكتب اسمه «برهدد» بالآرامية، ويرد في النقوش الآشورية باسم «أدد إذْرِي» ــ توحيد آرام وجعل دمشق عاصمة لمملكة كبرى لها نظمها السياسية العسكرية، مكنتها من التحكم في كل خطوط المواصلات في غرب آسيا.

وفي سبيل تقوية عمري لنفسه ضدَّ بنهدد ملك الآراميين، قام بتوثيق علاقاته مع فينيقيا، ويبدو أن التحالف بين صور وإسرائيل قد أصبح تقليداً التزم به ملوك المملكة الشمالية بعد داود وسليمان.

أما بالنسبة لعلاقاته مع مملكة يهوذا فقد تحسنت هذه العلاقات كثيراً بين المملكتين، حيث لم يرد ذكر لأي حروب في هذه الفترة، ومعنى ذلك أن الأمور كانت تسير في خط يمهد لقيام تحالف بينهما، كان تم عقده أثناء حكم ابنه آخاب [٨٧٥/ ٨٧٤ ــ ٨٥٤/ ٨٥٣ ق.م] مع يهوشافاط (٨٧٣ ــ ٨٤٩ ق.م) وقد انتهت هذه المعاهدة بزواج عتاليا ابنة آخاب من يورام بن يهوشافاط ملك يهوذا (٢ ملك ٨: ١٨).

ومن المرجح أن المبالغة في نقد عمري والإقلال من ذكر أخباره في العهد القديم، يرجع إلى أسباب دينية، بينها أنه سلك نهج يربعام (١ ملك ١٦: ٢٦) فساعد على دخول الوثنية إلى مملكة إسرائيل نتيجة للسياسة التي اتبعها في توسيع علاقاته مع فينيقيا[١].



(١) Ricciotti Vol.I: Op.Cit, P332.

ملوك إسرائيل بعد عمري

بالإضافة إلى هذا فإن أسرة عمري قد نجحت في إقامة نظام للمقاطعات الإدارية بدلاً من التنظيم القبلي، وهو النظام الذي لعب دوراً رئيسياً في تقوية النفوذ المركزي للسلطة الملكية[1] (١ ملك ٢٠: ١٣ ــ ١٥).

آحاب (٨٧٥/ ٨٧٤ ــ ٨٥٤/ ٨٥٣ ق.م):

وبعد أن استمر عمري على عرش إسرائيل اثنتي عشرة سنة خَلَفه على العرش ابنه آحاب، الذي استمر حكمه في السامرة اثنتين وعشرين سنة، وقد أدرك بفطنته السياسية أهمية تركيز قواته ضد الآراميين في دمشق حيث كانوا يشكلون خطراً كبيراً على مملكة إسرائيل، ورأى من حسن السياسة أن يدعم العلاقات القديمة مع ملك صور إيتو بعل[2] (٨٩٩ ــ ٨٦٧ ق.م)، كما فعل والده من قبل، فتزوج آحاب من إيزابيلا ابنة ملك صور (١ ملك ١٦: ٣١)، ويجدر بنا أن نذكر أن هذا التحالف

---

(١) Lods: Op.Cit, P. 378.

(٢) ورد اسم إشبعل (Ethbaal) ملك الصيدونيين (أهل صيدا)، ولكن يوسيفوس في كتابه (Antiquities VIII, 13, 2, 324) يتحدث إيثوبالوس ملك صور، وفي الواقع أن هجاء الاسم في العهد القديم كان خطأ ولا بدَّ وأنه كان إيتوبعل (Ittobaal). وتبعد صيدا عن صور بمسافة ٢٥ ميلاً شمالاً على الشاطىء الفينيقي، نهى أقرب مدينة حرة في المنطقة. ولعل هناك خطأ في كل من العهد القديم وعند يوسيفوس، إلاَّ إذا كان يقصد بكلمة الصيدونيين كتعبير عام عن الفينيقيين.

راجع: Hermann: Op.Cit, P. 208.

القديم مع ملك صور كان قائماً في عهد داود وسليمان، وقد وجد أهل «صور» أن هذا التحالف يحقق نفعاً كبيراً لهم حيث إن القمح والمنتجات الأخرى لشمالي فلسطين كان ضرورة لمدنهم الساحلية[1]. ومن ناحية أخرى كان من مصلحة التجار الفينقيين منع منافسيهم الآراميين من الوصول إلى البحر المتوسط عن طريق عكا عبر أراضي مملكة إسرائيل. كما أقام معبداً لبعل صور (ملكارت) في السامرة. (١ ملك ١٦ : ٣١ ـ ٣٣). ـ وربما كان قد بُني ليهوه معبد مماثل في فينيقيا ـ تدعيماً لهذا التحالف، ويبدو أن عبادة الإله الكنعاني «أشيرا» (١ ملك ١٨ : ١٩) كانت قد أُدخلت من قبل إلى السامرة.

ومن الجدير بالملاحظة أن موقع السامرة لاءم تحالف آحاب مع الفينيقيين، حيث كانت إيزابيلا في قصرها لا تشعر أنها بعيدة عن وطنها ولا عن عقيدة أسلافها. وقد أثارت هذه الإجراءات من جانب آحاب سخطاً شديداً من نفوس بعض الأنبياء حماة حقوق يهوه، ولم يَمْضِ وقت طويل حتى تحولت هذه الاحتجاجات إلى معارضة منظّمة أدَّت في النهاية إلى سقوط آحاب. وقد استمرت العلاقات مع الآراميين على عهد ملكهم بنهدد الثاني، كما كانت من قبل في عهد عمري، ومن ثَمَّ كانت السامرة تبدو أدنى مرتبة في دمشق. وانتهى الوفاق الهش الذي كان بينهما، ففي عام ٨٥٨ ق.م، قام بنهدد ملك الآراميين بحصار السامرة، وكان قد نظّم تحالفاً ضمَّ اثنين وثلاثين ملكاً استطاعوا الوصول إلى أبواب السامرة، ولكن المدينة قاومت الغزو وألحقت خسائر فادحة بالمهاجمين. وفي العام التالي عاود بنهدد الكرّة بعد أن أعاد تنظيم جيشه ودارت المعركة في أفيق (فك الحالية شرق بحيرة طبرية)، حيث مُني بنهدد بهزيمة حاسمة وأخذه آحاب أسيراً[2].

---

(١) R. Adam. c.: Op.Cit, P. 49.

Olmstead: History of Assyria P. 132.

(٢) (١ ملك ٢٠ : ٢٣ ـ ٤١) =

وعندما شعر آحاب بثقل الضغط الأشوري بقيادة الملك سلما نصر الثالث (٨٥٩ ــ ٨٣٤ ق.م)، أدرك أن من الحكمة والحنكة السياسية أن يُبْقى على مملكة الآراميين في دمشق حتى بعد هزيمتها لتشكل خطاً دفاعياً طبيعياً في المقدمة يحمي مملكة إسرائيل من مواجهة الضغط الأشوري. ودعماً لهذه السياسة عقد آحاب معاهدة مع الآراميين على أمل استرداد المدن التي كان والده قد تنازل عنها لهم، كما طالب بأسواق خاصة للإسرائيليين في دمشق، وطبقاً لهذه المعاهدة أطلق سراح بنهدد ملك الآراميين[1]. وهكذا ظهر لأول مرة في التاريخ تحالف آرامي إسرائيلي أمام الخطر الآشوري. وقد تجاهل العهد القديم الدوافع التي كانت وراء توقيع آحاب للمعاهدة مع بنهدد ولم يشر إلى الأحداث الهامة التي شاكر فيها آحاب.

ولم يستسلم الآراميون للغزوات الآشورية بل قاوموا الغزو، وعلى أثر هذه المقاومة نظم بنهدد الثاني ملك دمشق حلفاً بزعامته ضم اثني عشر ملكاً كان من بينهم آحاب وصهره ملك صور، كما ضم الحلف مملكة صيد وأربعة مدن فينيقية أخرى بالإضافة إلى ملك العمونيين وملك العرب جندبو (جندب). وقد تصدت القوات المتحالفة بقيادة بنهدد الثاني للقوات الآشورية التي كان يقودها سلما نصر الثالث، الذي كان يتقدم بقواته من اتجاه الجنوب لغزو مملكة حماة، وحدثت بين الفريقين معركة ــ هي معركة قرقار ــ حوالي عام ٨٥٣ ق.م، ويبدو أن النصر كان حليف الآراميين وحلفائهم في هذه المعركة، على عكس ما ادَّعاه ملك آشور سلما نصر الثالث (٨٥٩ ــ ٨٢٤ ق.م) والذي سجله على لوحة (Kurkh) الخاصة

= بنيامين مزار: كنعان ويسرائيل محقريم هيسطوريين: «كنعان وإسرائيل، بحوث تاريخية» القدس ١٩٧٤، (ص ٢٦١).

(١) أهاروني: المرجع السابق (ص ٢٨٧).

Olmstead: Op.Cit, P. 134.

بأحداث موقعة قرقار، وهي تتضمن تصديه لحلف نظمه ملوك حاتي (Hatti) (سوريا) الاثني عشر وادّعاءه الانتصار فيها[1]. لكن لو كان الأمر كذلك لحق لنا أن نتساءل لماذا صمت إذن العهد القديم تماماً عن ذكر هذا الحدث الهام!! وهل يتضمن هذا الصمت تصديق العهد القديم لما جاء في الحوليات الأشورية عن الهزيمة الساحقة التي ربما يكون الملك الأشوري قد ألحقها بالحلف وآحاب في هذه المعركة.

ويحاول البعض استناداً على ما جاء في لوحة (Kurkh) ــ جاء فيها أن سلمانصر أسر ٢٠٠٠ عربة، ١٠,٠٠٠ آلاف رجل من جيش آحاب ــ التدليل على مدى ما كان لإسرائيل على عهد آحاب من إمكانيات اقتصادية وقوة عسكرية بالمقارنة بعدد عربات بقية الحلفاء[2].

ومن أعقاب هذه المعركة بشهور قليلة استقبل آحاب يهوشافاط ملك يهوذا في السامرة استقبالاً حافلاً، ووقّع الملكان معاهدة سلام بين المملكتين (١ ملك ٢٢: ٢ ــ ٥)، ودَعْماً للتفاهم بينهما تزوج يورام بن يهوشافاط من عتالية ابنة آحاب. وبرغم أننا نفتقد الوثائق التي توضح شروط الأسس التي قام عليها هذا التحالف، إلاَّ أن هذه السياسة كانت تعد انطلاقاً من نفس السياسة التي اتخذها آحاب لتأمين حدوده، لذلك حاول أن يضع نهاية للعداء مع مملكة يهوذا.

وانضم ملك صور إلى هذا التحالف الذي كان من نتيجته أن حافظ يهوشافاط

---

(١) Thomes: Op.Cit, P. 48 inscription B.

وهناك ثلاثة من الملوك الآراميين أُطْلِقَ عليهم بنهدد، وكان بنهدد الأول حليفاً للملك آسا ملك يهوذا حوالي عام ٨٩٦ ق.م (١ ملك ١٥: ١٨ ــ ٢٠)، وكان بنهدد الثاني (١ ملك ٢٠: ٣٤) ملك دمشق الذي قاوم سلما نصر الثالث، وبنهدد الثالث هو ابن حزائيل الذي قتل بنهدد الثاني (٢ ملك ٨: ١٥).

F. Edward and Freedman: reader II P. 159, Note 23.

(٢) Ben Sasson: Op.Cit, P. 121.

على سيادته على الآدوميين إلى الحدِّ الذي مكنه من بناء أسطول في عصيون جابر، حيث كان ينوي تنشيط التجارة في البحر الأحمر، ولكن يبدو أن هذا الأسطول قد تحطم مما أدّى إلى عدم استئناف رحلاته التجارية التي كانت على عصر سليمان[1].

ويبدو أن الاتحاد المعادي لآشور قد فقد فاعليته إذ تجدَّد العداء بين السامرة ودمشق بعد فترة سلام دامت ما يقرب من ثلاث سنوات، فما أن انقشع خطر آشور بعد موقعة قرقار الذي دعا إلى تحالف بين آرام وإسرائيل، حتى بادر بنهدد إلى إيقاع هزيمة قاطعة بقوات إسرائيل ويهوذا في راموت جلعاد شرق الأردن (٨٥٢ ق.م ــ ١ ملك ٢٢: ٢٩ ــ ٣٥) والتي قتل فيها آحاب. وكانت مدينة راموت جلعاد قد زادت من حدة هذا العداء لأن الآراميين لم يعيدوا هذه المدينة إلى آحاب كما كان منتظراً طبقاً لشروط المعاهدة[2].

لقد وقفنا في هذا الباب على دراسة جانب من الأحوال الدينية للملكتين (إسرائيل ويهوذا) اللتين قُدِّر لهما معاً أن تشهدا دخول عبادات وطقوس وثنية، بل الأمر أبعد من ذلك مدىً، فهو لا يقتصر على الانحراف عن عبادة يهوه، وإنما يجاوز ذلك إلى أنه قبل بدء الحرب بين آحاب والآراميين طلب يهوشافاط (ملك يهوذا ٨٧٤ ــ ٨٥٠ ق.م) من حليفة آحاب استشارة الأنبياء بشأن موضوع رضاء الرب عن هذه الحرب أو العدول عنها (١ ملك ٢٢: ٥ ــ ٩، ٢ أخ ١٨: ٤ ــ ٨)، وقد تنبأ له أربعمائة نبي بالنصر إلاَّ أن «ميخا ابن يَمْلة» كان النبي الوحيد الذي تنبأ له بالهزيمة والموت. وقد تحققت نبوءة ميخا إذ انهزم آحاب عند راموت جلعاد، وجرح بسهم طائش، ومات على عربته رغم أنه كان متنكراً، وحينئذ تفرّق جيشه

---

(١) ١ ملك (٢٢: ٤٨ ــ ٤٩).

راجع: Lods: Israel, P. 380.

(٢) أهاروني: المرجع السابق (ص ٢٨٨).

(١ ملك ٢٢ : ١٢، ٢ أخ ١٨ : ١١) وعادوا بجثة آحاب إلى السامرة، حيث دفن، فغسلت مركبته في بركتها فلحست الكلاب دمه، وغسلوا سلاحه (١ ملك ٢٢ : ٣٧ ــ ٣٨).

ومن المفيد هنا أن نوضح أن آحاب قد شيّد كثيراً من المباني على نمط مباني سليمان، حيث حوّل الحي الملكي إلى ما يشبه قلعة محاطة باستحكامات دفاعية، كما قام بعمل تجديدات شاملة للقصر الملكي الذي بناه عمري تضمنت إنشاء كثير من الجدران المكسوة بالعاج. (١ ملك ٢٢ : ٣٩). ومن المرجح أن يكون آحاب قد بنى معبداً ومذبحاً في الحي الملكي كرّسه لبعل صور[١]. ولكن «إبراهام هامت» يرى أن آحاب بنى معبد البعل خارج قلعة السامرة على الجانب المسمّى مدينة بيت بعل (٢ ملك ١٠ : ٢٥ ــ ٢٦)، وهو مطابق لمعبد بعل الذي أقامته الملكة «عتاليا» (ابنة آحاب) في منطقة مجاورة للقدس[٢].

وكانت فترة حكم آحاب نقطة تحوُّل في الديانة اليهودية في مملكة إسرائيل، حيث سُمح ببناء معبد لبَعْل ملكات من السامرة بتأثير زوجته إيزابيلا الفينيقية كما أسلفناه، وقد واجه آحاب اتهامات خطيرة في سياسته الداخلية والعقائدية نتيجة زواجه من الأميرة الفينيقية[٣]، لذلك فهو متهم بعبادة بعل.

وكان آحاب قد أقام معبداً لبعل كمزار رسمي وليس للبيت المالك ولكن لكل أفراد رعيته، وهذا يجعل الأمر اعترافاً رسمياً من قبل إسرائيل بعبادة بعل، وقد لقي هذا التصرف معارضة شديدة تلمس صداها في الانتشار الواسع للروايات الخاصة بإلياهو وإليشع في أسفار الملوك التي تغيّر كل شيء بين سفر الملوك الأول: الفصل ١٧ وسفر الملوك الثاني: الفصل ٨.

---

(١) Interpreter's Dictionary of the Bible vol. 4 P.184.

(٢) Abraham Halmat: The world History of the Jewish People vol. 5, 1970, P. 203.

(٣) Ricciotti: Israel vol. 1, P. 280.

والمقصود هنا طموحاته المعمارية.

أحازيا (٨٥٤/ ٨٥٣ ـــ ٨٥٣ ـــ ٨٥٢ ق.م):

تولّى أحازيا بعد مقتل والده آحاب الذي كان قد استطاع أن يبقي مؤاب تحت سلطانه، وعلى ما يبدو فإن ثورة ميشع ملك مؤاب[1] قد حدثت أثناء حكم أحازيا، حيث بدأها ميشع بإعلان استقلاله ورفضه دفع الجزية مستغلاً هزيمة آحاب ومقتله، وقد اقترنت ثورة ميشع الناجحة بإصابة أحازيا الذي شاء حظه العاثر أن يسقط من إحدى شرفات القصر الملكي في السامرة، ويصاب إصابة بالغة مات على أثرها بعد أشهر قليلة.

يورام (٨٥٣/ ٨٥٢ ـــ ٨٤٢/ ٨٤١ ق.م):

تولّى يورام الابن الثاني لآحاب الحكم بعد أن أحازيا، وهو آخر ملوك أسرة عمري، وكان موقفه من المسائل الدينية مماثلاً لموقف يربعام بن نباط (٢ ملك

---

(١) كانت مؤاب لا تزال تخضع لإسرائيل في عهد كل من عمري وابنة آحاب، وينهض دليلاً على ذلك نص حجر مؤاب (السطر الخامس: أما عمري ملك إسرائيل فإنه عذّب مؤاب أياماً كثيرة حتى غضب كيموش على أرضه، والسطر السادس: فأعقبه ابنه (آحاب) وقال سأعذب مؤاب في أيامي . . .).

انظر سفر الملوك الثاني (٣: ٤ ـــ ٥).

ونص السطر الثامن: «وورث عمري كل أرض مَهْدَبا وسكن بها في أيامه ونصف أيام ابنه أربعين سنة، «والسطر ١٥، ١٦» «فَسِرْتُ بالليل (أي ميشع)، وحاربت بها من مطلع الفجر إلى الظهر وأخذتها وقتلتهم جميعهم (وهم) سبعة آلاف رجل وامرأة».

ونلاحظ أن نص حجر مؤاب يجعل ثورة ميشع في السنوات الأخيرة من حكم عمري، والتناقض بين المصدرين هو رغبة كل من الطرفين (العهد القديم: سفر الملوك الثاني ونص حجر مؤاب) إبراز انتصاراته.

اكتشف حجر مؤاب في «ديبون» في شرق الأردن عام ١٨٦٨م، وعرض للبيع على الأثري الفرنسي (Clermont Ganneau) الذي رفض شراءه لارتفاع ثمنه، فباعه بعض العرب قطعاً، ووجدت بعض القطع الكبيرة طريقها إلى متحف اللوفر. وأمكن قراءة النص الذي يؤكد تاريخية ما ذكرته التوراة عن «ميشع» بالرغم من اختلاف الرواية عما جاءت في النص.

Cornfeld: Op.Cit, P. 124.

٣:٣) الذي انحرف عن ديانة يهوه، إلاّ أنه قام بتحطيم تمثال بعل صور (ملكارت) الذي كان والده آحاب قد سمح بإقامته في السامرة.

أما بالنسبة لعلاقاته مع مملكة يهوذا فقد كانت ودية، ودليلنا على ذلك أن يورام عندما غضب في بداية حكمه لعصيان ملك مؤاب ورفضه دفع الجزية، نظّم حملة تضم ملك يهوذا يهوشافاط وملك أدوم (٢ ملك ٣:٩) لكي يعيد مؤاب إلى ولائه، وأدرك يورام أنه ليس من الحكمة مهاجتها من الشمال حيث توجد دفاعات حصينة على حدودها الشمالية، فكان من الضروري أن يبدأ الهجوم من الجنوب على امتداد البحر الميت تجنباً لحدوث أي التفاف أو تطويق قد يقوم به الآراميون من الخلف، وقد ترتب على ذلك أن قطع الجيش طريقاً طويلة زاد من مشقتها نقص المياه. وعندما استشار يورام النبي إليشع الذي كان موجوداً في ذلك الوقت تنبأ له بالنصر (٢ ملك ٣:١١، ١٤)، وأشار عليه بحفر بعض الآبار للحصول على المياه، لكن لون المياه التي حصلوا عليها كان يميل إلى الاحمرار (٢ ملك ٣:٢٣)، وفي نفس الوقت انتشرت أخبار هذه الصعوبات التي واجهت قوات الحملة، ففسّر المؤابيون هذا اللون الأحمر الصادر من معسكر القوات المهاجمة على أنه دماء، فظنوا أنها إحدى الصراعات غير المتوقعة قد حدثت بين الملوك الثلاثة لإسرائيل ويهوذا وأدوم، وعلى ذلك تقدم المؤابيون لمهاجمة معسكر الحلفاء الثلاثة، ولكن هذا الهجوم غير المنظم انتهى بفشل المؤابيين وفرارهم[١]. وقد طاردتهم قوات الحلفاء وهدموا بعض مدنهم وحاصروا «كيرحريشت» (كيرات الحالية) عاصمة مؤاب. وقد حاول ميشع القيام بهجوم لكي يفتح طريقاً يصل منه إلى ملك أدوم، إلاّ أنه لم يحرز أي نجاح (٢ ملك ٣:٣٦)، فتصرف ميشع طبقاً للطقوس الكنعانية حيث ذبح ابنه الأكبر وأصعده محرقة على سور المدينة وقدمه قرباناً للإله «كيموش» إله مؤاب[٢]. وكان الفرض من تقديم هذا

(١) Ricciotti: Op.Cit, Vol. I, PP. 340-341.

(٢) = Olmstead: Op.Cit, P. 392.

القربان البشري أن يستعطف الإله كيموش ــ الذي مُدح في نقش ميشع ــ لكي يحول غضبه ضد المهاجمين. ومن الحقيقة ظهر سخط شديد ضد إسرائيل ورحل عنها حلفاؤها وهم في حالة رعب وعادوا إلى بلادهم، ومن المحتمل أن تكون هزيمة إسرائيل وحلفائها مرجعها بشاعة القربان البشري الذي قدمه ميشع لإثارة شجاعة المؤابيين، ويبدو أن حملة يورام ضد مؤاب والتي كانت تعتبر نصراً في كثير من مراحلها، قد تحولت إلى فشل ليورام وحلفائه، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مؤاب دولة مستقلة حتى عصر يربعام الثاني.

ومن الجدير بالذكر أن كلاً من العهد القديم (٢ ملك ٣:٣٧) ونقش ميشع (السطران ١٥، ١٦)، قد أكدا على فشل حملة إسرائيل على مؤاب، وإن كان العهد القديم قد أورد نجاحها في مراحلها الأولى (٢ ملك ٣:٣٤)، في حين أغفل نقش ميشع الإشارة إلى هذا النجاح المبكر لإسرائيل.

وقد أغرى النصر الذي أحرزه المؤابيون بإعلان الآدوميين استقلالهم عن يهوذا[١].

فإذا انتقلنا إلى موقف يورام تجاه الآراميين، فإننا نجده مشابهاً إلى حد كبير لموقف آحاب منهم، فبدلاً من عقد تحالف بينهما فإنه قد تحول إلى موقف عدائي بين الطرفين، وعندما أصبح تهديد الآراميين وشيكاً اتحدت مملكة إسرائيل ويهوذا، ونجح الآراميون في ضرب حصار حول السامرة أثناء حكم ملك إسرائيلي

= «كيموش» (Chemosh) هو الإله القومي لمؤاب، وهو مثل «يهوه» عند اليهود، وعندما يغضب على شعبه فإنه يُسلمهم لأعدائهم ولكنه يتدخل لإنقاذهم في النهاية.
كيموش كان يتحدث إلى ميشع (السطر ١٤، ٣٢) مثلما تحدث يهوه ــ وبكلمات مماثلة تماماً ــ إلى داود (١ صم ٢٣:٤)، ولكن من طقوس عبادة كيموش تقديم الأضحية البشرية (السطر ١٧ من نقش ميشع).

(١) Olmstead: Op.Cit, P. 390.

Lods: Israel. P.182.

غير معروف[1]. (٢ ملك ٦: ٢٤)، وكان هذا الحصار قاسياً بحيث وصل الجوع داخل المدينة إلى الحد الذي جعل بعض الأمهات يأكلن أولادهن بعد أن قمن بطهيهم (٢ ملك ٦: ٢٨ ـ ٢٩). وتشير مصادر العهد القديم إلى أن الذعر الذي أصاب الآراميين ليلاً عند حصارهم لمدينة السامرة، على أن الرب أسمعهم صوت مركبات وخيول فظنوا أنهم سيواجهون جيشاً عظيماً، ففروا هاربين وبذلك أُنقذت المدينة بطريقة غير متوقعة. ولكن الحقيقة في رأي بعض المؤرخين أن هروب الآراميين لا يعود إلى قوة دفاع السامرة، وإنما إلى الأنباء المفاجئة عن هجوم آشوري مما جعل فك الحصار أمراً ضرورياً ليواجه الآراميون هذا الهجوم[2].

وبعد فترة قصيرة اغتصب «حزائيل» أحد قادة بنهدد العرش في دمشق ـ وقد وصفته الوثائق الآشورية بأنه ليس ابناً لأحد ـ بعد أن قتل الملك خنقاً وهو مُسَجَّىء على فراش المرض (٢ ملك ٨: ١٥). وقد انتهز يورام في العام الأخير من حكمه فرصة استيلاء حزائيل على الحكم في دمشق، قام بمحاولة لاستعادة مدينة «راموت جلعاد» من الآراميين، إلاَّ أن يورام قد جرح في هذه المعركة وتقهقر إلى وادي مرج بن عامر حيث كان قصره الملكي، وهناك جاء أحازيا ملك يهوذا لزيارته أثناء مرضه (٢ ملك ٨: ٢٨ ـ ٣٠).

ولقد وقفنا في هذا الفصل على دراسة هامة مؤدَّاها أن اليهود لم يكونوا وحدهم الذين عاشوا في فلسطين في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، بل شاركهم الإقامة بها المؤابيون والأدوميون وغيرهم من العرب. وهذا واضح من خلال الصراعات الطويلة في المنطقة والتي يُبرزها نقش ميشع، وبالإضافة إلى ذلك

---

(١) ويرى بعض المؤرخين أن هذا الملك هو يوآحاز ابن الملك ياهو.
راجع: Ricciotti: Vol. I, PP. 341-347.

(٢) Olmstead: Op.Cit, P. 398.
راجع: نجيب ميخائيل المرجع السابق (٤/ ٤٠٤).

فلم تكن المملكتان (إسرائيل ويهوذا) القائمتان على أسس ضعيفة في وضع سياسي يسمح لهما بالاستقرار على الإطلاق، فالصراع بينهما لا يهدأ وكذلك صراعهما مع الآراميين في دمشق، وهم لا يستطيعون بحال من الأحوال المطالبة بوضع استثنائي لهم في سياق تاريخ منطقة فلسطين. كما أن جانباً كبيراً من تاريخ اليهود في هذه الفترة يتخذ أشكالاً متكررة، فالانقلابات العسكرية يكاد يكون طابعها واحداً، فها هو يورام ملك إسرائيل بعد أن جرح في معركته ضد الآراميين عندما حاول استعادة مدينة راموت جلعاد، يتقهقر إلى وادي مرج بن عامر (يزراعيل) كما أسلفنا. وفي هذا الوقت وجد النبـي «إليشع» أن الفرصة مواتية للإطاحة بأسرة عمري، فأرسل رسولاً تابعاً له لكي يبارك «ياهو» قائد الجيش كملك لإسرائيل، وعندما انتشرت هذه الأخبار تكاتف الضباط مع الملك الجديد، ولكن ياهو أراد أن تصبح المسألة سراً حتى يتوجه إلى مرج بن عامر حيث كان يورام والملك أحازيا ملك يهوذا، وعندما اقترب سأله يورام: هل كل شيء على ما يرام يا «ياهو»؟ . . . فأجاب ياهو كيف يكون كل شيء على ما يرام والزنا وفسوق أمك (يعني إيزابيلا زوجة آحاب) وساحراتها مستمر (٢ ملك ٩: ٢٢) إن إجابة ياهو كشفت رأيه في السلوك الذي لا يستقيم مع العقيدة اليهودية، وتوافقت مع الأسباب السياسية التي قد اختاره من أجلها النبـي إليشع[١].

---

(١) W.L. Gage: Op.Cit, P. 345.

راجع: G. Hadyes: Op.Cit, PP. 132-133.

«إليشع» هو تمليذ النبـي إلياهو (إلياس في القرآن) وتابعه وخليفته، ويعني الاسم في اللغة العبرية (الله الخلاص)، ويأتي اسمه في القرآن الكريم اليَسع بفتح الياء، وقد جاء ذكره مرتين: الأولى من سورة الأنعام ٨٦: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾، ومن سورة ص ٤٨: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾،

ومن أهم الأسباب الرئيسية لسقوط أسرة عمري ما يلي:

١ ــ فشل الملك بعد وفاة أبيه من قمع ثورة ميشع برغم تأييد يهوذا له، وقد أدّى ذلك إلى =

وعندما حاول يورام الهرب، ضربه ياهو بالقوس ضربة نافذة فسقط على أثرها قتيلاً في مركبته (٢ ملك ٩ : ٢٤)، وكذلك لحق أتباع ياهو بأحازيا ملك يهوذا عند محاولته الفرار ومات عند مجيدو[١] (٢ ملك ٩ :٢٧)، وبعد ذلك دخل ياهو يزراعيل حيث كانت تنتظره إيزابيلا مفضِّلة أن تموت كملكة، فقد ظهرت في شرفة القصر في أتم زينة، وتحدثت إلى ياهو، ولكنه أمر بقذفها من الشرفة وداستها الخيول (٢ ملك ٩ : ٣٠ ــ ٣٣)، وقام بذبح اثنين وأربعين أميراً من بيت داود كانوا في زيارة ليزراعيل (٢ ملك ١٠ : ١٤)، كما قتل كل الرجال والكهنة الذين كانوا على اتصال ببيت آحاب.



= استقلال مؤاب وكذلك أدوم.

٢ ــ في دمشق مات بنهدد عام ٨٤٣ ق.م. أو قتل وخَلّفه حزائيل قائد الجيش، وظن يورام أن في وسعه استغلال ما حدث في دمشق ليستعيد كل الجولان وباشان التي احتلتهما دمشق منذ عهد بنهدد، فشنّ حرباً ضد حزائيل وخسر المعركة في راموت جلعاد.

٣ ــ بالإضافة إلى هذا الفشل العسكري يتحدث سفر الملوك الثاني ٤ :٣٨ ــ ٤١ عن جفاف حدث بسبب أزمة اقتصادية في إسرائيل.

ونتيجة للعوامل السابقة تمرّد الجيش وتزعم الثورة ياهو قائد الجيش، ولكن طبقاً لسفر الملوك الثاني ٩ : ٢٢، فقد جاءت المبادرة من جانب إليشع.

(١) Olmstead: Op.Cit, P. 394.

راجع: Lods: Israel, P. 383.

وكان من مألوف العادة أن تتفق المرويات عن تاريخ الملوك في كل من سفري الملوك وسفري أخبار الأيام، إلاّ أن ما ورد في ٢ ملك ٩ :٢٧ ــ ٢٨ بخصوص إصابة أحازيا في «عقبة جور» وموته في «مجيدو» ودفنه في أورشليم؛ يناقض ما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني ٢٢ :٨ ــ ٩ بأن أتباع ياهو أمسكوا بأحازيا وهو مختبىء في السامرة وأحضروه إلى ياهو وقتلوه ثم دفنوه. ونحن نميل إلى الأخذ برواية سفر أخبار الأيام الثاني، حيث أن الوقت لم يكن في صالح أحازيا أثناء وجوده مع يورام في يزراعيل.

ياهو ملك إسرائيل (٨٤٢ ــ ٧٤٣ ق.م)

ومن أعقاب ذلك دخل ياهو إلى السامرة يرافقه في مركبته يهوناداب بن ركاب (٢ ملك ١٠:١٥) الذي كان قائداً للركابيين[١] ومناصراً ليهوه، وقد أعلن ياهوه أنه المناصر لحقوق يهوه الإله القومي وكان يؤيده الجيش والركابيون، ومن ثم فقد قام بتدمير معبد بعل وكان أكثر تحمساً من آحاب نفسه (٢ ملك ١٠:١٨ ــ ١٩).

ولا ندري على أي أساس بنى ياهو خطته المخادعة تلك، بينما كان متحالفاً علينا مع يهوناداب بن ركاب المناصر ليهوه. إنه بذلك يكون قد استأصل شأفة أسرة عمري. ويعدُّ القضاء على تلك الأسرة (عام ٨٤٢ ق.م) نقطة تحول في تاريخ إسرائيل سياسياً ودينياً[٢]، فقد نجحت ثورة ياهو في استبعاد التأثيرات الأجنبية،

---

(١) كان أول ظهور «للركابيين» على مسرح الأحداث في هذه الفترة مرتبطاً بثورة ياهو، وذلك لحماسهم الشديد ليهوه، واتفاقهم مع ياهو في معاداة عبادة بعل، وكان «يهوناداب بن ركاب» هو قائدهم في هذه الفترة إلاَّ أن اسم هذه الجماعة اليهودية قد ارتبط بمؤسسها ركاب، وكان أفرادها يراعون حرفية العبادة، ويظن بعض العلماء أن إلياهو إنما كان أصلاً بين هذه الجماعة.

راجع: Ben Sasson: P. 123.

(٢) Adam C.: Op. Cit, P. 55.

Olmstead: Op. Cit, P. 396

وخاصة في المجالات الثقافية والحضارية، ولكنها جلبت الكوارث على كل من إسرائيل ويهوذا، فمنذ عصر ياهو وإسرائيل تمر بفترة تدهور استمرت حوالي أربعين عاماً، وهي من أحرج السنوات في تاريخ المملكتين.

وبعد أن انتهى النفوذ السياسي لأسرة عمري بمقتل يورام، حكمت أسرة ياهو مملكة إسرائيل في الفترة الممتدة بين عام ٨٤٢ وعام ٧٤٣ ق.م، وقد حكم ياهو خلال هذه الحقبة ثمانية وعشرين عاماً (٨٤٢/ ٨٤١ ــ ٨١٣/ ٨١٢ ق.م)، (٢ ملك ١٠ : ٣٦)، وإذا كانت الصعوبات والمحن قد سادت النصف الأول من هذه الفترة، فإن النصف الثاني قد تميز بالهدوء النسبي ويرجع ذلك إلى طبيعة علاقة مملكة إسرائيل بكل من آشور ودمشق وتأثرها بمجريات الأمور فيها[١].

وقد كانت السمة البارزة في هذه الفترة هي سيادة آشور على مملكة إسرائيل، وكنا قد أوضحنا موقف آشور من مملكة إسرائيل ودمشق الآرامية، حيث كان أول اتصال لآشور بدمشق أثناء حكم آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩ ق.م)، الذي قام في عام ٨٦٨ ق.م بغزو فينيقيا دون التعرض لمملكة دمشق أو مملكة إسرائيل[٢]، أما الاتصال المباشر فقد تم في عهد سلما نصر الثالث (٨٥٩ ــ ٨٢٤ ق.م) في موقعة قرقار عامن ٨٥٣ ق.م كما أسلفنا؛ ولعل ياهو قد دفع الجزية لآشور في عام ٨٤١ ق.م[٣].

أما فيما يتصل بعلاقاته الخارجية فقد كان عليه مواجهة كل من صور ويهوذا اللتين اتخذتا موقفاً معادياً للسامرة، ويرجع ذلك لاغتياله الملكة الفينيقية إيزابيلا، وكما نعلم فقد كانت صور ويهوذا مرتبطتين بعلاقات نسب مع الملكين المقتولين

---

(١) Jos: Ant. IX, VI, 1.

(٢) K. Kenyon: Op. Cit, P. 283.

(٣) K.A. Kitchen: The third Intermediate period in Egypt, Oxford 1973, P. 75, 368.

Cornfeld: Archaeology of the Bible: Book by book, 1976, PP. 121 FF.

(يورام ملك إسرائيل وأحازيا ملك يهوذا)، ومن ثم استولى ياهو على مقاليد الحكم بعد مقتلهم[1] (٢ ملك ١١ : ١ ــ ٣).

وفيما بعد تحسنت العلاقات بين مملكة إسرائيل ــ أثناء حكم ياهو ــ ومملكة يهوذا التي كان يحكمها يوآش (٨٣٧/ ٨٣٦ ــ ٧٩٦/ ٧٩٦ ق.م) بعد أنَّ أطيح بحكم عتاليا (٨٤٢/ ٨٤١ ــ ٨٣٧/ ٨٣٦ ق.م) ملكة يهوذا ــ ابنة آحاب ملك إسرائيل من زوجته الفينيقية إيزابيلا ــ التي كانت قد تزوجت من يورام بن يهوشافاط ملك يهوذا (٢ ملك ٨ : ١٨)، وتولى العرش بعده ابنه أحازيا الذي قتله ياهو مع يورام ملك إسرائيل كما أسلفنا، وفي أعقاب موت أحازيا اعتلت الملكة الأم عتاليا عرش يهوذا، ثم أعدمت بعد حكم دام ست سنوات. ولعل ذلك كان نتيجة مؤامرة دبرها الجيش أو ربما كان نتيجة لثورة شعبية ضد عبادة بعل (٢ ملك ١١ : ١٥ ــ ١٨). وقصة عتاليا يكتنفها بعض الغموض، فالروايات تذكر أنها بدأت الحكم بذبح كل أمراء الأسرة المالكة ــ أي جميع أحفادها ــ ، بيد أن أحدهم قد تمكن من النجاة من هذه المذبحة. ولو أمعنا النظر في صحة هذه الرواية، فإننا لا نجد باعثاً أو سبباً واضحاً يجعل الملكة ترتكب هذه المذبحة، حيث أنها كانت تسيطر بالفعل على مقاليد الحكم بصفتها الملكة الأم والوصية على أحد أحفادها يوآش الذي لا يزال قاصراً.

ويرى لودز أن هذه القصة تبدو كقصة شعبية مشوهة لمذبحة ياهو التي قتل فيها اثنان وأربعون أميراً من يهوذا (٢ ملك ١٠ : ١٤)، أو ربما كان مصدرها بعض النبلاء الذين أذلَّهم حكم ملكة لم تكن من أهل يهوذا، ولعل ذلك يفسر تفسيراً كافياً المؤامرة التي أدَّت إلى الإطاحة بها[2].

---

(١) يوحانان أهاروني: المرجع السابق (ص ٢٨٩).

(٢) Ricciotti: Vol. I, P345.
Lods: Israel, P. 385.

أما بالنسبة لعلاقاته مع دمشق فقد نهج سياسة جديدة ضد أعدائه بالوراثة نعني: آراميّ دمشق، وذلك أنه حاول أن يكسب تأييد الآشوريين وتعضيدهم، فعندما قام سلما نصّر الثالث بحملة أخرى بعد ١٢ عاماً من موقعة قرقار ضد دمشق عام ٨٤٢ ق.م. لم يرسل ياهو أي قوات لمعاونة ملكها حزائيل، الذي هزمه الآشوريون(١) واضطروه إلى الانسحاب داخل عاصمته وأجبروه على دفع الجزية. وقد سجلت أحداث هذه الحملة على مسلة سلما نصر الثالث السوداء، ونص ذلك(٢): «في العام الثاني عشر من حكمي عبرتُ نهر الفرات للمرة السادسة عشرة. وكان حزائيل ملك آرام قد ركن إلى قوة جيشه الكبير العدد الذي استدعاه وقد جعل سانير (Sanir)، القمة الجبلية (رأس الجبل) التي تنهض في مواجهة لبنان مركزه الحصين، (ولكنني) قاتلته وأوقعت به الهزيمة، وأفنيت بأسلحتي ١٦,٠٠٠ من جنده المدربين. وانتزعت منه ١٩٢١ من مركباته و ٤٧٠ من خيول الفرسان مع

(١) ولكن ركشيوتي يشير إلى أن ياهو حشد قواته بجانب آشور ولو أنه لم يذكر أنها اشتركت في القتال مع سلما نصر الثالث، كما أنه أشار إلى أن هذه الحملة كانت في عام ٨٤١ ق.م.
راجع: Ricciotti: Vol. I, P. 345.

(٢) المسلّة السوداء في (Coleh) (نمرود).
أقامها الملك سلما نصر الثالث في الميدان الرئيسي في نمرود واكتشفها (A. H. Layard) في عام ١٨٤٦م [اللوحة رقم ٣ في كتاب (Thomas) أمام ص ٥٤] وهي موجودة حالياً في المتحف البريطاني، وصُوّر ياهو من بيت عمري ساجدا بين يدي الملك. وهذه هي الصورة الوحيدة المعاصرة لملك إسرائيلي، ويظهر ياهو ملتحياً ويلبس معطفاً بلا أكمام تحته قفطان (رداء) طويل ذو أهداب. ويتبعه ثلاثة عشر رجلاً، يتبين لنا من ملامحهم أنهم إسرائيليون، وهم يحملون الأشياء التي نصّ عليها في النقش المصاحب للصورة. والهدايا ليست كبيرة مما قد يدل على أنها تعبير عن خضوع رمزي.

Thomas: Op. Cit, P. 49. Inscription 18. Confeld: P. 122, 17 Aot, 343. Anet, 280.

TGI, K Yalling, Textbuch Zur Yeschichte Israels, 1950, 50 F. E. Michel. Wo, 1947, 265-8.

تجهيزاته وقد فرّ بعيداً لإنقاذ حياته، (ولكنني) تابعته وحاصرته في دمشق عاصمته، واجتثثت (قطعت) نباتاته (محاصيله)، و (بعد ذلك) زحفت حتى بلغت جبال حوران. وقد دمرت ومزقت وأحرقت بالنار عدداً لا يحصى من القرى وحملت منها غنائم تفوق الحصر. وزحفت حتى بلغت جبال (Báali-ra'si)[1] وهي «رأس» عند البحر حيث أقيمت صورة لشخص الملكي. وفي هذا الوقت جاءتني جزية شعب صور وصيدا وياهو بن عمري (من بيت عمري)».

وكما أسلفنا فقد تقدم سلما نصر الثالث نحو آرام، وادَّعى أنه أنزل الهزيمة بحزائيل بعد أن حاصر دمشق التي لم تستسلم له. ثم اتجه الملك الآشوري بعد ذلك نحو فينيقيا، فسارع ياهو للقائه وقدم له جزية ضخمة اشتملت على ذهب وفضة وأوعية ثمينة من هذين المعدنين مع قطع من أثاث بيته الفاخرة، ونرى ياهو مصوَّراً على المسلة السوداء لسلما نصر الثالث راكعاً أمام سيده الملك الأشوري في وضع التابع[2].

ويتحدث الملك الأشوري في نقش؛ عن جزية تدفعها صور وصيدا وياهو ملك إسرائيل وجاء اسمه في النص [ياهو من بيت عمري Iaua of bit-humri] أي ياهو صاحب بيت عمري[3] بالرغم من أن بيت عمري لم يعد له وجود كأسرة

---

(١) «رأس» عند نهر الكلب على بعد حوالي ستة أميال، شمالي بيروت، حين اكتُشفت نقوش ولوحات لسلما نصر الثالث وخلفائه منحوتة في الواجهة الصخرية عند ممر نهر الكلب.

Thomas: Op. Cit, P. 49.

(٢) S. Hermann: A. History of Israel, P. 232.

Thomas: Op. Cit, P. 48, Supescription 20-21.

سامي أسعد: تاريخ فلسطين القديمة، بغداد ١٩٧٩ (ص ٢٠٨).

(٣) ياهو بن عمري!! هذا هو التحديد الآشوري لإسرائيل من القرن التاسع إلى القرن السابع ق.م «بيت (أو أرض) عمري». وهذا الاصطلاح استخدم للدلالة على خلفاء آحاب في أسرته، واستخدم هنا هذا المعنى ــ ذلك أن ياهو كان مغتصباً ــ للدلالة على البلاد التي =

حاكمة.

وانسحب الآشوريون ولكنهم عادوا بحملة أخرى ضد دمشق في عام ٨٣٩ ق.م لم تحقق نتائج أفضل، واكتفوا بتجديد فرض الجزية ولم يظهروا في دمشق بعد ذلك لمدة عشر سنوات[1].

وبالرغم من أن العهد القديم لا يشير إشارة مباشرة لخضوع ياهو لسلما نصر الثالث، فإنه من الممكن أن يكون ياهو قد قدم جزيته سعياً وراء كسب دعم آشور له ضد حزائيل الذي لم يتوقف عن اجتياح منطقة شمالي إسرائيل (٢ ملك ١٠ : ٣٢ ـ ٣٣).

وقد صحب حكم ياهو خضوع إسرائيل لدمشق وملكها بنهدد الثاني، ذلك أنه برحيل الآشوريين وتوقف حملاتهم، نتيجة للاضطرابات السياسية داخل آشور، وبرغم ما أصاب دمشق؛ إلاّ أن ملكها حزائيل أوقع الهزيمة بياهو في منطقة الحدود مع إسرائيل، وهذا ما سجّله سفر الملوك الثاني (١٠ : ٣٢)، إلاّ أن هيرمان (Herrmann) (ص ٢٣٢) يرى أن هذا الصدام ربما كان في عهد خلفاء ياهو، لأن العهد القديم لا يتحدث عن معارك بين إسرائيل ودمشق على عهد ياهو.

وقد انتهزت دمشق فرصة انشغال سلما نصر الثالث بما كان يجري في آشور واضطراره إلى العودة إلى (Coleh) (نمرود)، فأعادت تكوين قوتها ووجهت اهتمامها مرة أخرى نحو الجنوب، وهذا مما يفسّر الحروب القاسية التي خاضها يهو آحاز الذي خَلفَ أباه ياهو على حكم إسرائيل في السامرة (٢ ملك ١٣ : ٣ ـ

= تحكم من السامرة باعتبارها مدينة أقامها عمري (١ ملك ١٦ : ٢٤).

(١) راجع:

Thomas: P. 49.

H. H. Ben sasson (editor): A History of the Jewish People London, 1976, P. 119, FF.

Olmstead: Op. Cit, P. 400.

Ricciotti: Op. Cit, P. 345.

٧)، فقد ساءت أحوال إسرائيل خلال فترة حكمه (يهو آحاز ٨١٥/ ٨١٤ ــ ٧٩٩/ ٧٩٨ ق.م)، الذي اتخذ نهج يربعام دليلاً له، فاشتد غضب الرب على إسرائيل وأسلمهم إلى يد حزائيل ملك آرام مرة أخرى (٢ ملك ١٣: ٣)، ويشير الإصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الثاني إلى وقوع كارثة خلال حكمه، أدّت إلى خضوع مملكة إسرائيل التام لملك آرام الذي دمَّر جيشها، حيث أن تقدم الآراميين لم تحدَّ منه مواقع القتال التقليدية في شرق الأردن، ولو كان حزائيل قد احتل فعلاً مدينة جات وأن الملك يوآش ملك يهوذا (٨٣٧/ ٨٣٦، ٧٩٧/ ٧٨٩ ق.م) قد اشترى حرية أورشليم (القدس) بأن قدم جزية ضخمة لملك دمشق؛ فإنه لا بدَّ أن يكون قد قام هو الآخر بغزو أراضي إسرائيل الشمالية (٢ ملك ١٤: ١١)، وقد سمحت مملكة دمشق ليهو آحاز بأن يبقى على رأس حاميته التي وصل تعدادها إلى خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف من رجال المشاة (٢ ملك ١٣: ٦ ــ ٧)، وبهذا لم يتجاوز ملكه حدود العاصمة (السامرة) إلاَّ قليلاً.

وهكذا خضعت إسرائيل لحزائيل ملك دمشق (٢ ملك ١٣: ٣) خضوعاً تاماً تحت وطأة السلاح، وفي نفس الفترة دفع يوآش ملك يهوذا الجزية لحزائيل أيضاً[١].

ولا نستطيع أن نحدد مدة السيطرة الآرامية، ذلك أنه عندما تناول العهد القديم حكم يهو آحاز (٨١٥/ ٨١٤ ــ ٨٩٩/ ٧٩٨ ق.م) أشار إلى تضرعه إلى الرب بأن يخلِّص إسرائيل من آرام، ثم أورد بعد ذلك أن الرب أعطى إسرائيل مُخَلِّصاً فتخلَّصوا من أيدي الآراميين (٢ ملك ١٣: ٤ ــ ٥) في حين أنه من الصعب تحديد هوية هذا المخلِّص الذي ربما كان يربعام الثاني (٧٨٤/ ٧٨٣ ــ

(١) راجع: Ricciotti: Op. Cit, Vol. I P. 395.

W. L. Wardle: Op. Cit, P. 90.

يوحانان أهاروني: المرجع السابق ١٩٨.

٧٥٣/ ٧٥٢ ق.م) حفيد يهو آحاز[١] (٢ ملك ١٤: ٢٥ ـ ٢٧). وقد اختلف المؤرخون في تحديد من هذا المخلِّص الحقيقي لإسرائيل من سيطرة آرام، إلاَّ أنه يبدو واضحاً أن وفاة يهو آحاز قد صحبها تحسن في أحوال مملكة إسرائيل نتيجة لأن ابنه يوآش (٧٩٨/٧٨٤ ـ ٧٨٤/ ٧٨٣ ق.م) قد استغل حالة الضعف التي اجتاحت آرام بعد موت ملكها حزائيل وخلفه ابنه بنهدد الثلث على عرش دمشق، وقد أرغم على دفع الجزية إلى الملك الأشوري أداد نيراي الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٢ ق.م).

هذه الأحوال هي السبب في قيام يوآسن ملك «إسرائيل بمهاجمة بنهود الثالث واستعادة المدن التي فقدها والده يهو آحاز (٢ ملك ١٣: ٢٤ ـ ٢٥) شرق الأردن[٢].

ومن هذا يتبين لنا أن أمور الحكم لم تستقر في إسرائيل بشكل متواصل خلال الفترة التي حكمها يهو آحاز، إلاَّ أن أحوالها هدأت نسبياً في فترة حكم ابنه يوآسن (٨٠١ ـ ٧٨٦ ق.م) حيثما اعتمد على آشور في مساندته ضد الآراميين كما أسلفنا.

أما فيما يتصل بموقف يوآش من مملكة يهوذا، فالواضح أنه كان معاصراً لأمصيا ملك يهوذا (٧٩٧/ ٧٩٦ ـ ٧٦٩/ ٧٦٨ ق.م) الذي قام بحملة ناجحة ضد الآراميين والعماليق، وانتزع منهم مدينة سلع التي أصبحت فيما بعد تعرف باسم البتراء (٢ أخ ٢٥: ١١) وأعاد فتح الطريق إلى البحر الأحمر[٣]، وقد ازداد غروراً

---

(١) Ricciotti: Op. Cit, Vol. I P. 346.

(٢) Jos: Ant, IX, VIII, 6, 7.

Interpreter's Dictionary of the Bible: vol. 4, P. 184.

(٣) Jos: Ant, IX, IX, 1.

= Lods: Israel, P. 386.

نتيجة لنجاحه في هذه الحملة ورفض المشورة وتحدّى يوآش (٢ ملك ١٤:٨، ٢ أخ ٢٥:١٧)، وكان هدفه من ذلك إخضاع السامرة، غير أن يوآش ألحق بأمصيا الهزيمة وتمكن من أسره في بيت شمش، ثم أتبع ذلك بعزو أورشليم واستولى على كنوز المعبد والقصر كما دمَّر جزءاً من سور المدينة (٢ ملك ١٤:١٣ ـ ١٤، ٢ أخ ٢٥:٢٢ ـ ٢٣)، ولما ثبّت أقدامه على يهوذا لم يجد بأساً من ترك أمصيا المهزوم ملكاً بلا سلطة تحت نفوذ مملكة إسرائيل. وهكذا استعادت المملكة الشمالية تفوقها على مملكة يهوذا مرة أخرى[١].

وعندما تولى عزريا (عزيا) (٧٦٩/٧٦٨ ـ ٧٤١/ ٧٤٠ ق.م) عرش يهوذا أوقف الصراع السياسي بين المملكتين كما زاد حجم التجارة بينهما.

ويبرز في تاريخ مملكة إسرائيل يربعام الثاني (٧٨٤/ ٧٨٣ ـ ٧٥٣/ ٧٥٢ ق.م) بن يوآش حيث وثّق علاقاته مع فينيقيا التي كان أسطولها التجاري قد بلغ ذروته في البحر الأبيض. وفي عهده تغيّرت الأوضاع السياسية في المنطقة، فقد لحق الضعف بآشور نتيجة لتورطها في بابل في حربها ضد المديانيين، وحربها بصفة خاصة ضدّ المملكة الكلدانية القوية أوراتو (Uratue)، وعلى الرغم من حالة الضعف التي صاحبت آشور في هذه الفترة إلاّ أن أداد نيراري الثالث[٢] (٨٠٩ ـ ٧٨٢ ق.م) قام في عام ٧٩٦ ق.م بحملة ضد الآراميين في

= ومن المحتمل أن مدينة سلع كانت عاصمة لأدوم وهي التي اتخذها الأنباط عاصمة لهم باسم البتراء بعد أن سمحت لهم أدوم بالإقامة في أرضها.

Safria sterm: The Jewish People of the First Century, Vol I, P 127.

(١) Ricciotti: Vol. I, P. 348.

(٢) ومن آشور خَلَف شمشي أداد الخامس (٨٢٣ ـ ٨١٠ ق.م) أباه سلما نصر الثالث، وشغل بأمور آشور وعلاقاتها مع بابل فلم يجد وقتاً للتوسع في سوريا، وخلفه ابنه أداد نيراي الثالث (٨٠٩ ـ ٧٨٢ ق.م) من زوجته البابلية شامورامات، والذي قام بحملته الناجحة ضد مملكة دمشق الآرامية، (وكان اسمه ماري (Mari) وهو لفظ يقابل كلمة مولاي بالآرامية=

دمشق، ثم تلتها حملة بقيادة سلما نصر الرابع (٧٨١ ــ ٧٧٢ ق.م) خلاف عام ٧٧٣ ق.م ضد الدويلات الآرامية الشمالية.

ومن المعروف أن تاريخ آشور وإسرائيل في هذه الفترة الممتدة من عام ٧٩٦ حتى عام ٧٤٥ ق.م يعتمد على مصادر قليلة، وطبقاً للأوضاع السياسية السائدة في المنطقة خلال هذه الفترة، فقد كان يربعام في حالة تسمح له بحرية الحركة حيث نجح في استعادة الحدود القديمة لمملكة إسرائيل التي كانت عليها في عهد آحاب. وكانت تلك الحدود تمتد من مدخل حماة حتى وادي عَرَبة إلى الجنوب من البحر الميت بما في ذلك مؤاب (عاموس ٦:١٤، ٢ ملك ١٤:٢٥ ــ ٢٨).

= واختلط اللفظ باسم الملك).

راجع النقش: Aot (Olt orientalische Texte Zum At, Ed.

H. Gressmann, 1926, 344 F, ANET, 281, TGI, 53 F.

وذكر النقش أيضاً أن صور وصيدا وأرض عَمْري وأدوم وفلسطيا قد دانت له بالتبعية. فيبدو أن حملته كانت واسعة النطاق وأنها تجاوزت السهل الساحلي إلى جنوب فلسطين، ودفعت إسرائيل إلى دائرة نفوذ آشور وإن كان غزو جنوب فلسطين غير ذي أهمية حتى لو كان قد حدث بالفعل. والأصدق من هذا النقش هي لوحة أداد نيراي الثالث التي اكتشفت عام ١٩٦٧، فقد جاء ذكر دمشق وصور وصيدا باعتبارهما أقصى توسع له في الجنوب، ولكن اللوحة ذكرت أيضاً اسم يوآش ملك السامرة.

Hermann, P. 233, No. 24, P. 241.

No. 4 S. Page, A stela of Adad-Nirari III.

Nergal-eres from Tell al-Rimah; Iraq 30, 1968, 139-53, P. 11. XXXIX-XLI.

ويقارن ما قدمه ملك إسرائيل لملك آشور بالجزية التي قدمها ياهو لسلما نصر الثالث المسجلة على المسلّة السوداء.

وهذا يعني أن أداد نيراري الثالث لم تزد منطقة نفوذه عما وصلت إليه أيام سلما نصر الثالث إلاّ قليلاً، والذي أفاد من حملة نيراري هذه إنما كانت حماه وذلك على حساب دمشق التي خضعت لآشور.

وإذا قارنا بين نص رشيوتي الذي يقرر أن حدود مملكة إسرائيل في عهد يربعام الثاني قد اتسعت وشملت مؤاب فيما عدا يهوذا، وبين ما ذكره كاتب مادة السامرة من (Interpreter's Dictionary) من أن يربعام توسع في سوريا وشرق الأردن ـ ومن المحتمل يهوذا ـ ، فإننا نميل إلى الأخذ برأي رشيوني في أن يربعام لم يصل في توسعه إلى إلى يهوذا، وقد أيده في ذلك أهاروني على الرغم من أن حالة يهوذا كانت سيئة من الناحية العسكرية في هذه الفترة خاصة بعد هزيمة أمصيا، أما عن توسُّعه في سوريا فنحن نعتقد أن كاتب مقال السامرة الذي أشرنا إليه لم يكن مصيباً حدثه، ومن المحتمل أنه اعتمد في روايته على ما جاء في سفر الملوك الثاني (٢ ملك ١٤ :٢٨) ونصه: «وبقية أمور يربعام وكل ما عمل وجبروته، كيف حارب وكيف استرجع لإسرائيل دمشق وحماه التي ليهوذا. أما هي فمكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل».

ومع أن هذا النص يكتنفه الكثير من الغموض؛ إلاَّ أنه يمكننا الاستدلال منه على أن يربعام الثاني قد أكد الحقوق القديمة لإسرائيل في وجود أسواق للإسرائيليين في دمشق مثلما كانت في عهد آحاب. وقد تمكن يربعام من تحقيق هذا النجاح بعد أن قهرت آشور الآراميين عام ٧٧٢ ق.م، وبعد استعادته من الآراميين لبعض المدن في شرق الأردن، وأخذه الجزية من جنوب سوريا[١].

أما بالنسبة لعلاقاته مع يهوذا فقد أشار أهاروني أنه سادها فترة هدوء أيام ملكها عزيا، حيث كانت يهوذا تجتاز فترة اضمحلال بعد هزيمة ملكها أمصيا كما أسلفنا.

وفيما يتعلق بالنشاط المعماري لهذه الفترة فقد ساعد على تزايده حالة الرخاء

---

(١) يوحانان أهاروني: المرجع السابق (ص ٢٩٥).

W. L. Gage: Op. Cit, P. 350.

التي عاشتها مملكة إسرائيل في عهد يربعام الثاني، حيث أقام كثيراً من التحصينات في مدينة السامرة، وتزايد نشاطه المعماري وإن لم يتسم بدقة عصري عمري وآحاب. كما قام بتجديد القصر الملكي ــ الذي أنشىء في عهد عمري وأكمله آحاب ــ وتوسيعه في اتجاه الغرب، كما أقام برجاً مستديراً قطره حوالي ٨٥ قدماً. كما حصَّن السامرة بسور مزدوج بلغ سمكه في بعض الأماكن حوالي ثلاثة وثلاثين قدماً[١].

ويبدو أن الانتصارات التي حققها يربعام الثاني قد انعكست على الإنتاج الديني الذي عاصر هذه الأحداث، الذي عبر عنه الشعور بالأمان والإيمان بيهوه، ونحن إنما نعتمد في بعض مصادر معلوماتنا في هذه الفترة على ما جاء في سِفْري عاموس وهوشع المعاصرين لتلك الفترة، حيث نستدل من هذه النبوءات في هذين السفرين على أن ذلك العصر كان أكثر استقراراً وتقدماً (عاموس ٣:٩، ٦:٤)، وأن المظهر الديني بصفة عامة كان قوياً وإن شابه بعض الانحلال[٢].

مناحم بن جادي:

وبعد فترة الرخاء التي سادت عصر يربعام الثاني خَلَفَه على العرش ابنه زكريا (٧٥٢/ ٧٥١ ق.م). وحيث أصبح التآمر الصفة الغالبة في الحياة السياسية لمملكة إسرائيل، فقد تمَّ اغتياله بعد ستة إشهر من اعتلائه العرش على يد مغتصب يُدعى شلوم بن يابيش (٧٥٢/ ٧٥١ ق.م) [٢ ملك ١٥:٨ ــ ١٠]، الذي قاد المتآمرين وأنهى حكم أسرة ياهو واستولى على العرش. ولكن ما لبث شلوم نفسه أن وقع ضحية مؤامرة بعد شهر واحد من تولية الحكم، حيث جاء مناحم بن جادي

---

(١) Olmstead: Op. Cit, P. 420.

(٢) Interpreter's Dictionary: Vol. 4, PP. 184-185.

Ricciotti: Vol. I, PP. 348-349.

يوحانان أهاروني (صفحات ٢٩٤ ــ ٢٩٥).

(٧٥١/ ٧٥٠ ـ ٧٤٢/ ٧٤١ ق.م). من ترصة واستولى على السامرة، وقتل شالوم وتولى الملك خلفاً له لمدة عشر سنوات[١].

ويبدو أن هذه الفترة موضع شك، إذ يرى بعض العلماء أن مدة السنوات العشر التي حكمها مناحم طبقاً لما جاء في العهد القديم مبالغ فيها، ومن المرجَّح أنها تقع بين عامي ٧٤٢، ٧٣٧ ق.م إذ يظهر اسم لمناحم في حوليات تغلات فالصر لعام ٧٣٨ ق.م باسم (منحيم السامرة)، ضمن قائمة الملوك الذين دفعوا له الجزية، كما سُجلت السامرة في الحوليات بين تسع عشرة ولاية سورية اتحدت ضدّ آشور[٢]، وإذا كان العهد القديم قد دوّن الحقائق المجردة، فمن السهل علينا أن نذكر أن الفترة منذ موت يربعام الثاني وحتى الأيام الأولى لمناحم كان يشوبها بعض الغموض، حيث قام مناحم باستخدام قلعة ترصة القريبة من السامرة كقاعدة لعملياته، مما جعله قادراً على التخلص من شلوم ومنافسيه الآخرين أيضاً ويتضح ذلك من الطريقة القاسية التي استخدمها مناحم للحصول على العرش، والتي اتبع فيها النمط الآشوري الوحشي إذ قام بتدمير «تبوح» ـ ١٤ ميلاً إلى الجنوب الغربي من ترصة ـ بكل ما فيها وتخومها عندما رفض أهلها أن يفتحوا بواباتهم له، واغتصب النساء وبقر بطون الحوامل (٢ ملك ١٥:١٦)، وبرغم ذلك فلم يحكم قبضته تماماً على السامرة[٣].

وكان الملك الآشوري تغلات فالصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) ـ ويعرف باسم «فول» وهو اسمه في البابلية ـ قد قام بغزو الممالك غرب بابل في الفترة ما

---

(١) A. L. Sachar: A History of the Jews P. 54.

Robinson: Vol. I, P. 373.

راجع يوحانان أهاروني: المرجع السابق (ص ٣٠٢).

(٢) د. نجيب ميخائيل: المرج السابق (ص ٤١٧).

(٣) Olmstead: Op. Cit, P. 439.

DD. Luckenbill: The Ancient Records of Assyria and Babylonia VI, P. 276.

بين عامي ٧٤٣، ٧٤٠ ق.م، ومن ثَمَّ فقد دفع له مناحم جزية كبيرة قيمتها ألف وزنة من الفضة لكي ينقذ السامرة، ولكي يساعده على الاحتفاظ بعرشه (٢ ملك ١٤ :١٩)، وعلى أثر ذلك غادر ملك آشور أرض إسرائيل (٢ ملك ١٥ :١٩ ـ ٢٠)، وكانت هذه أول مرة تخترق فيها الجيوش الآشورية أرض مملكة إسرائيل.

وكما فعل مناحم فقد دفع الجزية لآشور كل من «رصين» ملك دمشق و «حيرام» ملك صور[1]، وخلال هذه الفترة بدأ تغلات فالصر الثالث في العمل من أجل ضم فلسطين إلى إمبراطوريته. ومما لا شك فيه أن هدفه الأساسي كان هو استخدام فلسطين كقاعدة ينطلق منها بحملة عسكرية ضد مصر. ويبدو أن هذه أيضاً كانت وجهة النظر المصرية نفسها، فقد أرادات مصر العودة إلى ممارسة سياستها التقليدية في غرب آسيا بالتقارب مع الممالك في فلسطين وذلك بتعضيدها ضد آشور.

وقد عاصر النبي هوشع هذه الفترة من الاضطرابات، وهو من الأنبياء الذين عُرفوا بالمنشدين الجوَّالين، لأنهم كانوا ينذرون الشعب وينصحونه بالمواعظ. وكان هوشع مثل عاموس مقتنعاً بعدم جدوى القرابين (هوشع ٦ :٦)، ولكن هوشع كان أكثر وضوحلاً وتأثيراً، كما أن عصره لم يكن مناسباً لإجراء إصلاحات دينية، ومن ثم فقد كان دوره صعباً في القضاء على الانحرافات داخل إسرائيل. وقد أشار كثيراً إلى أن خضوع مناحم لآشور لم يكن أمراً مقبولاً داخل مملكة

---

(١) كانت الوزنة من الفضة تساوي ٣٠٠٠ شاقل، ومعنى ذلك أن ثلاثة ملايين شاقل قد سُلِّمت لملك آشور.

A. Sachar: Op. Cit, P. 55.

Ricciotti: Vol. 1, P. 350.

Robinson: Op. Cit, P. 374.

إسرائيل[1].

فقحيا (٧٤١/ ٧٤٠ ــ ٧٣٠/ ٧٢٩ ق.م):

خلف مناحم ابنه فقحيا الذي حكم إسرائيل لمدة عامين (٢ ملك ١٥ ٢٣) وسلك طريق يربعام بن نباط المليء بالخطايا، وبعد ذلك قام «فقح بن رمليا» بالقضاء على مؤامرة حيكت ضده بمساعدة الجناح المضاد لآشور، وكان من نتيجتها أن قُتل الملك في السامرة وتولى فقح بن رمليا المُلك بدلاً منه، إلاّ أن العهد القديم أشار إلى أنه قد حكم عشرين عاماً (٢ ملك ١٥ :٢٧) وهو تقدير مبالغ فيه[2].

فقح بن رمليا (٧٣٠/ ٧٢٩ ــ ٧٢٢/ ٧٢١ ق.م):

كان فقح دون شك على علاقة غير ودية مع آشور، لذلك اختار سياسة التقارب مع مصر، ولتقوية موقفه ضد آشور فقد قام بإحياء معاهدة التحالف القديم مع دمشق والتي كان على عرشها رصين، وقد وافق الجناح المعادي لآشور بقيادة فقح على خطة دمشق، ومن المحتمل أن هذه الخطة كانت قد فرضت على مناحم من قبل نتيجة تهديدات رصين. وهكذا بُعث من جديد الاتحاد القديم للدويلات الآرامية ضد آشور تحت قيادة دمشق[3].

وكان تاريخ يهوذا مثل تاريخ إسرائيل يتحكم فيه التنافس بين مصر وأرض الرافدين، فبعد فترة طويلة من حكم «يوثام» ملك يهوذا (٧٤١/ ٤٠ ــ٧٣٤ (/٣٣ ق.م) تعرض للتهديد من جانب رصين لإرغامه على

---

(١) هوشع (٧:١١، ٨:٩، ١٢:١، ١٤:٣).
يوحانان أهاروني: المرجع السابق، (ص ٢٠٢)،
أوتسار يسرائيل: (ج ١٠ ــ ص ١٨٧).

(٢) E. W. Heaton: Op. Cit, P. 101.

(٣) Ricciotti: Vol. I, P. 351.

دخول الحلف ليدعم القوى المتحالفة. وحيث إن يهوذا كانت نقطة الاتصال المباشر مع مصر، فإن تأييد مصر لهذه القوى أصبح أمراً هاماً، لأنها كانت دائماً على خلاف مع آشور، ولذلك توقعوا أن تُقدم لهم المساعدة، ولكن يوثام ملك يهوذا اعتقد أن آشور لا تشكل خطراً عليه ومن ثَمَّ فقد رفض دخول الحلف، وفُسِّر رفضه على أنه تهديد لدول الحلف. وبناء على ذلك اتخذ كل من فقح ورصين موقفاً عدائياً منه، وشرعا في التخطيط لمهاجمة يهوذا واقتسامها[1].

وبعد وفاة يوثام خَلَفه ابنه «آحاز» ملكاً على يهوذا (٧٣٤/٣٣ ـ ٧١٥/١٤ ق.م) وكان موقفه صعباً، فعند اختراق قوات الحلف ليهوذا من الشمال ثار أعداء آخرون ضد يهوذا من الجنوب، وهم الأدوميون في الوقت الذي فقدت فيه يهوذا كل ممتلكاتها شرق الأردن. كما استيقظ الفلسطينيون من المغرب وقاموا بغزو القطاع الشمالي الغربي ليهوذا ودمروا المنطقة حتى وادي عجلون، وبالإضافة إلى ذلك فقد قاموا بغزو المدن الواقعة في سهل فلسطين (شفالا) واستولوا على مدن بيت شمش وجديرة (Gederoti) وتمنه (Timnah) وسوكه (Sochoh) وجيمزو (Gimzo)[2]. ونتيجة لكل هذه الضغوط هزم آحاز في معاركه واضطر إلى تحصين نفسه داخل أورشليم (القدس) حتى يتمكن هناك من مقاومة هجوم المحاصرين له، ومن المحتمل أنه قدّم قرباناً بشرياً طبقاً للطقوس الكنعانية القديمة كما فعل ميشع ملك مؤاب من قبل. كل ذلك لم يثر خوف القوات المهاجمة التي أحكمت الحصار على آحاز في أورشليم (القدس) [٢ ملك ١٦: ٥]، ومن ثَمَّ فقد أرسل آحاز في طلب المساعدة من تغلات فالصر الثالث ودَعَم طلبه بإرسال كنوز المعبد

---

(١) ٢ ملك (١٥: ٣٧)، إشعيا (٧: ٥ ـ ٦).

E. W. Heaton: Op. Cit, P. 102.

(٢) ٢ أخ (٢٨: ١٨).

راجع:

Safria & stern: Op. Cit, P. 134.

وخزائن القصر الملكي إليه[1] وكان النبي إشعيا من بين المحاصرين داخل المدينة وقد طلب من الملك الالتجاء إلى الرب بدلاً من الالتجاء إلى آشور [إشعيا ٧ : ٣ ــ ٥].

وطبقاً للمصادر الآشورية فإن تغلات فالصر قد بدأ حملته عام ٧٣٤ ق.م واستمرت حتى عام ٧٣٢ ق.م، ويبدو أنها قد أُديرت باستراتيجية بارعة بهدف إخضاع آرام وإسرائيل، ولما كان السوريون مستعدين تماماً لصد الهجوم من الشمال فقط خطط تغلات فالصر لأن يبدأ هجومه من الجنوب، وعلى هذا فقد تاخم أراض الاتحاد ونزل على ساحل البحر الأبيض وغزا المدن الفينيقية وعيَّن ضباطه عليهم، كما هاجم غزة لكي يضغط على الفلسطينيين، فهرب إلى مصر ملكها «هنون» الذي كان المحرِّض الرئيسي للغزو الفلسطيني على يهوذا، وبذلك استراح آحاز من أورشليم (القدس).

وبعد أن قطع تغلات فالصر مواصلات الحلف مع الجنوب عاد الملك الآشوري ليتعامل مع الفريقين الأساسيين في الحلف (آرام وإسرائيل)، اللذين اضطرا للتخلِّي عن حصار أورشليم (القدس) عندما شَعُرَا باقترابه. وعلى أثر ذلك غزا الملك الآشوري آرام من الجنوب والغرب في عام ٧٣٣ ق.م، وأكمل حصاره لدمشق حتى تم سقوطها عام ٧٣٢ ق.م، وطبقاً لما أورده سفر الملوك الثاني (١٦ : ٩) فلقد قتل رصين وخُرِّبت أراضيه ودمرت مئات القرى والمدن وسويت الأرض[2].

---

(١) Robinson: Op. Cit, P. 375.

(٢) حزقيال كوفمان: تولدوت هائمونا هيسرائيليت ميمى قدم بمدسوف بيت هشيني. (تاريخ العقيدة اليهودية في العصور القديمة وحتى نهاية البيت الثاني) القدس ١٩٦٨م، ج ٣، ص ١٤٧.

راجع أهاروني: المرجع، (صفحات ٣٠٣ ــ ٣٠٤).

R. A. Macalister: The philistimes, their History and Civilization, 1914, PP. 63-64.

وبعد سقوط دمشق قامت على الفور قوات آشور بغزو مملكة إسرائيل ولم تواجه بأية مقاومة جادة، وفقدت إسرائيل كل أراضي الجليل وشرق الأردن، كم تم سبي قبائل نفتالي وسكان المدن شرق الأردن إلى آشور، وتبقَّى من مملكة إسرائيل المنطقة الجبلية حول السامرة فقط[1].

ومن المهم أن نشير إلى مسلة آشورية نقش عليها شرح كامل لحملة تغلات فالصر الثالث على بلاد آرام وإسرائيل، وجاء في حولياته عن هذه الحملة ما نصه: «قمت بضم جميع مدن بيت عمري في حملاتي السابقة، ولم أترك سوى مدينة السامرة... أخذت نفتالي بأسرها وضممتها إلى آشور، وعهدت إلى رجالي بأن يكونوا حكاماً عليها، وجميع سكان أرض عمري وممتلكاتهم حملت إلى آشور»[2].

ومن هذا يتبين لنا أن تغلات فالصر قد بالغ في عمليات السبـي إلى آشور، ولعلنا نتذكر في هذا المقام ما تنبأ به النبـي إشعيا عن يوم تنزل فيه الكوارث ويحل انتقام الرب على إسرائيل وتهلك عن طريق عدو لا يقهر[3] (إشعيا ٩ :١٣ ــ ١٤، ١٨ ــ ٢٠).

هوشع بن إيلاه:

لم تكن الثورة الداخلية في إسرائيل في حاجة إلى وقت طويل لكي ترفع رأسها وسط هذا الدمار، فقد كان الملك فقح مجرد شَبَح وبقي كشاهد على

(١) ٢ ملك (١٥ :٢٩)، أخ (٥ :٢٦).

K. Kenynon: Digging up. Jerusalem, 1974, P. 149.

كوفمان: المرجع السابق، (ص ١٤٧).

(٢) د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ (صفحات ٣٠٥ ــ ٣٠٦).

(٣) راجع: Olmstead: Op. Cit, P. 197.

الكارثة، وبطبيعة الحال فقد تآمر عليه هوشع بن إيلاه وقتله واستولى على العرش، ومن المحتمل أن يكون تغلات فالصر نفسه هو المحرِّض على المؤامرة ضد فقح، إذ قد أشير إليها في الإصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثاني، ويبدو أنه استخدم هوشع لكي ينفذ خطته وحظي القاتل بالعرش، ولكنه أصبح ملكاً تابعاً لآشور. وطبقاً لحوليات تغلات فالصر فقد كان على هوشع أن يدفع للملك الآشوري جزية تقدر بعشر وزنات من الذهب وكميات غير محدودة من الفضة[1].

لقد كان هوشع في سنوات حكمه الأولى (٧٣٠/ ٧٢٩ ـ ٧٢٢/ ٧٢١ ق.م) خاضعاً لآشور يدفع الجزية في موعدها، أما الجناح المضاد لآشور فإنه لم ينته بموت فقح، وإنما أثارت نيران الثورة ضد آشور ـ التي بدأت تشتعل في كل أنحاء سوريا ـ آمال الجناح المضاد لها في السامرة، وكسبت تأييد الملك على أمل النصر الحاسم[2].

وعندما خَلَف سلما نصر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق.م) تغلات فالصّر الثالث على عرش آشور، بدأت سوريا في التحرك، وانتهز هوشع هذه الفرصة ورفض دفع الجزية لآشور، وبدأ يعمل على الاتصال بمصر (٢ ملك ١٧ : ٤). ويشير كوفمان إلى أن هوشع قد رفض دفع الجزية لثقته في مساعدة «سوا»(Sau) ملك مصر، وأراد سلما نصّر أن يثبت أنه في نشاط سَلَفه وفاعليته، فقام في عام ٧٢٤ ق.م بتوجيه حصاره للسامرة[3]. ولكن رشيوتي يرى أن سلما نصر كان بالقرب من صور (٧٢٥ ق.م) عندما رفض هوشع دفع الجزية السنوية لآشور وقد دبّر خدعة حربية في اتجاه هوشع لتهديده؛ ونتيجة لذلك دفع هوشع الجزية مرة ثانية (٢ ملك

(١) كوفمان (ج ٣) المرجع السابق (صفحات ١٠٨ ـ ١٠٩، ١٤٧).
راجع أهاروني المرجع السابق (ص ٣٠٤).
(٢) Ricciotti: Vol. 1, P. 323.
(٣) كوفمان: المرجع السابق (ص ١٤٧).

١٧ : ٣)، وقد تغاضى سلما نصر عن هذه المسألة مؤقتاً وذلك لرغبته في تركيز جهوده ضد صور[١] . وكان ملك آشور على علم بما كان يجري بين هوشع ومصر في الخفاء، ومن المؤكد أنه بعد اكتشاف موقف هوشع الحقيقي، قرَّر سلما نصر أن يحدِّد موقفه من تابعه المتمرد، فقبض عليه وأودعه السجن عام ٧٢٤ ق.م (٢ ملك ١٧ : ٥)، وإن كان البعض يرى أن هوشع قد أُسر أثناء حصار السامرة[٢] .



---

(١) Ricciotti: Vol. I, P. 353.

(٢) شموئيل يابين: تاريخ إسرائيل (ص ٢٤٩).

Hermann: Op. Cit, P. 250.

الفصل الثالث

التغريب الآشوري والسبي البابلي

* سقوط السامرة.
* مملكة يهوذا منذ سقوط السامرة وحتى تدمير بختنصر للقدس.
* يوشياهو والحركة الإصلاحية.
* سقوط القدس والسبي البابلي.
* أوضاع يهود السبي البابلي وأسطورة العودة.
* العصر الفارسي.
* الشقاق بين الطوائف اليهودية عند إعادة بناء المعبد.
* الديانة اليهودية وصراعها مع الوثنية حتى عصر الإسكندر.
* تأثير الديانة الكنعانية على الديانة اليهودية.
* إرميا وسفره في التراث الديني اليهودي.

سقوط السامرة (٧٢١ ق.م)

لم يفقد حزب السامرة المعادي لآشور شجاعته فوجّه آماله إلى مقاومة صور ومساعدة مصر، كما أنهم وضعوا خطة دفاعية لتأمين السامرة التي بدأ حصارها بالقوات الآشورية. وقد قاومت صور الحصار بمفردها فلم تقدِّم مصر المساعدة للحلفاء كما كان متوقعاً. وعلى الرغم من ذلك فإن حصار كل من السامرة وصور قد استمر لعدة سنوات. وفي شهر فبراير عام ٧٢٢ ق.م توفي سلما نصر الخامس في ظروف غامضة وخلفه سرجون الثاني (٧٢٢ ــ ٧٠٥ ق.م) على عرش آشور، وفي السنة الأولى من حكمه ــ بعد حصار دام ثلاث سنوات ــ سقطت السامرة[١] بعد وفاة سلما نصر بوقت قصير، بينما ينسب سرجون لنفسه الفضل في هذا النصر ويسجِّلُه في حولياته، إلاّ أن السرد التاريخي في العهد القديم يعزو النصر الحقيقي إلى سلما نصر الخامس (٢ ملك ١٨:٩ ــ ١٠). ويرى معظم المؤرخين أن السامرة قد سقطت على يد سرجون الثاني في عام ٧٢٢ ق.م أو أوائل عام ٧٢١[٢] ق.م، في حين أن البعض الآخر يرى أن سلما نصر الخامس هو الذي أسقط السامرة وسبى جانباً من شعبها.

---

(١) إسحاق بن صبي: كتاب السامريين، (ص ٣).

M. Jastrow: The Civilisation of Babylonia and Assyria (1975) PP. 175-176.

(٢) K. Kenyon: Op. Cit, P. 149.

راجع: E. W. Heaton: Op. Cit, P. 106.

أهاروني: المرجع السابق، (صفحات ٣٠٥ ــ ٣٠٧).

ومن المهم الإشارة هناأنه على الرغم من أن رواية العهد القديم عن سقوط ×السامرة جاءت غير وافية، إلاّ أن هذا لا يقلل من أهمية هذا الحديث إذا ما قورن بروايته عن سقوط أورشليم[1].

وعلى هذا النحو فقصة سقوط السامرة لا تتقيد بخط مستقيم من تسلسل الأحداث، ولكننا من خلال محاولتنا لدراسة حصار السامرة، وسقوطها، تبين لنا أن سلما نصر الخامس قد حاصرها حوالي ثلاث سنوات إلى أن تولّى سرجون الثاني الحكم عام ٧٢٢ ق.م، وخلال هذا العام نفسه سقطت المدينة وتبع ذلك سقوط المملكة الشمالية تماماً في أوائل عام ٧٢١ ق.م. وكان في التدمير الأشوري لها تهديد مباشر لأرشليم، حيث كانت تقع على مسافة حوالي عشرين ميلاً فقط من الحدود الجنوبية لمملكة إسرائيل.

وقد اتبع الآشوريون نفس أسلوبهم الوحشي القديم، فأحدثوا الدمار في الإقليم كله، ونسفوا المباني، وسلخوا الضحايا، ونقلوا أعداداً كبيرة من المهنيين إلى مناطق بعيدة في حلج وخابور وفي مدن مادي «ميديا»[2].

وتمدنا المتون الأشورية بمعلومات حول السبي الأشوري لبعض سكان مملكة إسرائيل، والذي جاء في حوليات الملك سرجون الثاني خلال السنة الأولى من حكمه ما نصه: «في بداية حكم الملك أنا... بلد السامريين حاصرتها وفتحتها (يلي ذلك سطران أصابهما التهشيم) لأجل الإله... الذي جعلني أحرز النصر... وقد نفيت ٢٧,٢٩٠ شخصاً من سكانها وجهزت من بينهم جنوداً ليقودوا خمسين عربة لأجل حرسي الملكي... وقد أعدت بناء المدينة بأحسن مما كانت عليه من قبل، وأسكنت فيها أناساً من مماليك فتحتها (أنا)، ونصّبت ضابطاً من ضباطي

---

(١) Ricciotti: Vol. 1, P. 354.

(٢) Montgomery Op. Cit, P. 47.

Inerpreter's Dictionary of the Bible: Vol. 4, P. 184.

حاكماً عليهم، وفرضت عليهم ضرائب كما (هي العادة) للمواطنين الأشوريين»[١].

كما جاء في نقش آخر لسرجون استعرض فيه انتصاراته الأخرى على كل من ملكي مصر وغزة بجانب فتحه السامرة ما نصه: «لقد حاصرت السامرة وفتحتها ونفيت ٢٧,٢٩٠ نسمة من سكانها، وقد ألّفت من بينهم فرقة لخمسين عربة، وجعلت السكان الباقين يأخذون أماكنهم (الاجتماعية)، وقد نصّبت عليهم ضابطاً من ضباطي وفرضت عليهم ضرائب الملك السابق، أما «هانو» (Hanunu) ملك غزة، وكذلك «سبي» (Sibe) [شَبْبا] قائد جيش مصر وحاكمها، فقد وصلا من رفح عليّ، فقابلتهما في موقعة فاصلة وقهرتهما، وقد فرّ سبى (شبكا) خائفاً بمجرد أن سمع ضوضاء جيشي الزاحف، ولم يعد ثانية، أما «هانو» فقبضت عليه شخصياً، وتسلمت الجزية من فرعون مصر، وكذلك تسلمت من «سمسي» ملكة العرب ومن «إتامار» السبىء ذهباً وخيلاً وجمالاً»[٢].

وفي أعقاب هزيمة المملكة الشمالية ونفي بعض القبائل اليهودية إلى آشور، قام سرجون بنقل بعض القبائل العربية: ثمود وأباديدي ومارسيمانو وهيابا ــ التي كان قد هزمها سرجون ــ إلى شمال فلسطين، بالإضافة إلى ذلك أتى ملك آشور بعناصر شتى من بابل وكوت وحماه وعوا وأسكنهم مدن السامرة[٣].

---

(١) سليم حسن: مصر القديمة، (ج ١١، ص ٤٨٦) نقلاً عن Pritchard, Ancient Near Easterm Texts, P. 284.

راجع: D. D. Luckenbill: Op. Cit, P. 50.

(٢) Luckenbill: Vol. 11. Op. Cit, P. 26-27.

راجع سليم حسن: المرجع السابق، (ص ٤٨٧).

إبراهيم قورمان: التيارات والطوائف اليهودية، (ص ١٨٠).

(٣) Lunckenbill: Vol. 11, Op. Cit, P. 7.

Ricciotti: Vol. 1. P. 335-356.

إسحاق بن صبى: المرجع السابق (ص ٥).

وكان من الطبيعي وسط هذا الخليط من الأمم الأخرى أن يمارس المستوطنون الجدد عقائدهم، وأن يقيموا آلهتهم كل حسب إله المنطقة التي نقل منها، وكان هذا وفقاً للعقلية الشرقية القديمة، وفي البداية خالفوا يهوه ولم يعبدوه لأن الغرباء لم يعرفوا الديانة الخاصة بالإله الوطني، ولذلك أرسل يهوه أسوداً بينهم قتلت بعضهم، ولذلك طلب المستوطنون مساعدة ملك آشور الذي استجاب لمطالبهم وأرسل إلى السامرة بعض الكهنة المنفيين في آشور لكي يعلّموا المستوطنين الجدد ديانة إله المنطقة «يهوه»، واستقروا في بيت إيل حيث قاموا بتعليمهم ديانة يهوه، ومن ناحية أخرى فقد عبدوا يهوه بالإضافة إلى آلهتهم[1] (٢ ملك ١٧ : ٣٠ ـ ٣١).

وطبقاً لما جاء في حوليات سرجون الثاني وما ورد في العهد القديم، فإنه قد عمل على تهجير ٢٧,٢٩٠ من أهل السامرة إلى مناطق بعيدة مثل حران وضفاف الخابور وأطراف ماري، وعمل كما أسلفنا على إسكان قوم آخرين مكانهم بعد أن أمر بإعادة السامرة إلى أفضل مما كانت عليه، وعيّن عليها حاكماً جديداً يؤدي الجزية. وقال سرجون عن أهل أشدود: «اعتبرتهم رعايا آشوريين وحملوا نيري». وإذا رجعنا إلى ما جاء في سفر هوشع (٣ : ٤)، نجد من المحتمل أن معظم الكهنة كانوا من بين المسبيين لأنهم كانوا العصب الرئيسي لمملكة إسرائيل، بينما استمرت بقية الشعب في أماكنهم حيث وصفهم هوشع بأنهم بدون ملك أو أمير وبدون مذبح وتضحية[2].

---

(١) Montgomery: Op. Cit, P. 48-49.

Robinson: Op. Cit, P. 383.

(٢) Gaster: The Samaritans, P. 16.

إسحاق بن صبـي : المرجع السابق، (ص ٤).

د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ــ مصر والعراق، (ص ٥١٨).

وقد سبق أن استدللنا على أن نبوءة إشعيا قد تحققت بانتقام الرب من مملكة إسرائيل وهلاكها عن طريق عدو لا يُقهر (إشعيا ٩ : ١٣)، وكأنه كان يعني بذلك الغزو الأشوري الذي انتهى بتدمير السامرة عام ٧٢٢ ق.م. ومن المهم أن نشير هنا إلى أنه قبل هذه النكبة وبعدها أسرع كل من النبيين إشعيا وميخا لتحذير مملكة يهوذا من عواقب اتخاذ طريق الخطايا الذي سلكته مملكة إسرائيل(١).

وقد نزح إلى مصر كثير من اليهود غير مبالين بتحذير النبي آرميا وإنذاره لهم بعدم الهجرة إليها. (سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢١ ـ ٢٥، إرميا ٤٢ : ١٥ ـ ١٧، ٢٣ : ٢ ـ ٧).

ويثير اهتمامنا ما تطالعنا به الوثائق الأشورية بأن سرجون ذكر في حولياته كما أسلفنا أنه أعاد بناء مدينة السامرة، ويتباهى بأنها أصبحت أجمل من ذي قبل، وجعلها عاصمته الإدارية(٢). وإذا سلمنا جدلاً بصدق دعواه في إعادة بناء المدينة، فإنه لا يوجد لدينا دليل سوى الوثائق الأشورية وهي لم تذكر لنا المدة التي استغرقتها عملية البناء، كما تبين لنا النقوش الآشورية عن هذه الفترة أن مصر كانت تساعد بحق مدن فلسطين وسوريا على التخلص من الاحتلال الأشوري، فنجد أنها تحالفت مع غزة في حربها ضد آشور، ولكن الهزيمة كانت من نصيب جيشي مصر وغزة عند رفح(٣).

وعلى هذا النحو ينتهي تاريخ مملكة إسرائيل بسقوط عاصمتها السامرة على يد سرجون الثاني عام ٧٢٢ ق.م لتصبح مملكة يهوذا معرَّضة للهجوم الآشوري.



---

(١) إشعيا (٨ : ٤، ١٠ : ٩ ـ ١١)، ميخا (١ : ١ ـ ٧).
راجع كوفمان: (ج ٣)، المرجع السابق، (ص ٦٧).

(٢) E. W. Heaton: Op. Cit, P. 107.

(٣) سليم حسن: مصر القديم، (ج ١١، ص ٤٩٢).

مملكة يهوذا منذ سقوط السامرة
وحتى تدمير بختنصر للقدس (أورشليم)

بعد سقوط السامرة اعتبر ملوك يهوذا أنفسهم خلفاء لملوك إسرائيل، وحاولوا أن تمتد حمايتهم وتأثيرهم على سكان إسرائيل الذين بقوا بعد التغريب الأشوري للقبائل الشمالية، وفي نفس الوقت سعى ملوك يهوذا إلى امتداد سيطرتهم شمالاً على المناطق التي كانت خاضعة لمملكة إسرائيل[1].

وبعد وفاة آحاز ملك يهوذا (٧٣٤/٧٣٣ ؛؛ ٧١٥/ ٧١٤ ق.م) خَلَفه ابنه حزقياهو (حزقيا ٧١٥/ ٧١٤ ـ ٦٩٧/٦٩٦ ق.م) الذي سار على نهج والده في سياسته المهادنة لآشور، ومن ثَمَّ فقد استمر في دفع الجزية لها.

وبعد موت سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥) ق.م) الملك الأشوري خَلَفه عدد من الملوك العظام، كان أولهم ابنه سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م). وكان تاريخ يهوذا يتحكم فيه التنافس بين مصر وآشور، فلما تقرّب ملك يهوذا من مصر غضب سنحاريب وصمم على مهاجمة يهوذا والقضاء عليها، وهنا استنجد حزقياهو بملك مصر، ولكن النبـي إشعيا انتقده لعدم اعتماده على الرب. (إشعيا ٣١:١).

وكان حزقيا قد أعاد ترميم معبد أورشليم وتطهيره من الأصنام الوثنية، التي كان آحاز والده قد سمح بوجودها بالإضافة إلى إقامته مذبحاً على الطراز الأشوري، كما قام حزقيا بتحصين أسوار المدينة وشق نفقاً أسفلها انسابت من

(١) Safria & Stern: Op. Cit, P. 139.

خلاله مياه حيجون إلى داخلها حتى يستكمل استحكامات المدينة ويطمئن إلى إمدادها بالمياه نظراً لتوقعه هجوماً أشورياً. وهكذا حدث ما استشعره حزقيا، فقد بدأ سنحاريب يركز جهوده تجاه يهوذا لتقليم أظافر ملكها بعد إحكامه على الموقف في بابل في أعقاب وفاة والده سرجون الثاني.

ففي ربيع عام ٧٠١ ق.م تولى سنحاريب بنفسه قيادة جيشه، وتقدم بمحاذاة الشاطىء الفينيقي. ونحن هنا نستمد معلوماتنا عن حملة سنحاريب على مملكة يهوذا من مصدرين أساسين: أولهما، حوليات سنحاريب وهي منقوشة على جدران قصره في نينوى، بالإضافة إلى صورته في مقر القيادة الذي اتخذه في لاخيش (تل الدوير)، وفيها يظهر وَفْدٌ من مملكة يهوذا يقدم له الجزية، ويتضح من الحوليات أن سنحاريب قد استولى على صيدا دون محاولة لغزو مدينة صور نظراً لموقعها الحصين، كما خضعت له من مدن لساحل بيبلوس (جبيل) وأشدود وكذلك ممالك مؤاب وعمون وأدوم. في حين اتجهت القوات المصرية بناء على طلب حزقيا إلى عسقلان واستولت عليها، ثم واصلت السير شمالاً للاتصال بقوات حزقيا، إلاّ أنهم تقابلوا مع قوات سنحاريب الذي انتصر عليهم من موقعه «إيلتكة» واستولى على عقرون، وواصل احتلاله لبعض مدن يهوذا بعد تدميرها وسبى من أهلها عدداً كبيراً، ثم اتخذ من لاخيش (تل الدوير) مقراً لقيادته، ومن هذا المقر أرسل جيشه لحصار القدس (أورشليم)، وقام بتسليم المدن التي استولى عليها إلى ملوك أشدود وعقرون وغزة، وفرض زيادة في الجزية على حزقيا الذي ظهل سجيناً في عاصمته[١].

أما المصدر الثاني لحملة سنحاريب، فقد تضاربت رواية العهد القديم في

(١) Olmstead: Op. Cit, P. 305.

M. Jastrow: The Civilization of Babylonia and Assyria PP. 177-178.

Lunkenbill: VII, Op. Cit, P. 118-121.

Safria & Stern: Op. Cit, P. 142.

سرد أحداثه عن مهاجمته لمدن يهوذا واستيلائه عليها (٢ أخ ٣٢: ١)، حيث أعقب ذلك اعتذار حزقيا لسنحاريب الذي قام بتحديد قيمة الجزية فجعلها ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب (٢ ملك ١٨: ١٣ ــ ١٥)، ويتضح من رواية العهد القديم أن سنحاريب قد بعث من موقعه في لاخيش جيشاً كبيراً لحصار القدس (أورشليم)، ولكن ملاك الرب قتل مائة وخمسة وثمانين ألفاً من جيش آشور فكانوا في الصباح جثثاً هامدة، فقام سنحاريب بفك الحصار عن القدس (أورشليم) وعاد إلى نينوى[١] (٢ ملك ١٩: ٣٥ ــ ٣٦، إشعيا ٣٧: ٣٦ ــ ٣٧).

وهناك رواية أخرى لهيرودت تفيد أن الرب أرسل فئراناً إلى معسكر الأشوريين قطعت أقواسهم ولم يجدوا طريقاً سوى الهروب، ويرى البعض أنه ربما كان للفئران دورٌ في نشر وباء الطاعون بين قوات سنحاريب الذي قام بفك الحصار[٢].

وإذا دققنا النظر في روايتي العهد القديم ورواية هيرودت عن مقتل عدد كبير من جيش سنحاريب، فإننا نستطيع القول بأنه لا يوجد سبب واضح يجبر حزقيا على دفع الجزية وإرسال الهدايا إلى سنحاريب في نينوى حسب رواية سنحاريب نفسه.

وتتفق روايتا حوليات سنحاريب والعهد القديم من أن حزقيا طلب العون من مصر، وأن سنحاريب قد اتخذ من لاخيش مقراً لقيادته واستولى على المدن الحصينة في يهوذا، وأنه حاصر أورشليم وفرض الجزية على حزقيا. ويختلف المصدران في أن رواية العهد القديم أغفلت المعركة التي انتصر فيها جيش آشور

---

(١) راجع مأزنيم: (ج ٢)، داود روبنير: غزو سنحاريب ليهوذا (ص ٣٨٣).

(٢) د. نجيب ميخائيل: المرجع السابق (ص ٤٢٣).

د. مصطفى كمال عبد العليم: هيرودت يتحدث عن العرب وبلادهم، مجلة العصور، مجلد ٢، (ج١، ص ٢٦) وما يليها.

على جيش مصر[١]، برغم أنها تضمنت طلب المساعدة من مصر، وكذلك الأسرى والغنائم التي سباها سنحاريب بالإضافة إلى سرده استيلاء سنحاريب على بعض مدن يهوذا. في حين أن هذه الرواية أغفلت الإشارة إلى تسليم مدن يهوذا ــ التي استولى عليها سنحاريب كما أسلفنا ــ إلى ملوك أشدود وعقرون وغزة.

ومن الغريب أن حوليات سنحاريب تشير إلى أن دفاع حزقيا عن أورشليم كان يعتمد إلى حد كبير على المرتزقة من المقاتلين العرب[٢].

ومن المهم أن نشير هنا، أنه على الرغم من سقوط القدس (أورشليم)، إلاَّ أن الجيش الأشوري دمَّر ما حولها من مدن، وقد سُمح لملك حزقيا بالاحتفاظ بعرشه بعد زيادته للجزية واعترافه بالسيادة الأشورية بعد أن تأكد أن مصر أصبحت غير قادرة على مساعدته، وظل الأمر كذلك حتى انهيار الدولة الأشورية عام ٦١٢ ق.م وسقوط عاصمتها نينوى[٣]. إلاَّ أن داود روبنير يثير تساؤلاً هاماً وهو أن العهد القديم أغفل ذكر الأسباب التي جعلت سنحاريب يرسل جيشه لحصار حزقيا في أورشليم على الرغم من قبوله دفع الجزية المطلوبة[٤].



(١) د. مصطفى كمال عبد العليم: اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان (ص ٤)، هامش ٤.
راجع سفر إشعيا: (IX, 8, 22H) في الترجمة السبعينية (LXX).

(٢) A. R. Burn, Persis the Greeks 2nd, P 21.

(٣) كوفمان (ج ٣): المرجع السابق (ص ١٥٢).

(٤) مأذنيم (ج ٢): المرجع السابق (ص ٢٨٤).

يوشياهو والحركة الإصلاحية

وبعد وفاة حزقيا خَلَفه ابنه مِنَسَّا (٦٩٧/٦٩٦ ــ ٦٤٢/٦٤١ ق.م) الذي أغضب الرب باضطهاده الأنبياء والذي بلغ أقصى مداه، وبعد ذلك حاول التقرب إلى آشور بإدخال كثير من العبادات الوثنية (٢ ملك ٢١ :٣)[(١)]، غير أنه ما لبث أن حدث رد فعل ضد العبادات الوثنية في عهد يوشياهو (٦٤٠/٦٣٩ ــ ٦٠٩/٦٠٨ ق.م) الذي استغل الضعف الذي بدأ يدبُّ في دولة آشور في أواخر حكم آشور بانيبال، فأعلن استقلاله عن آشور وقام بتقوية جيشه ووسَّع مملكته على حساب جيرانه ولاسيما إقليم السامرة، كما قام بإصلاحه الديني الكبير في عام ٦٢٢ ق.م. الذي أزال به العبادات الوثنية الأشورية وغيرها من العبادات الأجنبية، فقد رفع المنصَّات التي في بيت إيل والتي توجد نظيراتها في مدن السامرة (٢ ملك ١٥ :١٩) وليست هناك إشارة إلى أن هذه المرتفعات قد اختلفت عن مثيلاتها في الجنوب. (٢ أخ ٣٤ :٣ ــ ٧)، وأحضر الكهنة القائمين على تلك المذابح الصغيرة لزيادة عدد القائمين على شؤون المعبد المقدس في أورشليم، وأعاد ديانة يهوه إلى مجدها القديم وحرص على تأكيد الوحدانية التي تقوم على طقوس دينية ثابتة، فأحرق كل ما ينافي الأخلاق وعقيدة التوحيد، ونثر رماده على قبور آبائه تعبيراً منه عن تحميل أولئك الملوك السابقين مسؤولية هذا الفساد كاملة، وأصبحت أورشليم

(١) Robinson: Vol. II, PP. 402-404.

في عهده مركزاً للعبادة الروحية لبني إسرائيل كلها، وكان في حاجة إلى هذه الجرأة للتقرب إلى القبائل الشمالية، التي كانت خاضعة للنفوذ الأشوري لمباشرة ما اتخذه من إجراءات لإزالة العبادات الوثنية الأشورية[1].

ويشير جاستر إلى أنه أثناء عمليات التطهير والإصلاح الديني التي قام بها يوشياهو تمت له مقابلة أسباط منسًا وإفرايم وشمعون ونفتالي في الشمال، كما فعل الملك حزقيا من قبل حينما دعا القبائل الشمالية في عام ٧٢٦ ق.م للاحتفال بعيد الفصح في أورشليم[2].

وفي سنة ٦٢١ ق.م أثناء ترميم معبد أورشليم عثر الكاهن الأعظم حلقيا على ما يبدو أنه سفر التثنية، إذ أن الكاهن الأعظم قد أعطاه للملك يوشياهو للاطلاع عليه، واكتشف من قراءته أن والده وأسلافه قد عَصَوا قوانين موسى التي جاءت في هذا الكتاب (سفر التثنية)، وعلى أثر ذلك قام بإحداث نهضة دينية شاملة طبّق خلالها المبادىء الموسوية، فقام بتحطيم عبادة بعل وعشتروت وعبادة النجوم على نحو ما كان يفعل أهل بابل، ولغَى طقوس الدعارة داخل الهيكل.

وقد اتسعت حدود مملكة يهوذا شمالاً في عهد يوشياهو حتى أصبحت «بيت إيل» هي حدودها الشمالية (٢ ملك ٢٣ : ٤)، أما حدودها الجنوبية فكانت تمتد من جبع (في جبال إفرايم) حتى بئر سبع (٢ ملك ٢٣ : ٣).

وفي رأي البعض أن هذا السفر كتب في وقت قريب من يوشياهو إذ أن الإصلاحات الدينية المذكورة فيه قد قبلها الملك فيما يبدو كبرنامج التزم به في إصلاحاته.

---

(١) Olmstead: Hitory of Assyria, PP.630-631.

أوتسار يسرائيل (ج ٥) مادة الكوتيين (ص ٢٦٩).

(٢) Moses Gaster: The samaritans, P 17.

وعندما سقطت نينوى عام ٦١٢ ق.م أمام الميديين بقيادة الملك «أوفاشترا» والكلدانيين بقيادة نبو فالصر، تم تقسيم آشور بينها، فأخذ الميديون المنطقة الممتدة من شمال العراق أعالي دجلة وحتى حدود آسيا الصغرى بما في ذلك الإقليم الأشوري القديم؛ أما بقية الإمبراطورية وهي ما تبقّى من العراق وسوريا وفلسطين فكانت من نصيب نبو فالصر وأسرته الكلدانية (البابلية الجديدة)[١].

وفي خريف ٦١٠ ق.م ظهر الحلفاء ثانية حول الفرات، حيث كان قد استقر مؤقتاً «آشور أبلات» (Asshur-Uballit) آخر سليل في مملكة آشور والكاهن الأعظم في حرّان، التي كانت آشور قد اتخذتها قاعدة لحكمها، على أمل أن تأتيه مساعدة من مصر التي كانت تحتفظ بجيش لها في سوريا. ونجح جيش مصري ومعه فلول الأشوريين في استعادة قرقميش على الفرات عام ٦٠٩ ق.م، ولكنهم فشلوا أمام حرّان ولم يدم نجاحهم طويلاً. وكان يوشياهو قد حاول وقف فرعون مصر نخاو الثاني (٦٠٩ ــ ٥٩٣ ق.م). من «مجدو» عندما خرج الملك المصري لمساعدة آشور كما أسلفنا، ولكن فرعون مصر عصف بيوشياهو عام ٦٠٩ ق.م في مجدو وقتله[٢] (٢ ملك ٢٣: ٢٩)، (٢ أخ ٣٥: ٢٠).

بعد موقعة مجدو التي كلفت يوشياهو حياته، مضى نخاو في زحفه شمالاً ولكن عجز عن تنصيب «آشور أبلات» على حران، مركز الحكم الأشوري واستمرت المعركة من أجل هذه المدينة عدة أشهر من يونيو إلى سبتمبر ٦٠٩ ق.م

---

(١) Safria & Stern: Op. Cit, P. 151.

راجع د. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم (ص ٥٠).

(٢) A. L. Oppenheimin Pritohard, Amceint Mear Esterm Texts, PP. 303-305.

راجع أهاروني: المرجع السابق (ص ٢٦٩).

سپينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة من الترجمة العربية للدكتور حسن حفني (ص ١٥٣).

طبقاً للحوليات البابلية، وعبر الفرات جيش مصري قوي مع آشور أبلات لغزو حران. وبعد معارك شرسة انتصر البابليون ولم يعرف مصير آشور أبلات.

وخلف يوشياهو ـ أشهرُ قادة التطهير الديني في يهوذا ـ ابنَه يهو آحاز الذي عزله نخاو بعد ثلاثة أشهر من تولية الحكم وأرسله إلى مصر حيث مات فيها. وعيّن أخاه إلياقيم الذي كان نخاو قد غيّر اسمه إلى يهوياقيم وقام بدفع الجزية إلى مصر (٢ ملك ٢٣ : ٣٤). واتهمه إرميا بأنه أغضب الرب لسماحه بقيام عبادة عشتار البابلية من أورشليم (٢ إرميا ٢٢ : ٩، ١٣ ــ ١٩)، كما ندَّد به حزقيال عندما أشار إلى أن كثيراً من العبادات الوثنية قد عادت إلى الظهور كرد فعل لإصلاحات يوشياهو بعد وفاته[1] (حزقيال ٨ : ١٣ ــ ١٦).



---

(١) E. W. Heaton: Op. Cit, P. 125.

سقوط القدس والسبى البابلي

وبعد أن تولى نبوخذنصّر[1] (بختنصر ٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) الحكم عقب وفاة والده نبو فالصّر، أراد أن يوطد مركزه في فلسطين، فهزم نخاو الثاني فرعون مصر في موقعة قرقميش عام ٦٠٤/ ٦٠٣ ق.م، وأخضع يهوياقيم لسيطرته، ولكن سرعان ما تمرد (يهوياقيم) عليه مما اضطر بختنصر إلى إرسال قوات مشتركة من الأدوميين والمؤابيين والعمونيين الخاضعين لسيطرة بابل، بالإضافة إلى حاميته في سوريا، وقبل وصولها توفي يهوياقيم وخلفه ابنه يهوياكين الذي استسلم للملك البابلي بعد ثلاثة أشهر من توليه الحكم وأُخِذ أسيراً إلى بابل (إرميا ٢٤: ١). وكان يهوياكين قد أعلن في مارس ٥٩٧ ق.م استسلام القدس (أورشليم) وأنقذها بذلك من الدمار[2].

---

(١) يعرف نبوخذنصر الثاني لأن الأول نبوخذنصّر الذي ينتمي إلى السلالة البابلية الرابعة، والذي استعاد استقلال بابل أيام حكم الأشوريين لها في القرن الثاني عشر ق.م (١١٢٤ ـ ١١٠٣ ق.م)، ونبوخذنصر الثاني دام حكمه ٤٣ سنة (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) وهو أشهر ملوك الدولة الكلدانية وقد خلف أباه نبوفالصر.

وكلمة نبوخذنصر أصلها أشوري مكونة من ثلاثة مقاطع معناها «الإله نبوه يحرس الحدود».

(٢) أورئيل رفغورط: تولدوت يسرائيل بتقوفت هبيت هشيني (تاريخ إسرائيل في فترة البيت الثاني) (ص ١٥).

أهاروني: المرجع السابق، (صفحات ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

وأعقب ذلك استيلاء نبوخذنصر على خزائن أورشليم وتدميره أواني الذهب التي صنعها سليمان للهيكل (٢ ملك ٢٤:١٣)، وسبيه معظم القادة والحرفيين وتركه عامة الشعب (إرميا ٣٩:٩ ــ ١٠). وهذا ما عرف بالسبي البابلي، وعقب أسر يهوياكين عيّن بختنصر متانيا عم يهوياكين ــ الذي غيّر اسمه إلى صدقيا (٥٩٧ ــ ٥٨٧ ق.م) ــ ملكاً علي يهوذا، واستمر خاضعاً لملك بابل ولكنه تمرّد وثار عليه بعد ذ لك عام ٥٩٤ ق.م. وبرغم تحالفه مع أدوم ومؤاب وعمون وصيدا فإنه لم يُقدّر لهذه الحركة النجاح. وتحرك إرميا منذراً بأن نير بابل سيظل على كاهل الشعب بأمر يهوه، وعارضه النبي حنانيا، ثم أعلن إرميا أن حنانيا نبي كاذب، ثم كتب إلى شيوخ السبي وبقية المسبيين في بابل بأن يستقروا على مدى جيلين (إرميا ٢٩:١ ــ ٩).

وعندما تولّى حكم مصر فرعون جديد هو «واح إيب رع» عاد الأمل إلى المسبيين في بابل، وطلب صدقيا من فرعون مصر الجديد أن يعطيه خيلاً ورجالاً كثيرين (حزقيال ١٧:١٥)، ولكن نبوخذنصر كشف تلك المؤامرة الجديدة التي اشتركت فيها عمون وأحكم ملك بابل حصار أورشليم التي ظل حصارها تسعة عشر شهراً (من يناير ٥٨٨ حتى يوليو ٥٨٧ ق.م)، وباقتراب جيوش مصر أرغم المحاصرون على رفع الحصار عن أورشليم (إرميا ٣٧:٥)، ولكن جيش بابل ما لبث أن ألحق الهزيمة بفرعون مصر، ثم واصل حصار المدينة بشدة وقسوة حتى إن اليهود في أورشليم عانوا من المجاعة وسادهم الذعر. (مراثي إرميا ١:١ ــ ٣).

واستطاع الجيش البابلي الذي كان يحاصر المدينة أن يتسلل إلى داخلها فزاد الموقف صعوبة، وعمد صدقيا إلى الهرب فقُبض عليه عند أريحا، وحمل إلى رِبْله على نهر العاصي وذُبح أبناؤه أمام عينيه، ثم سُملت عيناه بعد ذلك، ونجا إرميا وقد تحول إليه تيار الكراهية نتيجة لسياسته الانهزامية التي نادى بها كما أسلفنا. وبعد ذلك قام «نبوزادان» القائد البابلي بهدم أسوار القدس (أورشليم) وتخريب

المدينة تماماً وهدم هيكل سليمان وأحرقه (٢ ملك ٢٥:٨ ــ ١٠، ٢ أخ ٣٦:١٩)، ولحق الدمار أيضاً بمناطق أخرى في يهوذا منها «تل بيت مرسيم» وبيت شمش «وبيت زور»؛ إلاَّ أن مدينة صور قاومت الحصار ثلاث عشرة سنة أُرغمت بعدها على دفع الجزية لبابل.

وفي ظل هذا التمزق عيّن بختنصر «جداليا بن أحيقام» حاكماً من قبله على كل ما بقي من أهل يهوذا في القدس (أورشليم)، ثم جاء اغتيال جداليا على يد «إسماعيل بن نتنيا» من الأسرة المالكة وعشرة معه، وفي أعقاب ذلك هرع أعداد من اليهود هاربين إلى مصر في صحبة إرميا، وكرد فعل لقتل جداليا سبى بختنصر دفعة ثالثة من اليهود إلى بابل (عام ٥٨١ ق.م) قُدرت بحوالي ٧٤٥ فردا (إرميا ٥٢ : ٣٠).

ويبدو أنه كان لدى اليهود أمل في أن يسارع أبريس (هوفرع Hophra في العهد القديم) إلى نجدتهم، ومن المرجح أنه لم يفعل شيئاً سوى أنه فتح أبواب مصر لليهود الذين نجوا من السبى البابلي، وكانت تلك الموجة الجديدة من هجرات اليهود إلى مصر؛ ومصادرها سفر إرميا «الخطاب المنسوب إلى أرستياس» وكذلك وثائق الفنتين الآرامية. وجاء في إحدى الشقافات التي عثر عليها من لكش أن كنياهو (Konyahu) بن الناتان قد ذهب إلى مصر، ولكن النص لم يتحدث عن الغرض من إرساله، وربما كان ذلك طلباً للمساعدة من فرعونها ضد بابل أو طلباً للإمدادات[1].

وقد أثيرت بعض تفسيرات عن مهمة كنياهو، لعل أقربها إلى القبول أنه كان يتعين على صدقيا ورجال بلاطه الموالين لمصر أن يبعثوا بضابط عسكري كبير إلى مصر التماساً لمساعدتها ضد البابليين[2].

---

(١) د. مصطفى كمال عبد العليم: اليهود من مصر في عصر البطالمة والرومان، (ص ٤ ــ ٥).

(٢) W. Thomas, «The age of Jeremiah in the Recent Archaeological Discovery» P E Q, Jam-April, 1950, Pl 2.

أوضاع يهود السبي البابلي وأسطورة العودة

اختلفت المصادر حول تقدير تعداد أفراد السبي، فيذكر سفر الملوك الثاني (١٤:٢٤) أن عدد الذين تم سبيهم عشرة آلاف من الجبابرة والصناع والحرفيين، ثم يذكر مرة ثانية في الفقرة ١٧ من نفس الإصحاح أن عدد الذين تم سبيهم إلى بابل ثمانية آلاف. ولقد وقفنا طويلاً عند رواية أخرى جاءت في سفر إرميا (٢٨:٥٢ ـ ٣٠) جاء فيها ثلاث حالات من السبي: ففي السنة السابعة لبختنصر (٥٩٧ ق.م) كان عددهم ثلاث آلاف وثلاثة وعشرين فرداً (في عهد يهوياكين ملك يهوذا)، وفي السنة الثامنة عشر لبختنصر (٥٨٧ ق.م) كان عددهم ثمانمائة واثنين وثلاثين فرداً (في فترة صدقيا)، وفي السنة الثالثة والعشرين لبختنصر (٥٨١ ق.م) سبى نبورزادان القائد البابلي سبعمائة وخمسة وأربعين فرداً في أعقاب قتل جداليا، وبذلك أصبح إجمالي تعداد الذين تم سبيهم أربعة ألاف وستمائة نسمة.

وهكذا اختلفت روايات العهد القديم اختلافاً يتعذر حسمه حول تعداد يهود السبي، مما يثير في النفس ريبة، ولكن يبدو لنا أن الإحصاء الذي جاء في سفر الملوك أقرب إلى الحقيقة، فالذي قام بهذا الإحصاء اكتفي بإيراد عدد الكهنة واللاويين وأعضاء البيت المالك ورجال السياسة والقادة كرؤوس فقط، وكذلك جاء تفسير لودز لافتاً للنظر وهو أن ما جاء في هذه النصوص من قبيل الصور الشعرية والبلاغية المبالغ فيها.

وفي هذه المرحلة كثر التزاوج بين اليهود والعمونيين والمؤابيين مما أدّى إلى بعض مظاهر الانحطاط الديني. بالإضافة إلى ذلك كان قيام المعبودات البابلية في القدس (أورشليم) حافزاً على احتجاج النبي إرميا ــ أثناء إقامته بمصر ــ على عبادة عشتار «ملكة السماء» (إرميا ٤٤: ١٨ ــ ١٩). كما يشير حزقيال إلى عبادة تموز الذي كانت النساء تجلب عنده باكيات (حزقيال ٨: ٣، ١٤). وفي أثناء الحقبة نفسها كانت عبادة بعليم الكنعاني مقامة في السامرة، ولم يكن ذلك معناه التخلّي عن عبادة يَهْوه، وإنما كان هناك ربط عبادة يهوه وبقية المعبودات الأخرى، وقد استمرت عبادة يهوه في مكان الهيكل في أورشليم حتى بعد تدمير بختنصر للمدينة عام ٥٨٧ ق. م[١].

وجاء على لسان لودز تعليقاً على نقش من البرونز يصوِّر مشهداً للرحيل إلى بابل، أن الرجال ربطوا بعضهم إلى بعض في جماعات وذلك لمنعهم من الهرب، ولكنهم سمحوا للنساء والأطفال بالمسير دون أغلال، كما سمح لهم باصطحاب ماشيتهم وعربات لنقل احتياجاتهم حتى وصلوا إلى القرى المحددة لهم كمقر لإقامتهم ومعظمها إلى الجنوب من زينوى، ومن هذه القرى «تل أبيب» وكان معتقلهم الكبير في منطقة نهر الخابور ــ وقد اختار اليهود اسم تل أبيب ــ معناها تل الربيع ــ في فلسطين لتذكيرهم بالسبي البابلي ــ وتل حرشا وقزينيا وتل ملح (عزار ٢: ٥٩)، وقد آلت لهم ملكية الأراضي التي أعطيت لهم ليقوموا بزراعتها على نفقتهم الخاصة[٢]. وهذا يطابق ما ذكره إرميا في الرسالة التي كتبها لهم عقب

---

(١) إرميا (٤١: ٤ ــ ٥) ما نصه: «وكان في اليوم الثاني بعد قتله جداليا، ولم يعلم إنسان أن رجالاً أتوا من شكيم ومن شيلوه ومن السامرة، ثمانين رجلاً محلوقي اللحى وممزقي الثياب وبيدهم تقدمة ولبان ليدخلوهما إلى بيت الرب».

(٢) A. Lods: Prophets, P. 179.

«وتل ملح» ربما ذكرت فلح من وثائق موارشو بن نبور، «وقزيفيا» ربما هي قرب كروب =

السبي الأول عام ٥٩٧ ق.م حيث قال: «ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها» [إرميا ٢٩ :٥].

ويبدو أن الذين عاشوا في السبي كانوا يفتقرون إلى قائد حتى يستكملوا بنيانهم الاجتماعي، ومن المرجح أن يهوياكين ملك يهوذا الموجود في السبي قد استعاد حريته بعد حوالي ٣٧ عاماً من السبي، وذلك بعد أن أخرجه ملك بابل «قرُودخ» من السجن ونصَّبه أميراً على اليهود في السبي، وقد لقَّب ابنه شيشبّصر من بعده (عزرا ١ :٨).

ومن الواضح أن اليهود في السبي لم يعاملوا معاملة العبيد، وغاية الأمر أنه كانت لهم حرية منح أبنائهم وبناتهم حق المصاهرة وتجمعوا في عشائر وجماعات. وهذا التقسيم جاء طبقاً للقرى التي تم سبيهم منها، ثم تحسنت أحوالهم المالية في بابل، نتيجة لاشتغالهم بالتجارة هناك بعد أن كانوا يعملون بالزراعة في فلسطين، ولا شك أن الحرية النسبية التي مُنحوا إياها مهّدت الثراء لبعضهم حتى إنهم ساهموا في ترميم معبد أورشليم بعد العودة (عزرا ٢٢ :٦٣٩).

وهكذا يتضح من أساليب آشور وبابل في معالجة الأمم المهزومة عند سبيها أنها ذات شقين، أولهما حرمان الأمة المهزومة من قدراتها بنقل الرجال ذوي الكفاءات مرة واحدة وتغيير مفاهيمهم، ومن ناحية أخرى للاستفادة من ذوي الخبرات المبعدين لصالح إمبراطوريتهم، ولذلك يسّروا لهم سبل المعيشة، ممّا

= أدان إمير. والمنطقة التي بها هذه القرى تدعى «نهر الخابور» قرب نيبور والمسماه حديثاً «نفر»، وهي من أخصب أقاليم بابل.

وقرية «تل أبيب» هي في الأصل كانت قرية تسمى «تل أبوبي» غير أن ساكني المستعمرة من اليهود حرّفوها بالعبرية إلى تل أبيب.

وهناك نهر الخابور في شمال الفرات ونهر الخابور في شمال نهر دجلة ولذلك فالمقصود هنا غير هذين النهرين.

جعل يهود بابل يرسلون مساعدات مالية من أجل معبد أورشليم ولمساعدة بقايا اليهود في فلسطين (عزرا ٢:٦٨ ـ ٦٩)، نحميا ٧: ٧٠ ـ ٧١). كما استطاع اليهود في المنفى تكوين مجتمع خاص بهم، والحفاظ على شعائرهم الدينية. ومن هنا ظهرت حركة روحية عميقة تجددت على أثرها فكرة المسيح المخلِّص، وهي فكرة كانت قائمة بالفعل[١].

والتفت المنفيون في السبي إلى دينهم يلتمسون فيه العزاء، حيث قامت حركة فكرية روحية للحفاظ على التراث، وهذه الحركة الفكرية عبّرت عنها رؤى حزقيال نبي المنفى، نتيجة التقاء النبوة مع السلطة الكهنوتية بلا قيود أو مشاكل سياسية، ونتيجة لذلك تجدد أملهم في إعادة بناء معبد أورشليم لتقوم الحياة الدينية من جديد.

وفي زمن السبي أتيح للفكر الديني اليهودي أن يدرك أن يهوه هو الإله الواحد للعالم كله، وأدرك الذي عاشوا في المنفى أن ما حلَّ بهم من شقاء كان نتيجة مؤكدة لعدم اتباع شرائع يهوه واتباعهم لمعبودات أخرى، مما دفع الرب إلى الانتقام منهم، وأصبحوا يفكرون في الخلاص على يد يهوه، وكثر بينهم الأنبياء في هذا الوقت ومنهم النبيان حجاي وإشعيا الثاني اللذان وُلدا في السبي وترعرعا فيه ويبدو أن أقوال إشعيا الثاني التي يدعو فيها إلى الوحدانية النقية، والتي يُذكِّر فيها اليهود بأن الشقاء وسيلة للتطيهر أتاحها الرب، قد ضُمّت إلى نبوءات إشعيا.

ونظراً لصعوبة إقامة طقوس عبادتهم في المنفى وقد استبدلوا بهذه الطقوس القربان والصيام (عزرا ٧: ٢١) والصلاة (نحميا ١: ٤)، واضطروا إلى التغاضي عن أداء طقوس السبت، وكان التغافل عن أداء الطقوس الدينية لعبادة يهوه أمراً يدعو

---

(١) Lods: Prophets PP. 178-180.

راجع أورئيل رفڤورط: المرجع السابق (ص ١٦).

إلى الأسى (حزقيال ٢٠: ٢٠ ـ ٢١)، وفُسِّرت على أساسه مصائب اليهود وما حلّ بهم، ولذلك كانت دعوة حزقيال لتطهير الشعب وإعداده وتهيئته للعودة.

وقد حدث تطور في الشعورالديني، فكان حزقيال الكاهن النبي هو ممثل الربط بين النبوة وتقنين الكهنوت. ونتيجة مباشرة للسبي حوّل الكهنة اهتمامهم إلى دراسة الشريعة دراسة منظمة. ولما كان من المستحيل على يهود السبي ـ خلال فترة ما قبل قورش الملك الفارسي ـ العودة إلى المعبد في القدس (أورشليم)، فكان من الطبيعي محاولة إنشاء معبد يهودي على أرض بابل لتوحيد الروح الدينية. ومن هنا نشأت المدرسة الدينية اليهودية المعروفة باسم «بيت المدراش أو بيت الكنيست». كما أنه ليس من الواضح النمط الذي التزمه يهود بابل في تعبدهم للرب في الفترة [من عام ٥٨٧ ـ ٥٣٨ ق.م]، وليس هناك أي ذكر لمعبد يهودي في بابل ـ على عكس الحال بالنسبة ليهود الفنتين ـ ولا حتى أي إشارة إلى اتجاه نحو تشييده، بل ليس هناك دليل على تعبدهم بتقديم أضحيات.

ولقد كان هناك اتجاهان دينيان واضحان بين اليهود في السبي وأثناء الإعداد للعودة: اتجاه له طابع دنيوي، والآخر له طابع كهنوتي، فالاتجاه الأول قريب من قبول الأمر الواقع في المنفى، والثاني أكثر تعلقاً بالقومية، وقد تفاعلت اليهودية بين الاتجاهين(١).



(١) موسكاتي: الحضارات السامية، (ص ١٥٣ ـ ١٥٤).

H & M: Op. Cit, P. 485.

العصـر الفارسـي

ظهرت فارس كقوة كبرى بزعامة الملك قورش الثاني (٥٥٩ ــ ٥٣٠ ق.م) متحدية القوى الكبرى في الشرق القديم وعلى رأسها بابل، ففي عام ٥٣٩ ق.م حاصر قورش ــ وهو بالفارسية كوروش ــ بابل واستولى عليها، وكانت سياسته التي اتبعها في الشرق متطورة إلى حد كبير، فقد ظهر أمام رعاياه كمحرر لهم، واحترم تقاليدهم ووقّر آلهتهم، وجعل لقادتهم حقاً في إدارة مقاطعاتهم. وكذلك فعل مع بابل نفسها فلم يتعرض لها بحرق أو سلب.

وجادت هذه السياسة في البداية مفاجأة غير متوقعة ليهود السبـي، الذين توقعوا من قورش التنكيل بأهل بابل[١].

وانعكاساً لهذه السياسة الصريحة الواضحة أصدر قورش أوامره بعودة اليهود من السبـي إلى أورشليم ويهوذا، مع السماح لهم بإعادة بناء الهيكل، كما أمر بإعادة الآنية المقدسة التي سلبها بختنصر ووضعها في بيت آلهته[٢] في بابل، وذلك طبقاً لما أورده سفر عزرا «عزرا ١ : ٢ ــ ٤، ٧ ــ ٨».

وجاء على لسان يوسيفوس أن قورش كان علم بتنبوءات إشعيا، الذي تنبأ له

---

(١) أهاروني: المرجع السابق، ص ٣٣٠.

راجع: أورئيل رففورط: المرجع السابق، (ص ١٧).

(٢) Olmstead: Op. Cit, PP. 555-556.

بالنصر، وكانت رؤية إشعيا تشير إلى أن قورش هو الذي سيعيد اليهود إلى ما يدّعُونه بأرضهم، ويسمح لهم بإعادة بناء هيكل أورشليم[1] (إشعيا ٤٤: ٢٨، ٤٥: ١، ١٣).

والواقع أن سياسة قورش تجاه اليهود إنما جاءت تطبيقاً لسياسته العامة، فمن الوضاح أنه كان لصالحه أن يقيم سكاناً على الحدود الجنوبية لامبراطوريته المتاخمة لمصر[2].

وفي رأينا أن السبب في تسامح الفرس مع اليهود، إنما كان لأن الصلة كانت مقطوعة نهائياً بين اليهود وبين مجوسية الفرس سواء الزرادشتية أو المانوية[3]، فكلا الطرفين كان في طريق مخالف، فكهنة المجوس كانوا يرون أن اليهود لا يمثلون خطراً بالنسبة لهم، فالديانة اليهودية لبني إسرائيل فقط ــ وليست تبشيرية كالمسيحية ــ ولم يَسْعَ اليهود لكي يُهوِّدوا الفرس وهم العنصر الأقوى. ويبدو أن الملك الأكميني قورش قد أصدر مرسوماً بعودة كل الأجناس التي كانت في بابل بما فيهم الملك الأكميني قورش قد أصدر مرسوماً بعودة كل الأجناس التي كانت

---

(1) Josephus: Antiquites of the Jews, Vol. III.

(2) Lods. Prophets, P. 185.

(3) كانت المجوسية هي ديانة الملك قورش وهي الديانة الفارسية التي تتخذ لها إلهين، أحدهما يمثل النور والصدق والخير والآخر يمثل الظلام والباطل والشر، والأخير يشبه الشيطان إلى حد كبير، ويسمى الأول عندهم «أهورا مازدا» والثاني «أهيرمان»، وقد تطورت الديانة المجوسية على مراحل:

(أ) مرحلة «زرادُشت»، الذي يسمى أحياناً «زوروواستر» وأحياناً «زاتسترا».

(ب) مرحلة ماني، وفيها دخلت فلسفة أكثر تعقيداً وسلوك أكثر تقشفاً، وكانت المانوية منتشرة من قبل ظهور المسيح بقليل إلى ما بعد ظهور الإسلام.

(ج) مازدك، وتنسب إلى أفكار شيوعية أدخلها على المذهب، ويظهر أنه أقدم تاريخياً من ماني، وكان مذهبه عرضة لكثير من الاضطهادات.

في بابل بما فيهم اليهود ــ وكان الأشوريون والبابليون قد سَبَوْهُم إلى هناك ــ ، ولكن اليهود جسَّموا الأمر وقصروا الأمر على أنفسهم، ودليلنا على ذلك اختفاء المرسوم الملكي الذي كان مكتوباً باللغة الفارسية من خزائن «ميديا» في فارس كما كان يدعي اليهود.

وواقع الأمر أن المعلومات التي لدينا غير دقيقة حول تلك الأحداث، فإن ما ورد في سفر عزرا يثير حيرتنا، حيث أن نص مرسوم قورش مكرر فيه (عزرا ٥ : ١٣ ــ ١٥ ، ٦ : ٣ ــ ٥)، ويختلف النصَّان اختلافاً كبيراً في الصيغة والمضمون. ومن المرجح طبقاً لما اتفقت عليه أقوال بعض المؤرخين وتردد في بعض روايات التاريخ، أن نص المرسوم الملكي لقورش والذي ورد في عزرا (٥ : ١٣ ــ ١٥)، هو تلخيص محرّف للمرسوم الملكي الأصلي الذي جاء في عزرا (٦ : ٣ ــ ٥) والمحفوظ في ميديا[١]، حيث كانت تحفظ فيه الوثائق الرسمية المحررة باللغة الفارسية والمكتوبة بالخط الآرامي، وفيها ينص الملك قورش على أن عمليات البناء إنما غطيت من خزينة الملك[٢].

وأهم ما يعنينا في هذا المقام هو ما أورده لنا العهد القديم عن قائمة العائدين من السبي في سفري عزرا ونحميا مع زروبابل ويشوع، وهي تقدر بحوالي ٤٢,٣٦٠ رجلاً بخلاف عبيدهم وجواريهم، الذين قدر عددهم بحوالي ٧,٣٣٧ ومئتين من المغنين والمغنيات (عزرا ٢ : ٦٤) بزيادة خمسة وأربعين من المغنيين والمغنيات في نحميا (نحميا ٧ : ٦٦ ــ ٦٧)، ومن المحتمل أن يكون الأفراد الذين عادوا من السبي قد سكنوا حول أورشليم داخل دائرة نصف قطرها عشرون ميلاً

(١) ميديا هي إقليم في شمال العراق ضمّه قورش عند توحيده لفارس.

(٢) Jos: Ant. Vol. III, XI, 1.

ويذكر يوسيفوس أن الملك أصدر أمر الإنفاق من خارج الضرائب التي يتم جبايتها من إقليم السامرة.

في نفس الأماكن التي سبيت منها عائلاتهم، ولا ندري ما تم من إجراءات حيال السكان الذين كانوا يقيمون في هذه الأماكن[1].

ومن جهة أخرى فإن الدلائل المتعددة تجنح نحو الاعتقاد بأن القائمة موضع التساؤل كانت بصيغتها الأصلية إحصاءً شاملاً ليهود المقيمين في بابل إبان عصر نحميا أو بعده، ولكن كيف يمكن للمرء أن يصدق أن جالية من اليهود المسبيين في بابل، والتي بلغت عام ٥٨٧ ق.م حوالي ٤٦٠٠ من الذكور البالغين استطاعت أن تتزايد حتى بلغت هذا الحد الذي أسلفناه خلال فترة السبي. بحيث صار في مقدورها أن ترسل إلى أورشليم ويهوذا فوجاً من ٤٢,٣٦٠ رجلاً، ويُستثنى من هذا العدد النساء والأطفال بالإضافة إلى ٧,٣٣٧ من العبيد، إذ لو أضيفوا لبلغ التعداد الكلي حوالي ١٠٠,٠٠٠، ومن المرجع أن هذا العدد كان يمثل تعداد منطقة يهوذا بأسرها[2].



---

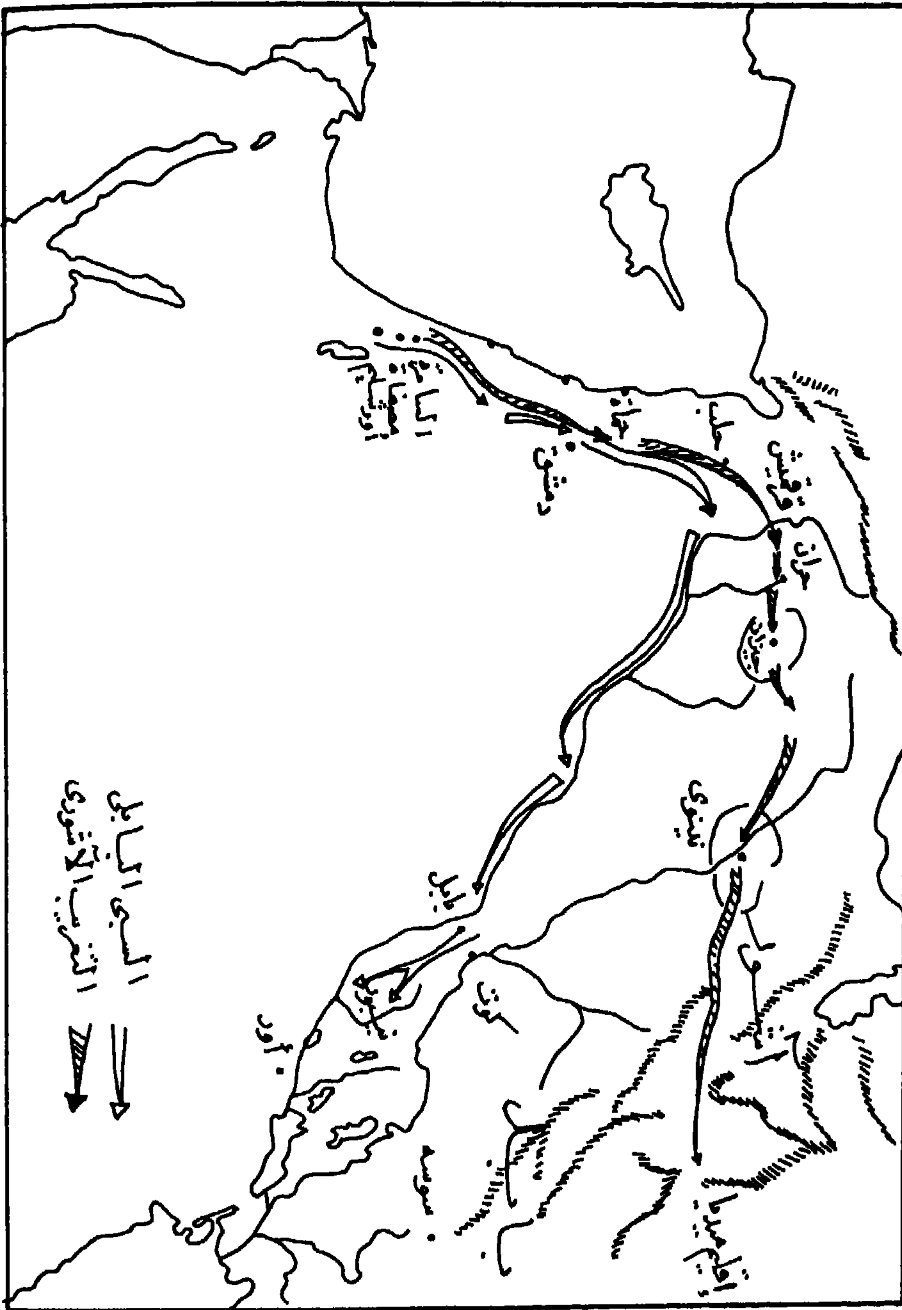
(١) Lod: Op. Cit, P. 191.

راجع: K. M. Kenyon: Op. Cit, P. 174.

ويذكر سبينوزا أنه إذا كان المجموع الكلي للعائدين يبلغ ٤٢,٣٦٠، فإنه بحساب المجاميع الجزئية التي ذكرت تفصيلاً نجد أن مجموعها في عزرا ٢٩,٨١٨ فقط وفي نحميا ٣١,٠٨٩، وبرغم اختلاف المجاميع الجزئية في كل من عزرا ونحميا عن المجموع الكلي، إلاّ أنه يبدو واضحاً أن المجموع الكلي هو الصحيح لأن الجميع حفظه كما هو ثابت في كلا السفرين، ومن الملاحظ أن هناك أخطاء كثيرة في أسماء العائلات والأنساب.

راجع سبينوزا: رسالة اللاهوت والسياسة من الترجمة العربية للدكتور حسن حفني (صفحات ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

(٢) Lods, A.: Prophets, P. 191.



التغريب الآشوري لمملكة إسرائيل (٧٢٢ ق.م) والسبي البابلي لمملكة يهوذا ومناطق النفي
نقلاً عن كتاب «القدس عربية إسلامية» (ص ٨٣)

زروبابل والياً على يهوذا :

كان «شيشبصر» قد عُيِّن والياً على القدس (أورشليم) من قبل الملك قورش، واستطاع مع العائدين من السبي أن يُشيّدوا مذبحاً للرب في نفس مكانه السابق على جبل الهيكل في أورشليم، وأصعدوا عليه محرقات للرب واحتفلوا بعيد المظال، وبعد أن وضع شيشبصر أساس الهيكل توقف العمل في البناء[1].

وعلى الرغم من أننا نتشكك في الرواية التاريخية لقورش، فالذي لا شك فيه أن زروبابل بن شالتئيل ـ أحد أعضاء الأسرة المالكة السابقة في المنفى ـ قد عيّن والياً على يهوذا في العام الثاني لحكم دارا ـ وهو بالفارسية داريوس (٥٢٠ ـ ٥١٩ ق.م) ـ وتعاون زروبابل مع الكاهن الأعظم يشوع بن يهو صاداق (عزرا ٢:٢)، ويبدو من وراء اختيار دارا لزروبابل كحاكم على يهوذا أنه كان يريد مهادنة أهالي تلك المنطقة خاصة بعد فترة الاضطرابات التي واجهته في بداية حكمه[2].

ويبدو أن عدد العائدين من المنفى في عهد زروبابل لم يكن كبيراً، وكانت القرابين لا تزال تقدم على المذبح الذي كان قد أقيم أيام شيشبصر، حيث لم يكن قد تمَّ إعادة بنائه. وفيما يبدو فإن حطام المعبد لم يكن قد تمت إزالته بعد ذلك، كما أن أسوار أورشليم ذاتها كانت لا تزال حطاماً. وبعد فترة وجيزة من تولي

---

(١) P. R. Ackroyed: Israel under Babylon and Persia, 1970, PP. 168-169.

(٢) إسحاق بن صبي: المرجع السابق (ص ٦).

Ackroyed: Op. Cit, PP. 169-217.

زروبابل الحكم ظهر النبـي «حجي» الذي انضم إليه، ومن المهم أن نشير إلى أنهم وجدوا أفراد الشعب ما زالوا يردِّدون شعاراً بأن الوقت لم يحن بعد لإعادة بناء المعبد[1] (حجي ٢ : ١٤). وواقع الأمر أن النبـي حجي قد استغل الحماس الديني الذي تميّز به زروبابل لكي يحث اليهود على إعادة بناء المعبد، وذلك أثناء الاحتفال بالسنَّة القمرية الجديدة (أول سبتمبر ٥٢٠ ق.م)، وبالفعل بدأ العمل في البناء بعد ثلاثة أسابيع فقط من خطبته. وقد قام زروبابل بوضع حجر الأساس للمعبد في احتفال ديني، كما انضم النبـي زكريا ـ الذي كان يعضد حجي ـ إلى جماعة زروبابل، وقاوم بشدة ذلك الشعور بخيبة الأمل الذي سيطر على أهالي يهوذا وجاهد ليحافظ على حماسهم.

ومع تقدم العمل في بناء المعبد ظهرت فكرة أخرى ربما روّج لها زروبابل نفسه، وهي إعادة بناء بناء سور المدينة، ولما كان زكريا يأمل أن يصبح زروبابل ملكاً على يهوذا، فقد تنبه إلى الخطر الذي يكمن وراء إعادة بناء هذا السور، وحاول بكل ما في وسعه «أن يوقف هذا العمل (زكريا ٢ : ١ ـ ٩)، ولكنه على ما يبدو أخفق في محاولته. وقد صدق حِدْسُه حيث أثارت عملية بناء السور شكوك السامريين الذين شعروا أن زروبابل كان يهدف من وراء ذ لك إلى أن يصبح ملكاً (عزرا ٤ : ٤ ـ ٥). ويبدو أن زروبابل قد أحدث تغييراً في نظام الكهنوتية في المعبد وجعلها مقصورة على كهنة هارون، وكان ذلك بإيعاز من النبـي زكريا.



(١) Kenyon: Op. Cit, P. 175.

الشقاق بين الطوائف اليهودية
عنـد إعـادة بنـاء المعبـد

أعرب أهل السامرة ــ الذين اعتبروا أنفسهم إخوة لليهود العائدين من السبي ــ إلى زروبابل ويشوع بن يهوصاداق عن رغبتهم في الاشتراك في بناء الهيكل، ولكن زروبابل رفض طلبهم وأعلن أن أمر الملك قورش ببناء الهيكل يخص فقط أبناء يهوذا العائدين من السبي (عزرا ٤ :١ ــ ٣)، وفي أعقاب ذلك أرسل كل من رحوم صاحب القضاء وشمشاي الكاتب وعدد من كبراء أهل السامرة برسالة إلى الملك الفارسي أكزرسيس الأول ــ يعرف في الكتب الفارسية «خشيارشا»[(١)] (٤٨٦ ــ ٤٦٥ ق.م)، يذكرون فيها أن اليهود العائدين من السبي قد شرعوا في بناء أورشليم (القدس) المدينة العاصية بعد أن أكملوا أسوارها، ولذلك يحذرونه من هذا لأنه سوف يؤدِّي إلى امتناع اليهود في يهوذا عن دفع الجزية، وطلبوا منه أن يعيد النظر في وثائق آبائه ليتأكد من أنها مدينة عاصية، وقد وافق الملك على مطالبهم وسمح للسامريين بقيادة رحوم صاحب القضاء وشمشاي الكاتب بالتوجه إلى أورشليم لإيقاف عمليات البناء بالقوة (عزرا ٤ :٢١ ــ ٢٤)، وظل العمل متوقفاً حتى السنة الثانية من حكم الملك الفارسي دارا[(٢)].

---

(١) د. عبد النعيم حسنين: المرجع السابق (ص ٢٩).

(٢) Jos: Ant, Vol. III, XI, 4.

Olmstead: Op. Cit, P. 569.

وهكذا أخفق زروبابل في مهمته التي أتى من أجلها بسبب عدم صموده أمام السامريين، رغم أنه حضر يحدوه الأمل في إعادة بناء المعبد، ورغم ذلك توطدت العلاقات بين أهل يهوذا وأهل السامرة حتى امتدت إلى تبادل الزواج بينهم.

وحلَّت سنُون المجاعة وعم الفساد وسادت حركات التمرد الإمبراطورية الفارسية بعد وفاة قمبيز، ومن ذلك نستدل على أن استئناف عملية البناء إنما كان لاعتبارات سياسية إلى حدٍّ ما، ففي أعقاب الاضطرابات في فارس نهض أنبياء بني إسرائيل «حجي وزكريا وملاخي» لحث زعماء اليهود ودعوتهم لاستئناف عملية البناء، وواصل زكريا جهاده في الوعظ وبث الحماس بين أهل يهوذا، واستمر يؤكد لهم أن «صهيون»[1] هو الجبل المقدس، وأورشليم هي المدينة المقدسة (زكريا ٨ : ٣)، لأنها المكان الذي اختاره الرب ليقام عليه معبده المقدس، كما عبّر النبي ملاخي في سفره عن الحزن الذي سيطر على المجتمع في يهوذا بعد إحباط زروبابل في تنفيذ مهمته (ملاخي ٢ : ١٣ ــ ١٦)، وقد حاول ملاخي أن يبث الأمل من جديد في نفوس أهل يهوذا بالوعظ والإرشاد انتظاراً لعودة النبي إلياهو (إلياس) مرة أخرى، حيث يقدم الأضحية على جبل الكرمل تأكيداً لمعنى العبادة الحقيقية

(١) جبل صهيون: هو الاسم الشائع لهذا الجبل، إلاَّ أن هذه التسمية ليست يهودية بل هي فلسطينية قبل الوجود اليهودي، هي تأتي من الكلمة الكنعانية القديمة «صيه» «צִיָּה» ومعناها قمة، وبقي منها في اللغة العربية صياصي الجبال بمعنى قممها. ومن القرآن الكريم ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٢٦]. ومسألة أسماء المواضع في فلسطين ما تزال إلى الآن موضع أبحاث لا تكاد تنتهي لكثرة من تعاقبوا على هذه البلاد من الفاتحين، وتسميتهم لمواضع قديمة بأسماء حديثة، «فنابلس» مثلاً هي الاسم اليوناني لمنطقة «شكيم» ومعناها «المدينة الجديدة Neapolis»، كما أننا نعرف أن السامرة قد وسّعها «هيرودس» بعد عام ٣٠ ق.م بسنوات قلائل وسمّاها باليونانية «سبسطية» (Sebaste) أي الجليلة تكريماً للإمبراطور الروماني أغسطس سبستيان «أي الجليل» ولا تزال حتى اليوم تسمى سبسطية.

للرب[1].

وأصبحت عملية بناء الهيكل موضعاً للتساؤل، حيث لم يستطع اليهود تقديم مرسوم يُخول لهم حق بناء هيكل الرب، إلاّ أنهم أفادوا أن هذا المرسوم تُقِرّه حوليات السجلات الملكية. وفي السنة الثانية لحكم دارا ــ وبعد بحث طويل ــ تمّ العثور على المرسوم الملكي الذي كان قد أصدره الملك قورش، وكان محفوظاً بسجلات المراسم في ميديا، وخاصاً ببناء بيت الرب في أورشليم (القدس) ــ مع وصف له حيث بلغ ارتفاعه ستين ذراعاً وعرضه ستين ذراعاً ــ وكانت نفقاته من خزينة الملك؛ ومن ثَمَّ فقد أمر دارا باستئناف عملية البناء وبتغطية نفقاته (عزرا ٦ : ١ ــ ٩). وقد انتهى العائدون من السبـي من بناء الهيكل ــ حيث نبوءتي حجي وزكريا ــ في شهر آذار (مارس) من السنة السادسة لحكم دارا، ودشنوا الهيكل بذبح ثيران وخراف حسب شريعة موسى (عزرا ٦ : ١٤ ــ ١٦).

وفي غضون أربعة أعوام ونصف تم بناء الهيكل ــ الذي استغرق بناؤه في عهد سليمان سبع سنوات ــ ، ولا جدوى من مقارنة الحرم الجديد بالحرم القديم، حيث يقول النبـي حجي «من الباقي فيكم الذي رأى هذا البيت في مجده الأول، وكيف تنظرونه الآن؛ أما هو في أعينكم كل شيء» [حجي ٢ : ٣].

ويبدو أن جنوح خيالهم نحو الإعجاب بهيكل سليمان قد هيّأ لهم الظن بأن الهيكل الجديد أقل فخامة وأبهة مما هو عليه، وكانوا قد أبقوا على المظهر العام والمغنيين وقدس الأقداس مع بعض الإضافات المحدودة، فمثلاً أصبح في الهيكل شمعدان واحد بدلاً من الشمعدانات المتفرعة ذات السبعة عشر قنديلاً. كما أضحى المعبد بسيطاً ولم يعد خشب الصندل يعطر الحجرات المقدسة كما كان من قبل، في حين ظل المعبد خاوياً من تابوت العهد الذي ربما كان قد احترق في أيام

(١) M. Gaster: The Samaritans, PP. 25-26.

الخراب الأول على يد بختنصّر، أو توارى في كهف مجهول على جبل نبو على يد النبي إرميا[1].

ويرد ذكر زروبابل على أنه ابن شالتئيل (عزرا ٣:٢، نحميا ١٢:١، حجي ٢:٢٣)، وبذلك يُنسب إلى جده الملك المسبي يهوياكين[2]، ولعل اسم زروبابل كاسم بابلي يرجع إلى اتصاله بالبلاط الملكي البابلي، حيث عمل في إخاء تام مع يشوع بن يوصاداق الكاهن الأعظم كقائد لموكب العائدين من السبي (عزرا ٢:٢).

ولعل قراءتنا لهذه الروايات المختلفة والمتباينة حول نسب زروبابل تجعلنا نشك بعض الشيء نحو تسلسل الأحداث وتتابع الشخصيات التي ذكرت حول بناء الهيكل في أورشليم (القدس)، ونتساءل عمن كان مكلفاً ببناء المعبد؟ فهناك رواية تشير إلى أن الملك قورش جعل شيشبصّر والياً على أورشليم للقيام بتلك المهمة، بعد أن أمر بتسليمه آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخذنصر من الهيكل (عزرا ١:١١، ٥:١٤ ـ ١٥)، حيث جاء شيشبصّر إلى أورشليم ووضع أساس الهيكل (عزرا ٥:١٦). وفي رواية أخرى أن زروبابل هو الذي قام ببناء الهيكل (حجي ١: ١ ـ ٢، ٢:٢) بالاشتراك مع يشوع بن يوصاداق، ويذكر حجي (٢:٣) أن الرب اختار زروبابل ليصبح كخاتم للرب أي أنه سيُعطي له المُلْك الذي أخذه من جده يهوياكين، كما سيأتي المسيح المخلِّص من نسل داود. وهنا يذكر هيرودوت

---

(١) D. Rops: Israel, P. 234.

(٢) وتشير دائرة المعارف اليهودية (Judaica) في مادة زروبابل، أن الأجداده قد ذكرت أنه حفيد يهوياكين وخليفة النبـي دانيال في القيام بخدمة الملك داريوس، وقد احتل مكانة مرموقة دون سواه، وكان قائداً على الحرس الثلاثي الذي كان يقوم على شؤون الملك، وقد رفع التماساً إلى داريوس بطلب العودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل، ولم يكتف الملك بالموافقة وإنما منحه أوسمة وامتيازات عديدة.
قارن حاشية ٢٠٢. Ency Juduica: Vol, Zerubbabel.

أنه من عادات الفرس احترام أبناء الملوك في المنفى والعمل على استعادتهم لعروشهم، برغم محاربة آبائهم لملوك الفرس. وليس هناك ما يدل ـ على وجه الدقة ـ على السنة (قبل عام ٥٢٠ ق.م تقريباً) التي تخلّى فيها شيشبصر عن مهامه ولا الظروف التي دعته للتخلّي عنها[1].

ولم يرد ذكر تاريخ وصول فريق زروبابل ويشوع إلى أورشليم (القدس)، إلاّ في سفر عزرا (٣:١) على أنه كان في الشهر السابع، وأنهم في العام الثاني لوصولهم بدأوا في بناء الهيكل (عزرا ٣:٨)، على أن عملية البناء قد توقفت حتى السنة الثانية من حكم داريوس ملك فارس أي حوالي عام ٥٢٠ ق.م (عزرا ٤:٢٤).

ولكن النبي زكريا (٤:٦ ـ ١٠) يعود فيؤكد أن زروبابل هو الذي أسس الهيكل، مشيراً إلى أن زروبابل سوف يختم العمل في المعبد بفحوى من روح رب العالمين لا من القوة والجبروت.

وبرغم أن الآمال كانت معقودة على بناء هيكل أورشليم، إلاّ أنها لم تتحقق، وأحدث ذلك ردود فعل عمقية في الديانة اليهودية، حتى إن الكثير منهم قد ارتد عن اليهودية وتفشى الإلحاد بينهم. ولكن يبدو أن عدداً كبيراً من أهل السامرة الذين بقوا بعد التغريب الأشوري ٧٢٢ ق.م، ظلّوا على ولائهم لمعبد أورشليم ولعبادة يهوه التي كانت سائدة على الرغم من تدمير الهيكل وإحراقه علي يد بختنصر عام ٥٨٧ ق.م، وهناك وثيقة هامة مؤداها أن ثمانين حاجاً ينتمون إلى شيلوه والسامرة وشكيم عبروا مدينة مصفاه في أكتوبر من نفس العام حاملين قرابينهم إلى معبد يهوه في أورشليم، وكانوا حليقي الذقون ممزقي الثياب يملأهم الحزن على خراب أورشليم ودمار المعبد (إرميا ٤١:٥). وكان من الطبيعي أن

(١) Lods: Prophets, P. 189.

نفترض أن هؤلاء المتعبدين كانوا من أهل السامرة، وأن صلتهم الأولى بأورشليم لم تكن قد قطعت بعد. هذا من الناحية الدينية؛ أما عن الناحية السياسية والاقتصادية فيمكننا القول بأن إقليم السامرة كان يتمتع بحالة من الازدهار أكثر من يهوذا فترة من الزمن بعد السبي البابلي، وكان هذا الازدهار يرجع إلى موقعها المتميز على طريق التجارة بين سوريا ومصر.

في هذه المرحلة استولى الأدوميون على جزء من جنوب يهوذا، وكذلك عاون الفلسطينيون الأشدوديين ضد يهوذا، في حين شدَّد العمونيون ضغطهم عليها بقيادة طوبيا العموني (نحميا ٤ : ٧ ـ ٨).

وعند قراءتنا للعهد القديم نجد أنه يروي لنا أن عزرا يسبق نحميا من الناحية التاريخية، ولكن هناك عدة اعتبارات تدفعنا إلى الاعتقاد بأن نحميا يسبق عزرا، وسوف يتضح ذلك من خلال عرضنا لعودة كل من نحميا وعزرا إلى أورشليم. ولذلك لم يرد ذكر أسماء العائدين من بابل مع عزرا، كما لم ترد إشارة في سفر عزرا تدل على أن أحداً ممن عادوا مع عزرا قد عاون نحميا في بناء الأسوار (عزرا ٧ : ٧).

استطاع نحميا ـ الذي كان يعمل ساقياً للملك أرتاكزرسيس[1] الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق.م) ـ أن يحصل على إذن من الملك للقيام بزيارة أورشليم لترميم أسوارها (نحميا ١ : ٢ ـ ٣)، وكان نحميا قد تلقى قبل ذلك بعدة شهور تقريراً عن الحالة السيئة لليهود الذين عادوا مع شيشبصّر وزروبابل، وكذلك الذين ظلوا في أورشليم بعد السبي وعن حالة أسوارها المهدمة. وقد بدأ نحميا زيارته

(١) يعرف في الفارسية القديمة باسم «أرث خشتر»، وفي الكتب الفارسية باسم «أرد شير الأول».

راجع عبد النعيم حسنين: المرجع السابق (ص ٣٠).

لأورشليم في السنة العشرين من حكم أرتاكزرسيس ـ أي حوالي عام ٤٤٤ ق.م ـ الذي أعطى نحميا رسائل لتسليمها إلى ولاة عبر النهر لمساعدته بالمواد اللازمة لترميم أسوار المدينة، وعند وصوله إلى أورشليم قام بعمل مسح سري لأسوارها الخربة (نحميا ٢:١٢)، ومن ثَمَّ اتخذ الإجراءات اللازمة تمهيداً لبدأ العمل حيث دعا أهل يهوذا إلى اجتماع عاجل ليوضح لهم خطته لتنفيذ هذه الإجراءات (نحميا ٢:٧ ـ ٨، ١٢)، وقد وافق المجتمعون على خطة نحميا بحماس بالغ، ولما سمع سنبلط حاكم إقليم السامرة والعمونيون والأشدوديون والعرب بما يعتزمه نحميا ـ حسب ما جاء في سفره ـ كان حذراً فأقام الحراس ليلاً ونهاراً واستطاع الانتهاء من عملية بناء الأسوار في اثنين وخمسين يوماً[(١)]، ووضع نحميا خطته على أن يتم إسكان المدينة بما يعادل عشر تعداد يهوذا، على أن يتم توزيع بقية السكان على المدن المحيطة بأورشليم، وقام بإعداد قائمة بأسماء رؤساء العشائر والكهنة واللاويين والنثينيم[(٢)].

وتشكك بعض المؤرخين في صحة ما جاء في سفر نحميا (٦:١) بخصوص انتهائه من بناء أسوار أورشليم المهدمة في اثنين وخمسين يوماً فقط. وقد ذكر يوسيفوس أن عملية بناء الأسوار استغرقت عامين وأربعة أشهر، ولكن يوسيفوس لم يشر إلى المصدر الذي نقل عنه هذه الرواية. ويبدو لنا أن قصة بناء الأسوار في هذه المدة الوجيزة يشوبها غموض شديد، لأن هذه المرحلة اقترنت بها أساطير كثيرة، ومن المحتمل أن نحميا لم يتمكن خلال زيارته الأولى لأورشليم من إنجاز

---

(١) نحميا (٤:٧ ـ ٩، ٦:١، ١١:١).

راجع: Olmstead: Op. Cit, PP. 590-591.

Ency Religion: Israel, P. 454.

(٢) النثينيم: طائفة من الرقيق تعاطفوا مع اليهود، وصاحبوا عزرا كمتطوعين للخدمة داخل الهيكل لأداء الطقوس الدينية.

كل ما خطط له، وكان أول ما أدركه نحميا مدى عمق الهوة بين أفكاره المثالية التي كان يشاركه فيها العائدون من السبـي، وبين أفكار وعقائد هؤلاء الذين بقوا في يهوذا بعد السبـي. ويبدو أن هذه الخلافات قد بلغت عمقاً جعل الاندماج بين الفريقين أمراً مستحيلاً، ومن ثَمَّ فقد أدرك نحميا تماماً أن الإصلاحات التي كان يرغب في تنفيذها لا يمكن تحقيقها إلاَّ إذا دُعِّمَت هذه الأقلية من العائدين ببعثة أخرى تأتي من بابل. وبالفعل استطاع نحميا الحصول على موافقة أرتاكزرسيس على إرسال بعثة أخرى تحت قيادة عزرا إلى أورشليم، وجاء اختيار هذه المجموعة وقائدها اختياراً دقيقاً بحيث كانوا يمثلون القبائل الاثنتي عشرة. وعندما وصلت هذه البعثة إلى أورشليم حاولت وضع حد للزواج المختلط، وقد أثارت هذه المحاولة معارضة شديدة من أهل يهوذا، ومن ثم فلم ينفذ إلاَّ جزءاً محدوداً من الخطة عاد بعدها عزرا إلى بابل[(١)].

وجاءت زيادة نحميا الثانية عام ٤٣٢ ق.م في السنة الثانية والثلاثين لحكم الملك أرتحشتا الأول إلى أورشليم، لبدء حركة إصلاح دينية على نطاق واسع، فقام فور وصوله بطرد طوبيا العموني من منصبه في المعبد وذلك لوجود صلة تربطه بكبير الكهنة إلياشب (نحميا ١٣: ٦ ــ ٧)، ثم أمر بإعادة العشور إلى اللاويين. كما أمر بإغلاق أبواب أورشليم يوم السبت تقديساً لهذا اليوم، حيث اعتاد التجار دخولها يوم السبت للبيع (نحميا ١٣: ١٥، ١٩، ٢٢).

وكان نحميا في حكمه لأورشليم مناهضاً للسامريين على طول الخط، وكانت معظم الخلافات سياسية أكثر منها دينية، ولذلك لم تؤثر على استمرار الجهود الرامية لجمع التراث القديم وتصنيفه وتعديله، وقد تضمن هذا التراث

---

(١) Montyomery: Op. Cit, PP. 64-65.

أورئيل رففورط: المرجع السابق، (صفحات ٢٤ ــ ٢٥).

المصدر اليهووي[١] (J) والمصدر الإلوهيمي[٢] (E) ومصدر التثنية[٣] (D)، والمصدر الكهنوتي[٤] (P).

ونظر لأن سِفْري عزرا ونحميا قد جمعا من مصادر مختلفة، فإننا نجد أن الوثائق والحقائق قد اختلطت في كلا السفرين، قد أُقحم اسم عزرا في الاصحاح الثامن من سفر نحميا، حيث اشترك مع نحميا في اطلاع بني إسرائيل في أورشليم على شريعة موسى. وهذا لا يتفق مع ما ذكرناه من أن نحميا يسبق عزرا، فإن الذين عادوا من السبي مع عزرا لم يكن منهم أحد قد أشير إليه على أنه عاون نحميا في إعادة بناء أسوار أورشليم، فعندما يتحدث عزرا عن بعثة نحميا وإعادة بناء هيكل الرب فهو يشير كذلك إلى عملية بناء الأسوار على يد نحميا.

كما أن بعثة عزرا لم تكن قد بعثت بعد، قبل أن يقوم نحميا بتحصين الأسوار وعمل الإصلاحات الاجتماعية وإعادة توزيع السكان على مدينة أورشليم، ووضع

---

(١) المصدر اليهووي ((J. (Johvah)): وهو مصدر يحمل اسم «يهوه» على رب العبريين، ويرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، ورواته كانوا من الجنوب من مملكة يهوذا.

(٢) المصدر الإلوهيمي ((E. (Elohim)): وهو مصدر يحمل اسم «إلوهيم» على الرب باسمه المنتشر في أسباط إسرائيل العشرة في الشمال. ورواته كانوا من الشمال في مملكة إسرائيل، وهو يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ويتفق المصدران اليهووي والإلوهيمي في الخطوط العريضة للموضوع الذي يتناولانه، وربما حدث مزج بين الروايتين اليهودية والإلوهيمية على ألسنة اليهود من القرون التالية.

(٣) مصدر التثنية ((D. (Deuteronomy)): وهو في جوهره تشريعي بحت يرجع إلى عام ٦٢٠ ق.م، وهو الأساس الذي بنى عليه الملك يوشياهو ملك يهوذا إصلاحاته الدينية ٦٢٢ ق.م.

(٤) المصدر الكهنوتي ((P. (Priestly)): وهو حواشي الكهنة، ويرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وهذه الحواشي قد أضيفت إلى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا بعد العودة من السبي البابلي، وهي الفترة التي وصل فيها الكهنة إلى قمة سلطاتهم.

أمر «الميثاق والقسم» للعودا إلى شريعة الرب التي جاءت على يد موسى موضع التنفيذ (نحميا ١٠: ٢٩ ـ ٣٧)، ولذلك فإنه عند عودة عزرا إلى أورشليم كان يتوقع أن يراها مدينة منزوعة السلاح، ولكنه وجد مختلفاً عما تصوّره نتيجة لإصلاحات نحميا الاجتماعية واستعداده لتحقيق كل غاية حتى لو أدّى الأمر إلى قطع كل العلاقات مع الشعوب الأخرى ومحاربتهم[١].

كما أن نحميا قد حرّم الزواج بالأجنبيات في المستقبل ولم يطلب طلاقهن، بينما عزرا (٩: ٩) يطالب اليهود بتطليق الزوجات الأجنبيات وهو أمر لاحق ومكمل للأمر السابق، حيث أنه لم يعالج الأمور كما ينبغي. في حين أن بردية الفنتين تشير إلى كبير الكهنة ويدعى يوحانان (٤٠٨ ق.م) الذي كان معاصراً لعزرا (١٠: ٦)، وهو حفيد إلياشب المعاصر لنحميا (نحميا ١٣: ٤، ٧، ٢٨)، والذي كان يرتبط بطوبيا العموني برابطة نسب[٢].

ولكن كوستر يرى أن زيارة عزرا وما قام به من إصلاح كان في الحقبة الثانية من حكم نحميا بعد سرد الأحداث وتاريخها في سفر نحميا (نحميا ١٣: ٤ ـ ٣١)، حيث جاء عزرا لأول مرة بعد عام ٤٣٣ ق.م. ولكن فِلْهاوزن قد عارض بشدة نظرية كوستر، في حين أن «ماير» (Meyer) أيَّدها بقوة مستنداً إلى أصالة الأدلة الواردة في سفر عزار الإصحاحين الرابع والسابع. ولكن توري (Torrey) يذكر أن نحميا كان ينتمي إلى عهد أرتحشتا الثاني[٣]، ويؤيد هذا الرأي أولبريت الذي إشار إلى أن عودة عزرا كانت في العام السابع والثلاثين وليس في العام السابع[٤] حسب ما ورد في سفر عزرا (٧: ٧).

---

(١) G. H, Box: A short introduction to the Literature, London, 1930, P. 144.

(٢) د. نجيب ميخائيل: مصر والشرق والأدنى (ج٣، ص ٤٦٩).

(٣) G. H, Box: Op. Cit, P. 94.

(٤) Ency. Judaica: Vol. 6, Ezra, Pl 1104.

وكان عزرا قد رأى ضرورة سنّ صلوات يومية لليهود، لتكون لهم عوناً ولتقوم مقام الذبائح والتقدمات، فجمع هؤلاء الرجال المعروفين برجال الكنيسة الكبرى (عزرا ومائة وعشرين رجلاً من العلماء والأنبياء ومنهم النبي دانيال وحجي وزكريا وملاخي)؛ ووضعوا القسم الأساسي من الصلاة والمعروف باسم «الشماع والشِمُونة عِشرِه»[١].

ومما يجدر ملاحظته ما جاء في الأجاداه[٢] (Agadah) من أن عزرا قد استمر

---

(١) الشماع: هو أهم قسم في الصلاة، مأخوذ من سفر التثنية. وكلمة «شماع» أي «اسمع» هو أول كلمة من آية التوحيد عند اليهود «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا الرب واحد» [تثنية ٦:٤].

شِمُونه عِشرِه: مجموع تسع عشرة بركة، وهو أهم قسم في الصلاة بعد الشماع. وضعها النبي عزرا ورجال الكنيسة الكبرى. وقد حفظت اسمها الأصلي «شمونه عسره» أي ١٨ مع أنها صارت ١٩ بركة.

راجع:

د. حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، (ص ١٧٢، ١٧٣).

(٢) الأجاداه (النصوص القصصية):

هي موسوعة من العناصر الأخلاقية والروحية والدينية التي جرى تصنيفها تحت ما يعرف بالأجاداه أي الرواية والأخبار، ثم صارت تعني الشرح القصصي على سبيل الوعظ الديني، كما تتضمن الأقوال المأثورة إلى جانب القصص والأساطير المتصلة بحياة القديسين اليهود في العصر اللاحق للتوراة، كما اشتملت على موضوعات الفلك والتنجيم، والطب والسحر والتصوف وغير ذلك من الموضوعات المماثلة التي تنتمي في معظمها إلى الأدب الشعبي.

وجد هذا العنصر موزّعاً على القسم الأكبر من التلمود، وهو المعروف بالجمارا أي التكملة، والجمارا مبنية على روايات وأحاديث، وتحتوي على إيضاحات وشروح وتفاسير على المشنا.

وكلمة أجاداه مشتقة من أصل عبري وهو (נָגוד) بمعنى أساسي والمشتقة من كلمة (הִגִּיד) بمعنى: «قال ــ تحدث ــ أخبر»، والأصل العبري (הַגָּדָה)، هجاداه والآرامي (אַגָּדָה) أجاداه.

في الدراسة على يد النبـي باروخ في بابل، منذ رحل دانيال ورفاقه إلى أورشليم، فقد وضع عزرا في قرارة نفسه أسبقية دراسة التوراة بعد جمعها، على العودة إلى أورشليم لإعادة بناء الهيكل. لذلك كان شغله الشاغل بعد وفاة أستاذه باروخ أن يجمع كل اليهود الذين بقوا في بابل ــ بعد عودة دانيال ورفاقه إلى أورشليم ــ ويقوم بإعدادهم وتأهيلهم للعودة تحت قيادته إلى أورشليم، كما كان عزرا متقد الحماس للعمل على نشر التوراة التي جمعها حتى قيل عنه: «لو لم يتقدمه موسى في البعث لنزلت التوراة على عزرا»(1) [تسويفتا ٤ : ٧].

وما ورد ذكره في الأجاده من أن عزرا فضّل دراسة التوراة على العودة لإعادة بناء الهيكل يؤكد لنا أن بعثة عزرا جاءت في وقت لاحق لبعثة نحميا كما أسلفنا من قبل.

● ● ●

(١) Ency Judaica: Vol. 6, Ezra in Agadah.

الديانة اليهودية وصراعها مع الوثنية
حتى عصر الإسكندر

الديانة اليهودية ديانة متطورة وليست ثابتة عند وضع معيّن، فهي على مر العصور تتشكل ويتزايد فيها التراث المكتوب، كما تتعدل فيها العبادات[(١)] والشعائر بحسب الظروف، ولذلك تركت الباب مفتوحاً بعد موسى لدخول نصوص مقدسة لها ما للتوراة من القداسة، مثل أسفار الأنبياء وكتب الحكمة، ثم كتبوا بعد ذلك المشنا والتلمود وأخذوا نفس القيمة والاهتمام من اليهود.

وجوهر الشريعة اليهودية مبني على ثلاث مقومات أساسية، هي: الوحدانية، والمسيح المخلص، ويوم الرب، وتتضمن هذه العقيدة شرائع خاصة بالعبادات وأخرى خاصة بالجنايات وهي القانون.

وإذا كان موسى رسول الله بعقيدة الوحدانية، فلقد زعموا خطأً أن هذه الوحدانية كان لها صور كثيرة، منها الوحدانية الوثنية وهي الإقرار بإله واحد، ولكن هذا الإله له مواصفات محدودة وله منطقة نفوذ معينة، وذلك كان في أيام المدن المستقلة القديمة أو في أيام العشائر، فكانت كل عشيرة تؤمن بإله خاص هو

---

(١) من التعديل في العبادات أنه بعد خراب الهيكل الأول على يد الكلدانيين رأى الأنبياء (فيما يزعم اليهود) تحريم النطق باسم الإله القومي «يهوه» للشعب اليهودي، لأن اليهود تعرَّضوا لعذاب الله بالهزيمة والسبي والتشريد بسبب الكبائر التي ارتكبوها وأغضبوا بها الله، فأصبحوا من ذلك التاريخ نجسين لا يحق لهم التلفظ باسمه، وما زال هذا التحريم قائماً حتى الآن.

الحامي لها وكانت تتصور قرابة بينه وبينها، وكل ذلك ظاهر في بعض الأسماء القديمة «أبرام» بمعنى الأب العالي، «عمى صادق» بمعنى «عمي العادل» «أبيناداب» بمعنى الأب الكريم، وأبشالوم بمعنى «السلام أب». وكل إله له سمات قد تكون طبيعية وقد تكون صناعية. وعند قراءتنا للتوراة نشعر بقلق شديد في عقيدة الوحدانية نفسها عند من كتبوا التوراة بعد موسى، حيث يتجسد الإله ويصبح عمود دخان نهاراً وعمود نار ليلاً يسير أمامهم ليرشدهم.

وبالرغم من كل ذلك نجد أن موسى قد غرس الاعتقاد بوحدانية الله وعدم تجسيده أو تصويره، كما نص على ذلك البند الثاني من الوصايا العشر التي وردت في سفر الخروج : ٢٠ وسفر التثنية: ٥ «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة، مما في السماء من فوق، ولا مما في الأرض من تحت، ولا ممّا في الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لها ولا تعبدها، لأني أنا الرب إلهك إله غيور. . .» على نحو يبدو فيه أنها كانت من عصب الشريعة الموسوية.

وتبدأ فكرة النبوة في بني إسرائيل في التبلور بشكل واضح في عصر النبي صمويل (حوالي ١٠٩٠ ق.م)، كما تتحد صفات النبي في مفهومهم، وهي صفات زعامة سياسية ودينية تعتبر امتداداً للقضاة، وإن كانت لا تسْعَى إلى تسلم مقاليد الحكم رسمياً، بل تبقى لتدير هذا الحكم من وراء ستار، بينما الحاكم ملك يجلس على عرشه ويبايعه رعاياه بأمر من هذا النبي. ويبدو لنا أن النبي صمويل الذي يفتح بحق الدور الأساسي والاجتماعي للأنبياء في بني إسرائيل، كان عبقرية. ونحن نعلم أن الكهانة وهي السلطة الدينية الكبرى عند بني إسرائيل كانت محصورة من سبط اللاويين، ولم يكن صمويل من هذا السبط، بل كان من إفرايم، وبناء على ذلك فطريق الزعامة التقليدية موصدة في وجهه، ولذلك فقد كان المنطق الوحيد لطموحه ولمواهبه القيادية هو الانتفاع بأفكار سامية قديمة تدور حول مفهوم النبي، فخطّ لنفسه من النبوة مسلكاً مبتكراً، بلغ به ما يريده لنفسه ولقومه.

وبوفاة صمويل لم يعد هناك في إسرائيل نبـي قادر على مشاركة الملك في قيادته، كما كان من ذي قبل، ومع ذلك فإن تأثير الأنبياء على مجريات الأمور في بني إسرائيل لم ينته بقيام الملكية؛ بل على العكس ازداد نشاط بعض الأنبياء بعد وفاة صمويل، كما زاد عددهم وأصبحوا فئة خاصة. وهكذا أصبحت النبوة مهنة كأي مهنة أخرى يستطيع الإنسان أن يتعلمها ويتدرب عليها.

وكان الأنبياء الأوائل يقصرون وعظهم على أفراد بني إسرائيل وحدهم، وليس الأمة كلها مثلما كان يفعل موسى وصمويل اللذان شمل وعظهما الشعب مجتمعاً. كما أن الافتراض المتعلق بوظيفة الأنبياء في الطقوس الدينية التي كانت تقام في المعبد، يُظْهِر لنا الازدواجية بين عمل كل من الأنبياء والكهنة، وهذا واضح في إرميا ٩:٢٦ «وكان لما فرغ إرميا من التكلم بكل ما أوصاه الرب أن يكلم الشعب به أن الكهنة والأنبياء وكل الشعب أمسكوه قائلين تموت موتاً» وكذلك في إشعيا ٧:٢٨ «كاهن ونبـي...» وهكذا يأتي ذكر الكهنة دائماً في البداية، ولذلك لأن الكهنة كانوا أكثر أهمية في المعبد، ولذلك قال هوشع في سفره ٤ :٥، أنه عندما يتعثّر الكاهن يتعثر النبـي. ومن هنا اتهم النبـي إرميا الأنبياء الكذبة بأنهم آلة في أيدي الكهنة... (إرميا ٥ :٣١). وهناك أنبياء مثل حزقيال وعاموس وهوشع وإشعيا وإرميا ليس معهم شريعة، إنما رسالتهم إلى قومهم، هي نوع من النضال السياسي ونوع من إحياء الشريعة الموسوية التي انحرف عنها اليهود وليس عندهم وحي، وكل عملهم النصح والوعيد لكي يرجع اليهود إلى الشريعة الموسوية ويحيدوا عن العبادات الوثنية.

فمنذ ظهور صمويل كنبـي وزعيم لبني إسرائيل وحتى ظهور عاموس النبـي (٧٦٠ ق.م)، لا نجد نبياً يُلقي وعظه في مجمع عام على الأمة كلها، وما قام به إلياهو (إلياس) النبـي على جبل الكرمل، إنما يمثل حالة خاصة بناء على أوامر الرب وبموافقة الملك آحاب نفسه كما سيرد بعد ذ لك. ومما يجدر ذكره أن النبـي

إلياهو كان يمثل الشكل التقليدي للنبوة القديمة، إذ كان نشاطه وفحوى حياته يُعبّران عن احتجاجه الشديد ضد الوثنية، وقد اختار له الرب جبل الكرمل لكي يواجه المملكة الشمالية التي انتشرت بها الوثنية، حيث كان آحاب قد اضطهد أنبياء يهوه وفرقهم وكان عددهم حوالي مائة نبي، بينما تكاثر عدد أنبياء البعل إلى أربعمائة وخمسين وأنبياء عشتورت إلى أربعمائة (١ ملك ١٨ : ٤، ١٣ ــ ١٩).

ويتبين لنا من رواية العهد القديم أن النبـي إلياهو قد أخذته الغَيْرة على الديانة اليهودية في مواجهة عبادة البعل، بالإضافة إلى الانحلال والفساد الذي تفشّى في إسرائيل ممثلاً في الملك آحاب نفسه، فقام ينادي بالإصلاح، وأقسم لآحاب باسم رب إسرائيل بأنه لن ينزل مطر من السماء إلاَّ بناءً على طلبه من الرب (١ ملك ١٨ : ١)، ودعا إلى تمييز واضح بين ديانة يهوه، وعبادة البعل، فطلب مواجهة علنية بينه كآخر أنبياء يهوه الباقين، وبين أنبياء البعل الأربعمائة والخمسين، لكي يوضح أي الديانتين على حق. ووقف أمام أنبياء البعل وخطب خطبة عنّف فيها كل الشعب الذي تجمّع ليرى هذه المواجهة قائلاً: «إذا كان يهوه هو الإله فاتبعوه وإذا كان بعل فاتبعوه»، وحاول أنبياء البعل إنزال المطر بكل الوسائل فكانوا يبكون بصوت عالٍ، ويقطعون أجسادهم بالسيوف، ويرقصون حول المذبح، ولكن جهودهم ذهبت هباءً (١ ملك ١٨ :٢١ ــ ٢٨). وعقب ذلك قام إلياهو وطهّر المذبح، وأتى باثني عشر حجراً بعدد أسباط بني يعقوب وبنى تلك الحجارة مذبحاً باسم الرب، وقدّم القربان وصلّى للرب ودعا وابتهل، فانفتحت السماء ونزلت الأمطار لتروي المزروعات. وبعد أن شاهد الشعب نجاح إلياهو وفشل أنبياء البعل في هذا الاختبار العلني، صاحوا يهوه هو الإله. . . ثم أعدم الشعب أنبياء البعل. وفي هذا الوقت وصلت الأخبار إلى إيزابيلا زوجة الملك آحاب التي أعلنت أن ما حدث لأنبياء البعل سيحدث لإلياهو (١ ملك ١٨ :٣١ ــ ٤٠).

وقد استطاعت النبوة أن تتغلغل في مجال السياسة في نهاية حكم الملك

يورام (٨٥٠ ــ ٨٤٢ ق.م)، تلك النبوة التي أصبح إليشع النبي ممثلها الكبير. ويبدو أنه لم يتبع سياسة إلياهو التي كانت تتميز بالشدة والصرامة، فقد فضّل إليشع أن يمارس مهامه في الأماكن الآهلة بالسكان[1]. وأغلب الظن أنه كان يتمتع بنفوذ في السلطة السياسية ليس فقط داخل إسرائيل، وإنما في مملكة يهوذا، فقد كان تدخل إليشع مباشراً وأكثر حسماً فيما يتعلق بالأسرة الحاكمة في إسرائيل على خلاف إلياهو.

ومن المحتمل أن عبادة البعل قد استمرت طوال حكم يورام، على الرغم من أنه ــ فيما يبدو ــ قد قام بإصلاح ديني محدود، حيث أزال أحد تماثيل البعل التي أقامها والده، كما أشار إلى ذلك العهد القديم (٢ ملك ٣:٢) واتهام يورام بالوثنية إنما يرجع في حقيقة الأمر إلى ما كان يمارسه والداه؛ حيث اعتبر مسؤولاً عن خطاياهما (٢ ملك ٣:١٣). والأمر في الحقيقة أبعد من ذلك مدى، فتدمير بيت آحاب لا يُمثِّل، محاولة للقضاء على عبادة البعل بقدر ما هو عقاب على جريمة قتل أنبياء يهوه، وكذلك لا يمكن تفسير ثورة ياهو على أنها نضال ضد خطر عبادة البعل بقدر ما كانت استئصالاً لما تبقى من مظاهر عبادة البعل في إسرائيل (٢ ملك ٩:٦، ٢٥، ٣٠ ــ ٣٧).

وهكذا ندَّد الأنبياء بالبدع بالوثنية، وبذلك عارضوا السلطة الملكية معارضة صريحة. وقد لاحظ المؤرخون بثاقب نظرهم أن هذه النبوة تعبير عن انبعاث روح الحرية الموروثة عن حياة البداوة، تلك الروح التي رأت في الملكية بدعة ونظاماً منقولاً عن العالم الخارجي المعادي لإسرائيل. وقد قُدِّر لتاريخ بني إسرائيل السياسي حتى النفي إلى بابل، أن تلازمه دون فكاك دعوة الأنبياء فقد تابعوا تقلباته جميعاً، ونَدَّدوا دائماً بسياسة الحكام، وكانوا يدعون إلى استقامة السلوك والإخلاص للعهد المفقود مع الله. ويفسرون مصائب إسرائيل ويهوذا (كما يتنبأون)

---

(١) Ricciotti: Vol. I, P. 342.

بأنها نتيجة انحراف أفراد الشعب عن الولاء لله بعد أن أضلّهم الحكام. ويرجع الفضل إلى هؤلاء الأنبياء في القضاء على وثنية آحاب وبيته. ويرجع الفضل إلى هؤلاء الأنبياء في القضاء على وثنية آحاب وبيته في القرن التاسع قبل الميلاد، حيث ظهر كل من إلياهو وإليشع، وكانت دعوتهم بالعمل أكثر منها بالقول، فلم يخلّفا لنا أسفاراً مكتوبة تعبّر عن دعوتهما.

وعلى الرغم من الإصلاحات التي قام بها الملك ياهو للقضاء على عبادة البعل، إلاَّ أن الانحرافات الوثنية القديمة ما لبثت أن عادت إلى الظهور، وقد تعاقب أنبياء جدد في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، هم عاموس (٧٦٠ ق.م) وهوشع (٧٥٠ ق.م) وميخا (٧٢٥ ق.م)، وقد سُمي هؤلاء الأنبياء بالمنشدين الجوّالين، لأنهم كانوا ينذرون الشعب وينصحونه بمواعظ وصلت إلينا في أسفار من العهد القديم التي تحمل أسماءهم[١].

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن النبـي عاموس كان يقوم بالوعظ في معبد «بيت إيل»، ويذكر عاموس إن الرب سيكون له مع الدنيا يوم عظيم، هو يوم البعث أو يوم الموقف العظيم ونورد هنا نص ما جاء في سفر (عاموس ٥:١٨ ــ ٢٠). «ويل للمتمنّين يوم الرب لِمَ ذاك؟ إن يوم الرب لكم ظلمة لا نوراً، كما إذا هرب إنسان من وجه الأسد فلقيه الرب، أو دخل البيت وأسند يده إلى الحائط فلسعته حية، أليس يوم الرب ظلمة لا نوراً؟ . . .».

ويبدو من فحوى هذا الكلام أن عاموس لم يخترع عبارة «يوم الرب» ولا الفكرة الكامنة فيها، بل كانت فكرة ملفوفة في رداء من الغموض وجدها عقيدة شائعة بين قومه وفي عصره. ولذلك كان عاموس قد رأى أن يوم الرب سوف يمتاز بانتصار العدالة الإلهية التي سيرتعد منها شعب بني إسرائيل نفسه رعباً بسبب ما اقترفه من جرائم وآثام، في حين يرى «جينيبر» أن العبارة التي جاءت في سفر

(١) موسكاتي: المرجع السابق، (ص ١٤٥).

عاموس والتي أسلفناها (عاموس ٥: ١٨ ـ ٢٠) توحي بأن اليهود على عهد عاموس كانوا قد خلطوا بشيء من الذكاء والحيلة، قضيتهم بقضية الله، فهم ينتظرون يوم الرب ليحمل لهم انتصار شعب الله المختار على الأمم الأخرى التي تكون قد خضعت لهم وذلك على عكس ما رآه عاموس[1].

وتبقي هذ الازدواجية حول مفهوم يوم الرب لدى الأنبياء الذي أتوا بعد عاموس، فالنبـي إشعيا يقول مثلاً (إشعيا ١٣: ٦ ـ ٩): «وَلْوِ لُوا فإن يوم الرب قريب، قادم من لدن القدير قدوم اجتياح. لذلك تسترخي كل يد ويذوب كل قلب لإنسان، فيفزعون ويأخذهم الطلق والمخاض ويتضوّرون كالتي تلد، ويحملق بعضهم إلى بعض ووجوههم مثل اللهيب. هو ذا يوم الرب قد حضر، يوم قاسي فيه سُخْط وغضب مضطرم، ليجعل الأرض خراباً، ويبيد منها مذنبيها».

ويطلق اليهود على يوم الرب الاسم العبري «أَحَرِيتْ هَياميمْ» والذي معناه «اليوم الآخر» أو «آخرة الأيام»، لأنه كان موضع تهكُّم وسخرية من الكثيرين منهم، لأنهم كانوا يرون أنه بعيد جداً حيث لم يرد ذكره في الأسفار الخمسة لا على عهد موسى ولا أيام القضاة.

ومع أن عاموس قد افتتح سفره بتوجيه الاتهامات للشعوب المجاورة، إلاَّ أن هذه الاتهامات تصل إلى ذروتها بتوجيه عاموس الاتهام ضد إسرائيل (٢: ٦ ـ ١٦)، فأقوال عاموس في شكلها ومضمونها إنما هي كتابات منهجية كامل كانت تُقال في مناسبات خاصة، حتى قبل تحليل أسبابها وما تركته من آثار.

---

(1) Ch. Guignebert: Le Monde Juif vers le temps de Jesus, papris 1950; Chapitre IV, PP. 167 SS.

راجع د. حسن ظاظا: الفكر الديني (١١٠ ـ ١١١).

ظهر عاموس خلال عصر يربعام الثاني (٧٨٤/ ٧٨٣ ـ ٧٥٣/ ٧٥٢ ق. م).

وهنا يعلن عاموس عن العقاب الذي سيحل في يوم الرب، (عاموس ٥ :١٨ ــ ٢٠) «يوم الحساب»، عندما تُقهر إسرائيل وتدمَّر أراضيها، ويُنْفَى أبناؤها (عاموس ٣ :١٤ ــ ١٥، ٥ :٣، ٢٦ ــ ٢٧)، ويختم عاموس سفره بخاتمه تتضمن الإعلان النهائي بكارثة ستحل بإسرائيل. (عاموس ٩ :٧ ــ ١٠)، وبالرغم من أن نبوءات عاموس بالهلاك لا يشوبها أمل، إلاَّ أنها كانت تتضمن الفكرة القائلة بأن إسرائيل لن تهلك تماماً جزاء على خطاياها، وإنما ستعود إلى سابق العهد بها والرخاء الذي سيتمتع به سكانها (٩ :١١ ــ ١٥).

ومن المهم أن نشير إلى أن عاموس كان يقوم بالوعظ في معبد بيت إيل، وبعد فترة من الزمن ظهر النبي هوشع الذي بدأ عمله بالوعظ في المملكة الشمالية، والذي كان من شأنه شأن عاموس مقتنعاً بعدم جدوى القرابين (هوشع ٦ :٦)، ولكن تعاليم هوشع كانت أكثر وضوحاً وتأثيراً، مع أن عصره لم يكن مناسباً لإجراء إصلاحات دينية، ومن ثم فقد كان دور هوشع صعباً في القضاء على الانحرافات داخل إسرائيل. وقد برز هوشع إلى مسرح الأحداث إما في نهاية فترة عاموس أو بعدها بقليل، بينما عاش عاموس في فترة يربعام الثاني المزدهرة، وعاش هوشع سنوات التدهور والفوضى التي تلت تلك الفترة. ويعكس سفر هوشع بعد الإصحاح الثالث، حالة الفوضى وتتابع المؤامرات وحوادث الاغتيال التي حملت إلى العرش ستة رجال خلال فترة قصيرة من الزمن مقدارها عشرون سنة (هوشع ٤ :٧، ٨ :٤، ٢ ملك ١٥).

وقد هزأ هوشع من اطمئنان الملوك إلى مدنهم الحصينة وأصنامهم العاجزة، أو على حماية كل من آشور أو مصر لهم، وكل ذلك لا يجلب لهم سوى الهلاك والدمار[١].

---

(١) Hermann: Op. Cit, P. 235.

راجع: Cornfeld: Op. Cit, P. 143.

تأثير الديانة الكنعانية على الديانة اليهودية

أطلعتنا المكتشفات الأثرية المتصلة بديانة كنعان في رأس شمرة (أوجاريت القديمة) على معلومات ذات قيمة عن ديانة بعل، التي كانت هدفاً لهجوم هوشع. ويشير فحص النقوش الكنعانية الأوجاريتية إلى وجود علاقة وثيقة بين الديانة اليهودية وديانة بعل. وقد كان لحضارة كنعان القديمة نصيب الأسد في تراث إسرائيل الحضاري، كما كان لها تأثير قوي على طقوس العبادة في الديانة اليهودية.

وكانت الديانة الكنعانية تشتمل على نظام متطور لتقديم القرابين، وهيئة ضخمة من الكهنة، وخدم للمعابد بين رجال ونساء، وكانت إسرائيل القديمة وريثة لكثير من العادات والممارسات الكنعانية. وواضح أن هذه العادات والممارسات قد استمرت بين الإسرائيليين برغم من ما كان يُكنّه أنبياؤهم من كراهية عميقة لديانة بعل[1]. وكان أمراً محتماً أن تتأثر الديانة اليهودية بالديانة الكنعانية، وخاصة فيما يتصل بطقوس الزراعة، حيث إنه من المعروف أن الزراعة كانت ترتبط دائماً بالديانة في العصور البدائية، وكانت أوجه النشاط الزراعي المختلفة تعتبر جميعها طقوساً دينية. وعندما يقوم شعب رعوي بالتكيف مع مجتمع زراعي فإنه من

(١) Cornfeld: Op. Cit, P. 147.

المحتم أن يتشرب ديانة المجتمع الزراعي، ومن هنا أصبحت الأعياد الكنعانية أعياداً إسرائيلية.

ومن الصعب تحديد مدى التداخل بين عمل الكاهن وعمل القديسين، لأن هؤلاء القديسين ــ فيما يبدو ــ كانوا من أصل كنعاني، فهم رسل الرب الذين بعث بهم لتنمية القدرات الإنتاجية للطبيعة، ومن ثمّ يمكن إرجاع فكرة التضحية بالابن الأول إلى هؤلاء القديسين، فمع انتفاخ الرحم يكون الزواج قد أثمر، ويرجع ذلك الإثمار إلى الاتحاد مع روح الرب التي تمثّلت في جسد الزوج، ولذلك فإن أول مولود يجب أن يكون مِلْكاً للرب. وقياساً على ذلك فإن وظيفة ما كانت تعرف بالمرأة المقدسة تعتبر امتداداً لهذه الطقوس وتلك العبادات الوثنية، كما أن القديسين ــ بخلاف الكهنة ــ كانوا لا يقيمون في المعبد حيث إن قدسيتهم لا تتطلب الإقامة فيه أو تقديم الذبائح.

أما القديس إبان عصر الملكية، فقد كان يمثل شخصية بارزة في المجتمع الإسرائيلي (إشعيا ٣: ٢، ميخا ٣: ٧)، وقد انقسمت طبقة القديسين إلى طبقتين رئيسيتين، الرائي والنبي، وكانت هاتان الطبقتان في البداية منفصلتين، ولكنها في نهاية الأمر أصبحتا متماثلتين[١].

ومن المهم أن نوضح أن المتعبدين في إسرائيل كانوا مثل جيرانهم الكنعانيين، عندما اعتقدوا أن العبادة يجب أن تكون في أماكن مقدسة، لا في أي مكان يختاره المتعبد ولكن نقطة الخلاف الرئيسية بين الديانة الكنعانية والديانة اليهودية، كانت في اعتقاد بني إسرائيل في الأماكن المقدسة على أنها ديار الرب حيث يتجلى فيها، ولذلك فلم يكن هناك تحديد لمكان الرب في المعابد المختلفة

---

(١) Ency. of Religion and Ethics: «Israel» P. 442.

راجع: G. E. Wright and D. N. Freedman: The Biblical Archaeologist Reader 1 1961, P. 164.

كما كان يظهر في المعابد الكنعانية[1].

ومقابل هذا الانحراف في النظام الاجتماعي في إسرائيل، يمكن أن نرى ما كان يسعى إليه الأنبياء، وما كانوا يعنونه عندما يتكلمون عن العدالة والتضحية بالنفس والحب. وقد ناضل الأنبياء من أجل إعلاء صوت ما يطلبه «يهوه» وجَعْلِه مفهوماً بعمق أكثر، وزادوها انتشاراً أماكن لم يكن معروفاً فيها.

وكما نعرف فإن الفصل بين الدين والدولة، وبين النظريات الروحانية والنظريات السياسية، لم يكن أمراً تتصف به إسرائيل، وقد رأى الأنبياء أن إسرائيل أصبحت لا حيلة لها أمام قوىً فرضت نفسها على الشعب، ألا وهي الطبقة المتوسطة الفاسدة وجانب كبير من الطبقة الأرستقراطية[2].

لذلك لم يكن في وسع عاموس (٧٦٠ ق.م) وهوشع (٧٥٠ ق.م) ومن بعدهم إشعيا (٧٤٠ ق.م) وميخا (٧٢٥ ق.م) في فترة متأخرة؛ إلَّا أن يروا هذه الحقيقة. ويجب ألَّا نقلِّل من شأن نشاط الأنبياء في عمق تصوراتهم، التي قاومت كل الاعتبارات المنطقية، إنما سير الأحداث أكدّ صدق نظرتهم. فقد تعرضت كل من إسرائيل ويهوذا إلى أقصى الضغوط من الخارج ومن الداخل، وأصبح مصيرها معلقاً بإرادة الأقدار وذلك أمام نشاط أشوري كان موجهاً إلى عدم التوقف عند أبواب إسرائيل ويهوذا[3].

والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى تعلق اليهود بفكرة المسيح المخلِّص، والبناء الفكري المعقد الذي ارتبط بهذا الأمل والذي أصبح عالماً حافلاً بحكايات كثيرة ترتبط به. وقد جاءت فكرة المسيح المخلِّص مقترنة بفكرة تجديد العهد مع

---

(١) G. E. Wright and D. N. Freedman: Op. Cit, PP. 174-175.

راجع: J. Gray: Op. Cit, P. 71.

(٢) Hermann: Op. Cit, PP. 238-239.

(٣) Hermann: Op. Cit, P. 240.

الرب عندما يحصل الشعب على استقلاله وحريته بعد رضاء الرب، وعندئذ سوف يجمع الأمم على جبل صهيون وتعود أيام رضاء الرب، وقد أثرت فكرة المسيح المخلص تأثيراً عميقاً في التطور الديني عند بني إسرائيل، ثم تأكدت هذه الفكرة مع النكبات المتعاقبة التي حلَّت بهم حتى أصبحت ركناً من أركان العقيدة اليهودية. وجاء تعبير إشعيا عن فكرة المسيح المخلص مُعَبِّراً، وهو ما أورده سفر إشعيا (١١ : ١ ـ ٢)، «وسيخرج قضيب من جذع يَسَّى (أبو داود)، ويثمر غصن من أصوله، وتحل عليه روح الرب: روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة وتقوى الرب. . .».

ولا يسعنا إزاء هذا كله إلاَّ أن نقول بأن فكرة المسيح المنتظر قد أخذت في عقلية اليهود أشكالاً مختلفة بحسب العصور والظروف التي مرُّوا بها، كما تطورت فكرة المسيح المخلِّص تحت تأثير اليهودية المتأخرة والعصر المسيحي المبكر. أما فيما يتصل بالعلاقة التي تربط فكرة المسيح المخلِّص بيوم البعث، فإنها تعود إلى فترة متأخرة، حيث إن فكرة المسيح المخلِّص لم يكن لها دور فعّال في العصور المبكرة، ويبدو أنها قد بدأت تأخذ شكلاً واضحاً منذ عصر المكابيين حيث بدأ حكم الرومان يأخذ اليهود بشدة على حدٍّ سواء إلى أن حل الشتات بهم في أركان المعمورة الأربعة.

أما فيما يتصل بالفكر اليهودي حول المسيح المخلِّص، فقد اعتقد اليهود أن النبـي إليا (إلياهو) (في عصر الملك آحاب ٨٧٥/ ٨٨٤ ـ ٨٥٤/ ٨٥٣ ق.م) سيجيء مبشراً به، حتى أن بعض فرق اليهود اعتقدوا أن إلياهو والمسيح المخلص شخصٌ واحدٌ. وقد نظروا إليه على أنه نبـي وصاحب رسالة بالإضافة إلى أنه المخلِّص والمنقذ. وعلى هذا النحو تتشكل الحقائق موضحة أن فكرة المسيح المخلِّص عند اليهود الربانيين وبعض الفرق اليهودية الأخرى كانت تجري في اتجاه واحد، حيث كان اليهود في انتظار ظهور مولد المسيح المخلِّص الذي سيأتي النبـي

إيليا مبشراً بمجيئه، وكان الأمل في قدوم المسيح حنيناً إلى عودا مُلك داود الذي كان عصراً ذهبياً، وذلك لكي يوطِّد المملكة بالعدل والإنصاف[1]، ونرى هذه الفكرة واضحة في سفر إشعيا (٩: ٦ ـ ٧). ومن هذا يتبين لنا حقيقة هامة مؤداها أن الاعتقاد في الحلم المسيحاني قد استمر يداعب خيال اليهود منذ السبي البابلي حتى عصرنا الحاضر.

وهكذا ابتعد اليهود بُعداً شديداً عن تلك الشريعة البدوية البسيطة التي تضمنتها التوراة، ترسلها موجزة ومباشرة بدون تأويل، وكما أسلفنا القول فإن بعض المعتقدات اليهودية غير المُوسوية التي انبثقت في مجتمعهم ـ الإيمان بمجيء المسيح المخلص ويوم الرب ـ في الأيام الحالكة المليئة بالنكبات التي بدأت بتصدع مملكة سليمان بعد وفاته مباشرة والتي انتهت بالتغريب الآشوري (٧٢٢ ق.م) ثم السبي البابلي (٥٨٧ ق.م)، وبعد ذلك بستة قرون جاء الشتات والتشرد الروماني (١٣٥م على يد الإمبراطور الروماني هدريان).



(١) D. S. Russell: Between the Testaments PP. 125-127.

إرميا وسفره في التراث الديني اليهودي

عاصر إرميا النبي (٦٢٦ ق.م) ملك المملكة الجنوبية (يهوذا) يوشيا بن آمون بن منسًا (٦٤١ ـ ٦١١ ق.م)، وكان إرميا بن حلقيا الكاهن الأعظم في هيكل سليمان في القدس في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وكان المفروض أن يرث إرميا الكهانة عن أبيه لأنها كانت وراثية عند اليهود ولكنه زهد فيها، لأنه أدرك بثاقب بصيرته فساد قومه وآثر أن يعظهم، وأن يوضح لهم العبرة والعظة في مصير المملكة الشمالية، حتى أنه أنذرهم وحذرهم، ولم يتورع عن تشبيه هيكل سليمان في القدس بهيكل «شيلوه»، حيث كان تابوت العهد أولاً. وكأنما أراد أن يقول لبني قومه أن هيكل أورشليم سيلقَى المصير نفسه إذا لم يستجيبوا لنصحه، إلى أن جاء بختنصر الملك الكلداني واقتحم أسوار القدس (٥٨٧ ق.م) وحطمهما ودمر الهيكل، ومنذ هذا الوقت لم يقم لليهود كيان سياسي يعتد به إلى ظهور الدولة الصهيونية الحديثة.

وكان إرميا قد امتدت دعوته من السنة الثالثة عشرة لحكم الملك يوشيا بن آمون وثلاثة ملوك من بعده، حتى دالت المملكة الجنوبية، ومع أن يوشيا قد قام بإصلاحاته الدينية التي أسلفناها، إلاَّ أننا لا نجد أثراً لعمل هام لإرميا خلال فترة حكم يوشيا، وربما كانت بينهما قطيعة، ومهما يكن من أمر فإننا لا نجد ذكراً لإرميا فيما أورده سفر الملوك الثاني عن عثور حلقيا الكاهن على التوراة في هيكل

سليمان، والتي نجم عنها إصلاحات يوشيا المعروفة ودليلنا على ذلك أنه لما أراد الملك مشورة الأنبياء لم يلجأ إلى إرميا، بل لجأ إلى خُلْدة النبية، في حين أننا لا نقرأ في سفر إرميا أي وصف لإصلاحات يوشيا التي يصفها سفر الملوك بإسهاب. ونحن نتساءل حقاً: هل كانت هناك خلافات بين إرميا ويوشيا، أم أن إرميا كان حديث السن أيامها فلم يلجأ يوشيا إلى مشورته؟ أم أن إرميا لم يجد في هذه الإصلاحات ما هو جدير بالذكر.

أما الدور الهام الذي قام به إرميا فقد بدأ بعد موت يوشيا، حيث أراد أن ينقذ بني إسرائيل من الوقوع بين قطبي الرحى، في صدام دولتين كبيرتين بابل في الشمال الشرقي ومصر في الجنوب الغربي، وأن ينأى به عن التحالف مع دولة ومعاداة الأخرى، وأن يجعل اتكاله على الله القوي لا على سطوة مصر وقوة بأسها. وقد تحققت نبوءة إرميا، حيث قال في خطبة من خطبه: «كيف تقولون نحن حكماء، وشريعة الرب معنا؟ إن قلم الكتبة الكاذب قد أحالها كذباً، لقد خزى الحكماء، وفزعوا وأُخِذُوا، لقد نبذوا كلمة الرب، فماذا فيهم من الحكمة؟ ولأُعْطِيّن نساءهم لآخرين وحقولهم لمُحتلِّين لأنهم جميعاً ـ من صغيرهم إلى كبيرهم يحرصون على السُحْت! وهم جميعاً ـ من النبي إلى الكاهن يأتون الزور... قال الرب لأُبيدنهم إبادة... تجمعوا حتى ندخل المدن الحصينة، ونصمت لأن الرب إلهنا قد أخرسنا وسقانا نقيع سمّ، لأننا أخطأنا إلى الرب، انتظرنا السلام، فما أصابنا خير، وترقبنا الشفاء، فإذا بالبلاء من دان في شمال فلسطين ـ تجاوبت جَلَبَة خيله، ومن صدى صهيل جياده ارتجفت كل الأرض، ثم وصلوا فالتهموا البلاد وما فيها، والمدينة وسكانها، ها أنا ذا أبعث عليكم أفاعي رَقْطاء لا راقي لها فتلدغكم! يقول الرب» [إرميا ٨:٨ ـ ١٧]، وهذه الأفاعي الرقطاء هي صورة بلاغية لجيش بختنصر الكلداني.

وعلى ذلك فالخراب الذي تنبأ به إشعيا حلّ زمن إرميا، حيث ورد في سفر

إشعيا (٩:١٤) ما نصه: «فيقطع الرب من إسرائيل الرأس والذَّنب، السعف والعسيب في يوم واحد، الشيخ والرئيس هو الرأس، والنبي الذي يُعَلِّمُ بالكذب هو الذَّنب. . . ».

وطوال هذه المدة كان إرميا النبي ينادي بدعوته، معلناً إرادة الله نحو الشعب ورؤسائه، وقد كابد في سبيل دعوته هذه أمرَّ صنوف الأذى والعنت وخاصة أيام الملك يهوياقيم، وكثيراً ما تعرضت حياته لخطر الموت، وبعد موت «جداليا بن أحيقام» الذي عيّنه ملك بابل والياً على ما تبقى من اليهود في القدس، هرب إرميا مع بعض أفراد من اليهود إلى مصر، وظلّ هناك يتنبأ وينذر، محاولاً أن يهدي اليهود إلى طاعة الله والخضوع لمشيئته، ومن المرجح أنه مات ودفن في مصر.

وكانت رسالة إرميا دينية قبل أن تكون سياسية، لأنه أراد أن يبين لهم فداحة آثامهم وخطاياهم، وأن يفهمهم بأن المصائب التي حاقت بهم، إنما مردُّها إلى إهمالهم التمسك بالعقيدة اليهودية والابتعاد عن البدع الوثنية، وألا يمزجوا ما تلّقوه من الأنبياء بعبادات الأمم المجاورة، ولذلك ثاروا عليه وتنكّروا له ولم يستجيبوا لوعظه[1].

ودار الزمن دورته، فاليهود عندما ضربهم الله بالذلة والمسكنة، سُحق في نفوسهم الأمل فتشرّدوا وسُبوا إلى بابل. وهناك التف المنفيون في مهانتهم السياسية إلى ديانتهم يتلمّسون فيها العزاء، فقامت نهضة روحية عميقة. وأملاً في غد أفضل في ظل نمو فكرة انتظار المسيح المخلّص، وهي فكرة كانت قائمة كما يدَّعي الكثير من الباحثين واليهود منهم بوجه خاص. وقد تأولوا ذلك من خلال فقرتين في كل

(١) القس ألفرد نيلسن الدانيماركي: تفسير سفر إرميا، نقحه حبيب سعيد، دار النشر والتأليف للكنيسة الأسقفية بمصر، (ص ٥ ــ ١٠).

التوراة، فالفقرة الأولى (تكوين ٤٩ : ١٠) تنص على أنه: «لا يزول صولجان من يهوذا ومُشْتَرِع ومُشَرِّع من سلالته حتى يأتي شيلو وتطيعه الشعوب» وإن كانت «شلو» « שִׁלֹה » العبرية تعني الذي له ــ صاحبه ــ ولذلك اختلف الباحثون في تحليلها.

أما الفقرة الثانية والتي توهّم بعض الباحثين أن فيها ما يدل على المسيح المنتظر، وهي ما جاء نصّه في سفر العدد (٢٤ : ١٧) فهي «إنني أراه وليس حاضراً، أبصره وليس قريباً، يبرز كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل، فيحطم طرفي مؤاب، ويخسف كل أبناء الغرور». وهي فقرة ليست أقل غموضاً من الفقرة السابقة.

هذه المرحلة الجديدة من مراحل الديانة اليهودية قد عبّرت عنها رؤى حزقيال نبي المنفي، فالديانة اليهودية قُضي عليها بتدمير هيكل سليمان على يد بختنصر. وأتيح للفكر اليهودي في زمن السبي أن يدرك أن يهوه هو الإله الواحد للعالم كله، وشعر الذين في المنفى أن ما حلّ بهم من شقاء كان نتيجة مؤكدة لعدم اتباعهم شرائع يهوه، وتكاثر عدد الأنبياء في هذه المرحلة وأصبحوا يفكرون في الخلاص على يد يهوه. وهكذا وُجِدَت الوحدانية العالمية بعد أن تحررت من قيود المشاكل السياسية الضيقة. وتجدد الأمل في حياة دينية جديدة تدور حول المعبد الذي سيبنى من جديد. على أن عدم تمكنهم من إقامة طقوس عبادتهم في المنفى بصورة مكتملة، يرجع إلى بعدهم عن الهيكل في القدس ــ حسب إداعاءاتهم ــ وعدم استطاعتهم تقديم القرابين، ولذلك غيّروا في طريقتهم لممارسة هذه الطقوس، فاستبدلوا بالقربان الصيام والصلاة، وتغاضوا عن أداء طقوس السبت في معظم الأحيان[1].

---

(١) د. سيد فرج راشد: القدس عربية إسلامية، (ص ٨٣ ــ ٨٤).

الفصل الرابع

اليهود في العصرين الهلينستي والروماني

* يهود فلسطين ومصر في العصر الهلينستي (اليوناني بعد الإسكندر).
* يهود فلسطين ومصر في العصر الروماني.
* يهود برقة في العصرين الهلينستي والروماني.

يهود فلسطين ومصر في العصر الهلينستي
(اليوناني بعد الإسكندر)

قرر اليهود ــ منذ سيادة الفرس على فلسطين (حوالي قرنين) ــ أن ينظموا أنفسهم ليكونوا مجتمعاً سياسياً دينياً جديداً، ولكن الشكل الجديد للمجتمع اليهودي بعد العودة من السبي البابلي كان يختلف اختلافاً جوهرياً عن ذي قبل، فمنذ هذا الوقت أصبح الحكم ثيوقراطياً تحت سيطرة الكهنوت، بمعنى أن أصبح الشكل الجديد للمجتمع اليهودي دينياً أكثر منه سياسياً، فقد كان تأثير الكهنة سائداً ربما منذ عصر عزرا. والواقع أن تسمية الكاهن الأعظم لم تأتِ من كونه الموجه الأعظم للعبادة فقط، ولكن لكونه على رأس التنظيم السياسي، وهي سلطة طائفية بمعنى أن تجمع الزكاة من اليهود، وتتولى إدارة القضاء بينهم وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم، واستمر منصب الكاهن الأعظم وراثياً بحيث أنه كان يرأس مجلساً للسنهدرين كجهاز تنفيذي، ويبدو أن هذا الشكل الجديد للمشكل الجديد للمجتمع اليهودي ــ الذي أسلفنا الحديث عنه ــ قد استمر أثناء فترة السيادة الفارسية والسيادة الإغريقية[١].

وبعد أن دمَّر الإسكندر الأكبر داريوس الثالث ملك الفرس في موقعة إسوس (Issus) في خريف عام ٣٣٣ ق.م، توقع المجتمع اليهودي في فلسطين قدراً من الحرية أكثر من التي منحهم إياها، وطبقاً لرواية يوسيفوس فإن الإسكندر عند

(١) Schürer: A History of The Jewish People in the time of Jesus, NewYork, 1978, P. 14.

حصاره لمدينة صور أرسل إلى الكاهن الأعظم في القدس يطلب منه المساعدة في حصارها بإرساله جنوداً من اليهود، فرفض الكاهن الأعظم ولاءً منه للملك الفارسي دارا الثالث، ونتيجة لذلك ثار الإسكندر وصمم على الانتقام من الكاهن الأعظم بعد أن ينتهي من السيطرة على صور؛ وقد انتهى هذه الفرصة سنبلط حاكم السامرة الذي سار ومعه سبعة آلاف مقاتل من السامريين لمساعدة الإسكندر في حصاره لصور. ونتيجة لهذه المساعدة طلب سنبلط موافقة الإسكندر على بناء المعبد السامري على جبل جريزيم لصهره الكاهن منسَّا الذي انشق على المجتمع اليهودي في القدس، فوافق الإسكندر على طلبه. وبعد استيلائه على صور سار إلى القدس لينتقم من الكاهن الأعظم، ولكنه خرج لاستقباله خارج المدينة ومعه الكهنة في ملابسهم البيضاء. وعند رؤية الإسكندر للكاهن الأعظم هب لتحيته، وقد أوضح لقواده سبب تصرفه هذا الذي أدهشهم، بأن هذا الكاهن الأعظم قد تراءى له في الحلم مبشراً إياه بالنصر على الفرس.

وبعد ذلك ذهب معه الإسكندر إلى الهيكل في القدس حيث قدَّم القرابين ليهوه، وهناك عرض عليه الكاهن سفر دانيال الذي تنبأ بأن أحد قواد الإغريق سوف ينتصر على الإمبراطورية الفارسية، وعلى أثر ذلك قبل اليهود الخدمة في جيش الإسكندر[1]. كما ذكر يوسيفوس أن جنود سنبلط الذين ساعدوا الإسكندر عند حصاره لصور، أحضرهم معه إلى مصر وأقطعهم أرضاً في طيبة وعيّنهم حراساً على هذا الإقليم[2]. ومن المهم أن نشير إلى أن رواية يوسيفوس عن وجود السامريين في طيبة في عصر الإسكندر لا تستند إلى أدلة واضحة. وإذا سلمنا جدلاً

(١) Jos: Ant, XI, VIII, 4.

راجع د. مصطفى عبد العليم: اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨، (ص ٣٠).

(٢) Jos: Ant, XI, VIII, 6.

بصدق دعواه على أنه في إقليم الفيوم قرية تسمى السامرة إلاَّ أن إقليم الفيوم لم يكن جزءاً من منطقة طيبة، ومن المحتمل أن يكون سكان هذه القرية من السامريين الذين أحضرهم بطلميوس الأول على نحو ما أورده يوسيفوس نفسه، ومن المرجح أنهم جاءوا مع توافد اليهود إلى مصر منذ بداية عصر البطالمة[١].

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من المؤرخين رفضوا رواية يوسيفوس عن زيارة الإسكندر للقدس وهي الرواية التي انفرد بذكرها، ومن بينهم تشركوفر حيث ذكر أن روايته فيما يتعلق بتقديم الكاهن الأعظم لسفر دانيال إلى الإسكندر لا تقوم على أساس تاريخي سليم، حيث إن السفر حتى عصر الإسكندر لم يكن قد ظهر بعد، وإنما تم جمعه بعد الإسكندر بحوالي خمسين سنة، وبالتالي فإن قصة زيارة الإسكندر للقدس وتقديمه القرابين إلى يهوه لا تقوم على أساس متين[٢].

وبينما كان الإسكندر في مصر، أحرق السامريون أندروماخوس الذي كان الإسكندر قد عينه حاكماً على جوف سوريا[٣] وهربوا من السامرة، فأثار هذا الحادث حفيظة الإسكندر الذي قرر الانتقام بأن دمر مدينة السامرة. وكانت هذه أولى علاقات الثورة في سوريا وفلسطين، ومن المحتمل أن الإسكندر بعد تدميره للمدينة أسرع إلى بابل بعد أن كلف بيرديكاس (٣٢٣ ـ ٣٢١ ق.م) بإعادة بنائها وتوطين المقدونيين بها.

وقد تصدَّى تشركوفر لهذا الرأي حيث افترض أن الإسكندر وهو في طريقه من مصر إلى صور ـ عندما علم بحرق السامريين لأندرو ماخوس ـ قد كلَّف

---

(١) مصطفى عبد العليم: المرجع السابق، (ص ٣١).

(٢) Victor Tcherikover: Hellenistic Civilization and the Jews, 1979, P. 45.

(٣) جوف سوريا كان إقليماً يشمل فلسطين وجنوب سوريا ويحده شمالاً جبل حرمون (الشيخ) وشرقاً نهر الأردن وغرباً البحر المتوسط، غير أن سوريا البطلمية تشمل جوف سوريا وفينيقيا. راجع: إبراهيم نصحى (ج ١، ص ٧١).

بيرديكاس بمعاقبة السامريين، ولم يكن الإسكندر نفسه هو الذي قام بهذا العمل، كما أنه أمر بيرديكاس بتوطين جالية مقدونية في السامرة بعد ذلك[1]. كما أشار الكاتب اليهودي أوريل رففوط إلى أن الإسكندر قد أعطى إقليم السامرة إلى اليهود وأعفاهم من الجزية بعد حرقهم لأندروماخوس، ونتيجة لذلك أصبحت شكيم مركزاً لتجمعهم. وأضاف جاستر أنه في أعقاب ذلك صحب الإسكندر عدداً كبيراً من اليهود والسامريين حيث استقروا في مصر، وبذلك حملوا نزاعهم العنيف من فلسطين إلى مصر[2].

ومع مجيء الإسكندر إلى مصر في عام ٣٣٢ ق.م، بدأ توافر اليهود من جديد. وكانت مصر من بين الدول الهلينستية التي استوعبت عدداً كبيراً من يهود الشتات (Diaspora)[3] الذين جاءوا من يهوذا في فلسطين، وانتشر اليهود في مصر على نطاق واسع وقامت لهم جاليات حسنة التنظيم، كان من أبرزها جالية الإسكندرية دون شك. وقد نقل اليهود إلى الإسكندرية نشاطهم الفكري والاقتصادي، مما جعل منها مركزاً من أهم مراكز اليهودية في العالم القديم[4].

ومن الصعب أن تصدق ما زعمه المؤرخ اليهودي يوسيفوس من أن الإسكندر عند تخطيطه الإسكندرية لدى إنشائها اهتم بأن يخص اليهود بالحي الرابع من أحياء المدينة[5]. وذلك أن عددهم، مهما بالغ مؤرخو اليهود لم يكن كبيراً حتى يستقلّوا

---

(١) Jos: Contra Opionem, II, 4.
راجع أوريل رففورط: تولدوت يسرائيل بتقوفت هبيت هشيني (تاريخ إسرائيل من فترة البيت الثاني)، (ص ٥٦).

(٢) Gaster: Op. Cit, P. 33.

(٣) يطلق على اليهود الذين كانوا يقيمون خارج يهوذا في العصر الهلينستي اسم يهود الشتات (Diaspora) راجع: G. Ricciotti: The History of Israel, Vol. II, P. 169.

(٤) Ricciotti: Op. Cit, P. 170.

(٥) Jos. C. Apion. II. 35.

بحي من أحياء المدينة. والذي يمكن تصوره هو أن نفراً محدوداً من اليهود هم الذين صحبوا الإسكندر إلى مصر بعد استيلائه على فلسطين. وإذا كان عددهم قد تزايد فإن ذلك لا بدَّ أن يكون قد حدث على عهد بطلميوس الأول وخلفائه. ولعل بطلميوس الأول هو الذي رتَّب إقامتهم في الحي الرابع ولم يغلقه عليهم ليصير «جيتو»، ولم يحرِّم على غير اليهود الإقامة فيه لا سيما وأن يوسيفوس يعود فينسب هذا العمل لهذا الملك[1]. وهذا أمر طبيعي ذلك أنه جلب إلى مصر عدداً من أسرى اليهود نتيجة لحملاته في فلسطين[2].

ويقدر بعض المؤرخين عدد اليهود في الإسكندرية على عهد الملك بطلميوس الثاني بمائة وعشرين ألفاً وذلك استناداً إلى يوسيفوس[3]. ولكن هل يمكن التسليم بهذا التقدير؟ فهذا عدد مبالغ فيه إذا قورن بعدد اليهود الذين كانوا في السبي البابلي في عام ٥٨٧ ق.م والذي يتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ أسيراً، واعتبر اليهود أن إجلاء هذا العدد الضخم كان كارثة بالنسبة لليهود[4].

وبوفاة الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.م يبدأ في العالم الإغريقي العصر الذي أطلق عليه «العصر الهلينستي»، والذي ينتهي بموقعة أكتيوم عام ٣١ ق.م وهي التي بعدها بسط الرومان سلطانهم على مصر[5]، وقد قسمت الدولة المقدونية بين قواده إلى دويلات، وكانت مصر من نصيب بطلميوس الأول سوتر (المنقذ ٣٢٣ ــ ٢٨٣ ق.م)، وفي عام ٣١٩ ــ ٣١٨ ق.م استولى على فينيقيا وجوف

---

(١) Jos. B.J. 11, 467 C.f. Ps. Aristeas. 13.

(٢) د. إبراهيم نصحي: تاريخ مصر في عصر البطالمة، (ج ١، ص ٨٥) وما يليها.

(٣) Jos. Ant. 12, 2.1 C.F. C.I.J. II, P. 351.

(٤) C.P. Jud, I. P. 4 No. 10.

(٥) د. إبراهيم نصحي: المرجع السابق (ج ١، ص ٣٩).
راجع د. فؤاد حسنين: فلسطين العربية، القاهرة ١٩٧٣م، (ص ٨٠ ــ ٨١).

سوريا، وفي هذه الفترة كان قد هاجم القدس واستولى عليها، وكانت الظروف تضطره أحياناً إلى الانسحاب من جوف سوريا ثم العودة إلى احتلالها مثلما حدث في عامي ٣١٢، ٣٠٢ ق.م[1] ثم استقرت أوضاع البطالمة في فلسطين عام ٣٠١ ق.م، وكما أسلفنا فقد كان من الطبيعي أن ينقل بطلميوس الأول معه إلى مصر ــ نتيجة لهذه الحملات ــ عدداً كبيراً من الأسرى من يهوذا ومن السامرة، أي أنه نقل معه أسرى من اليهود والسامريين وقام بتوزيعهم في مصر وأعطاهم في الإسكندرية امتيازات مساوية للمقدونيين أنفسهم[2].

وقد ظلَّت فلسطين تحت حكم البطالة مدة طويلة امتدت من عام ٣٠١ إلى عام ١٩٨ ق.م، عندما أطاح أنطيوخوس الثالث الملك السلوقي بالحكم البطلمي في جنوب سوريا، بعد أن أوقع الهزيمة الساحقة بجيش بطلميوس الخامس عام ١٩٩ ق.م. وتعطينا برديات زينون ــ مجموعة وثائق خاصة بزينون وكيل أعمال أبولونيوس ويزر مالية بطلميوس الثاني ــ صورة حية عن التبادل التجاري بين مصر وفلسطين، ممّا استتبع توافد الكثيرين من اليهود ليفيدوا من فرص الثراء التي أتاحتها الإسكندرية، صاحبة المكانة الأولى في تجارة البحر المتوسط. هذا إلى جانب أن البطالمة فتحوا أبواب مصر على مصراعيها أمام رأس المال الأجنبي وأمام الخبرة الأجنبية، وإلى جانب ذلك شجَّع البطالمة استخدام اليهود جُنداً مرتزقة في جيشهم، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من جموع الأجانب الذين جندهم

---

(١) إبراهيم نصحي: المرجع السابق (ج ١، ص ٧١، ٧٨، ٧٩).
راجع مصطفى عبد العليم: المرجع السابق، (ص ٣٣).

(٢) Jos: Ant, XIII, I, 1.

Ricciotti: Vol. II, P. 154.

ويذكر د. مصطفى كمال عبد العليم أن بطلميوس الأول قد نقل أسرى اليهود إلى مصر خاصة بعد موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م.
راجع مصطفى عبد العليم: المرجع السابق، (ص ٣٣).

البطالمة في جيشهم.

والصورة العامة التي نخرج بها من دراسة نشاط اليهود الاقتصادي، هي أنهم أحرزوا ولا شك نجاحاً واضحاً، وإن كان ذلك لا ينفي وجود يهود عملوا في وظائف متواضعة.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أنه كان في الإسكندرية ثلاث مجموعات من السكان وهم:

١ ـ الإغريق مواطنو المدينة.

٢ ـ الإغريق غير المواطنين.

٣ ـ الأجانب.

ومنح البطالمة الإغريق من غير المواطنين الحق في تشكيل جاليات (Politumuta)، وكذلك فعلوا بالنسبة لبعض جماعات الأجانب، وكان اليهود من بين هؤلاء الأجانب. والجالية تتكون من عناصر ذات جنس واحدة، وتعترف لها الدولة بشخصية معنوية واضحة من حيث استطاعتها تصريف شؤونها وحقها في تشكيل مجالس خاصة بها، فضلاً عن جانب لا بأس به من الاستقلال في تطبيق قوانينها القومية.

ومن الرسالة المنسوبة إلى أرستياس، وهو داعية يهودي، أنه كان على رأس الجالية اليهودية طائفة من الشيوخ وطائفة أخرى من زعماء الشعب.

وذكر استرابون الذي زار مصر مع الفتح الروماني لها، أنه كان رأس جالية يهود الإسكندرية رئيس أو زعيم يحمل لقب اثنارخيس (Ethnarchês)، وأنه كان يباشر سلطات إدارية وقضائية واسعة[1]. وواضح أن استرابون يصف أوضاعاً كانت سائدة في العصر البَطْلمي، وهذا يعني أن الرسالة المنسوبة إلى أرستياس قد أغفلت

(١) Strabo ap. Jos. Ant. XIV, 117.

الإشارة إلى هذا الرئيس الذي كان يشغل منصباً خطيراً دون شك. ويفترض البعض أن هذه الإشارة قد سقطت عند نسخ المخطوطة الأصلية للرسالة، في حين افترض بعض المؤرخين أن الجالية كانت تضم مجلساً يحمل اسم مجلس الشورى أو مجلس الشيوخ أو السنهدرين[1]، وذلك على غرار تنظيمات اليهود في أورشليم[2].

ولا شك في أن أهم ما حصلوا عليه من امتيازات في إطار الجالية، حقهم في التمتع بقدر كبير من الاستقلال القضائي طبقاً لشرائعهم وقوانين آبائهم[3]. على أي حال لنا أن نفترض أن الجالية اليهودية بالإسكندرية كانت تباشر تطبيق شريعتها وخاصة في المسائل المتصلة بالأحوال الشخصية. وواضح في استرابون أن الاثنارخيس كان يشرف على إدارة شؤون الجالية ويفصل في المنازعات والقضايا التي يكون اليهود طرفاً فيها. بل إن البعض يذهب إلى القول بأن هذا الرئيس كان يرأس المحاكم اليهودية والمجالس القضائية في جالياتهم المنتشرة في أنحاء كثيرة في مصر[4]. ونضيف إلى ما تقدم أن القائمين على شؤون الجالية كانوا يقولون

---

(١) السنهدرين: أول سنهدرين كان على عصر موسى عندما دعا السبعين رجلاً ليعملوا معه على أثر تذمر أتباعه مطالبين بالعودة إلى مصر. وقد منح الرومان السنهدرين صلاحيات دينية واجتماعية واسعة، على ألاّ تؤثر هذه السلطات على المصالح السياسية الرومانية. وكان للحاكم الروماني الصلاحيات في التصديق على أحكام السنهدرين التي يصدرها في الجرائم الكبرى، ويبلغ عدد أعضائه واحداً وسبعين عضواً، منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص.

(٢) مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق، (ص ٨٠).

(٣) Jos. Ant. XIV. 195, 199, & C.P. Jud. I. P. 7.

(٤) ثابت من مصادر التلمود أنه كان ليهود الإسكندرية محكمة خاصة بهم. وراجع أيضاً بخصوص محكمة اليهود في العصر الروماني. C.P. Jud. I. P. 32.

راجع: J. Juster. Les Juifs dan L'Empire Romaine, paris, 1914. Vol. II, P. 111, No. 1.

جباية الأموال التي يهبها اليهود لصالح هيكل أورشليم، إلى جانب الضرائب التي فرضتها التوراة على اليهود وهي ضريبة نصف الشاقل (الليرة الإسرائيلية الحالية)[١]، وضريبة أبكار الأرض[٢]. ولعل هذا الالتزام المالي كان الرابطة التي تربط بين اليهود الشتات وبين مركزهم الديني في أورشليم. وكان تحصيل هذه الضرائب وإرسالها إلى أورشليم بمعرفة الجاليات اليهودية يتمو بموافقة الحكومة البطلمية دون شك[٣]. وكل ذلك يعطي الانطباع الكافي بأن الجالية اليهودية في الإسكندرية كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية والاستقلال الذاتي[٤].

ثمة سؤال: هل بعد ذلك كان اليهود في الإسكندرية يطمحون إلى أن تكون لهم حقوق المواطنة في المدينة؟

والجواب: أن هذه المسألة أثيرت في العصر الروماني، لأسباب سنعرض لها فيما بعد. وكان من الطبيعي أن يحاول المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن يثبت أن يهود الإسكندرية تمتعوا بهذه الحقوق في العصر البطلمي، بل حاول أن ينسب إلى الإسكندرية نفسها منحهم هذه الحقوق؛ وقال إن الإسكندر سمح لليهود بالإقامة في الإسكندرية على قدم المساواة التامة مع الإغريق، وأن خلفاءه اعترفوا بدورهم على هذا النحو[٥].

ونسب يوسيفوس إلى الإمبراطور كلوديوس قوله: إن الملوك البطالمة الأوائل منحوا اليهود الحقوق السياسية على قدم المساواة مع الإسكندريين[٦].

إذا كان يوسيفوس قد نسب إلى الإسكندر أنه قد سمح لليهود بالإقامة في

---

(١) سفر نحميا (١٠ : ٣٣ ـ ٣٤، ٣٠ : ١١ ـ ١٦).

(٢) سفر الخروج (١٣ : ١٩).

(٣) J. Juster, I, Op. Cit, P. 378.

(٤) Juster, I, P. 718.

(٥) Jos. Ant. XIX, 281.

(٦) Jos. C. Ap. ii, 34. F.

الإسكندرية على قدم المساواة مع الإغريق، فليس من الصعب القول أن يوسيفوس يتعمد المبالغة، ذلك أن الإسكندر لم يتسع وقته ليضع تفاصل البناء السياسي للمدينة. وحتى إذا كان قد فعل فقُصارى ما نفهمه أنه سمح لليهود بحق تشكيل جالية. وسنرى أن يوسيفوس زيَّف أقوال الإمبراطور كلوديوس[1].

وإزاء كل ما تقدم نستطيع القول بأن اليهود لم يكونوا مواطنين في الإسكندرية، وأن حسبهم الامتيازات التي تمتعوا بها في إطار جاليتهم. ومن ناحية أخرى ما نحسب أن اليهود، في سبيل الظفر بمواطنة الإسكندرية كانوا على استعداد للارتداد عن ديانتهم، ومما يؤكد هذه الحقيقة أن كاتب سفر المكابيين الثالث ذكر أن بطلميوس الرابع عرض عليهم مواطنة الإسكندرية بشرط قيامهم بعبادة الإله ديونوسوس ولكنهم رفضوا[2].

إن مجتمع اليهود في الإسكندرية بأوضاعه تلك التي أوضحناها عاش في المدينة وهو يباشر حياته الخاصة حسبما تقضي شريعته غير متطلع لحقوق المواطنة السكندرية. وكان حريصاً على الاقتراب من المجمع الإغريقي السكندري ليفيد من كل فرص النجاح التي تهيئها له الحياة في الإسكندرية، فاصطنع اللغة الإغريقية ونقل إليها التوراة في عهد بطلميوس الثاني والتي عرف باسم الترجمة السبعينية[3]،

---

(١) راجع مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق، (ص ٨٦) وما يليها.

(٢) مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق، (ص ٨٣) وما يليها.

(٣) يرجع السبب في هذه الترجمة السبعينية إلى أن اليهود الذين هاجروا إلى مصر نَسُوا اللغة العبرية، ولذلك طلب الملك بطلميوس الثاني فيلادلفيوس إلى الكاهن الأعظم إلعازار في أورشليم أن يرسل رجالاً ذوي خبرة في القانون وفي اللغتين العبرية واليونانية، لكي يترجموا التوراة إلى اليونانية، فاختار له الكاهن الأعظم ٧٢ من العلماء بواقع ستة من كل قبيلة، وأرسلهم إلى مصر وجلسوا في أماكن منفصلة، وأنجزوا في ٧٢ يوماً ترجمة يونانية للتوراة العبرية عرفت باسم الترجمة السبعينية.

وأسهم بعض أفراده في الأدب السكندري وإن كانوا قد عالجوا موضوعات يهودية، وإنما التزموا النموذج الإغريقي. وكذلك كان لهم فلاسفتهم مثل أرسطو بولوس، الذي تمتع بمكانة طيبة في بلاط الملك بطلميوس السادس، ولا نستبعد أن يكون بعض اليهود قد ترددوا على دور العلم وألحقوا أبناءهم بطريقة أو بأخرى بمنظمات الجمنازيوم (الفتوه). وهناك من الشواهد ما يدل على أنهم أطلقوا على أبنائهم الأسماء الإغريقية أو أنهم ترجموا أسماءهم إلى اللغة الإغريقية حتى تبدو إغريقية غير شاذة.

وهكذا نرى أن اليهود في الإسكندرية عاشوا جنباً إلى جنب مع المجتمع الإغريقي دون أن يحدث صدام بينهما، وإن كان اليهود ـ كعادتهم ـ قد حرصوا على ترديد القصص عن اضطهاد لحق بهم مرتين، مرة في عهد بطلميوس الرابع والمرة الثانية على عهد بطلميوس يوارجيتيس الثاني، والواقع أن ذلك لم يكن اضطهاداً بالمعنى المفهوم، وإنما كان لأسباب أخرى ليس من بينها الدين[1].

وفي أوائل العصر الروماني كان اسم سوريا ما يزال يطلق أيضاً على فلسطين، ولما لم تكن لدينا وسيلة للتمييز بين اليهود والسوريين في الوثائق، فإنه لا جدوى في السعي إلى تحديد دقيق لعدد اليهود الذين حضروا مع بطلميوس الأول إلى مصر[2].

وقد تعرضت يهوذا وما جاورها من البلاد لحروب دائمة بين الملوك السلوقيين (الثاني والثالث والرابع) وبين الملوك البطالمة (الثاني والثالث) بغرض

---

(١) مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق، (ص ١١٣) وما يليها.

(٢) Schürer: Op. Cit, P. 14.

راجع سليم حسن: مصر القديمة (ج ١٤، ص ٧٣٤ ــ ٧٣٥).

مصطفى عبد العليم: المرجع السابق (ص ٣٤ ــ ٣٥).

فؤاد حسنين: المرجع السابق (ص ٨٤).

السيطرة على إقليم جوف سوريا، إلاَّ أن إقليمي فينيقيا وجوف سوريا ظلتا تابعتين لمصر، وحاول سليوقس الثاني استمالة سكان فينيقيا وجوف سوريا لكي يفصلهما عن مصر، وكان قد نجح في استمالة الكاهن الأعظم أونياس الثاني إلى جانبه[١]، وكان قد امتنع عن تسليم الجزية التي كان يقوم بجبايتها لمصر سنوياً، وعلى أثر ذلك حذر بطلميوس الثالث (يورجتيس (Euergetes) = الخيِّر) اليهود من النتائج المترتبة على هذا العصيان لكي يعدل الكاهن الأعظم عن موقفه إلاَّ أنه رفض [٢]. وفي هذه الفترة ظهر رجل قوي يدعى يوسف بن طوبياس عارض خاله الكاهن الأعظم، ولذلك عينه بطلميوس الثالث مسؤولاً عن جباية الجزية من فينقيا وجوف سوريا بعد أن أمده بقوات من الجيش لتساعده في مهمته، وقد استمر يوسف في هذا المنصب حوالي اثنين وعشرين عاماً[٣].

وبعد وفاة بطلميوس الثالث خلفه بطلميوس الرابع (فيلوباتور = المحب لأبيه)، وأثناء فترة حكمه دبَّ الضعف في مصر، فانتهز الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث المسمَّى الأكبر (٢٢٢ ــ ١٨٧ ق.م) هذه الفرصة واستولى عام ٢١٨ ق.م على جوف سوريا بما فيها السامرة، ولم يستطع السيطرة على إقليم يهوذا ومنطقة القدس وظلتا تابعتين لمصر[٤].



---

(١) Jos: Ant, XII, 1-4.

لكن دكتور راسل أشار إلى أن بطلميوس الرابع هو الذي امتنع في عهده الكاهن الأعظم أونياس الثاني عن دفع الجزية وليس بطلميوس الثالث.

راجع: D.S. Russell: Betwean The Testaments, P. 26.

(٢) Jos: Ant, XII, IV, 5-6.

(٣) Jos: Ant, XII, IV, 6-10.

(٤) Jos: Ant, XII, IV, 6-10.

الفصائل المتأغرقة (المتأثرة بالإغريقية) والخروج على الشريعة اليهودية

وبعد وفاة بطلميوس الرابع في عام ٢٠٣ ق.م انتهز أنطيوخوس الثالث ملك سوريا وفيليب ملك مقدونيا، الفرصة لتقسيم مصر والأقاليم التابعة لها فيما بينهما، وقد تعاون أبناء يوسف بن طوبياس مع أنطيوخوس بدافع من حقدهم على البطالمة، حتى أنهم ساعدوا ملك سوريا على دخول القدس، وهكذا سقطت يهوذا والقدس في قبضته السلوقيين عام ٢٠٢ ق.م[1]. وفي ظل هذا التوتر حدث صراع بين السلطة الدينية اليهودية المحافظة وبين السلوقيين، الذين خططوا لإدخال الحضارة الهيلينية في المجتمع اليهودي وإبعاد هذا المجتمع عن تقاليده الموروثة بقدر الإمكان ونتج عن ذلك:

١ ــ تساهل في التقاليد الدينية المفروضة على الشباب اليهودي واشتراكهم في الألعاب الأولمبية.

٢ ــ الجانب الثقافي: وهو أن الفكر اليوناني بدأ يتسلل إلى المعتقدات الدينية اليهودية، ومِنْ ثَمَّ فقد ظهرت الفرق اليهودية الأخرى مثل الأسينيين والصدوقيين.

---

(١) د. إبراهيم نصحي: المرجع السابق (ج ١، ص ١٦٩ ــ ١٧٠).
راجع فؤاد حسنين: المرجع السابق، (ص ٨٩).

كل هذا كان يعتمد على أخذ ورد من داخل الفلسفة اليونانية، فعلى سبيل المثال نجد أن الصدوقيين كانوا ينكرون «الثواب والعقاب» في الآخرة متأثرين بالفكر اليوناني الأبيقوري بالذات.

وعلى ذلك نشأ فريقان متنافسان، وكان ياسون (كان اسمه العبري يوشيا وغيّر اسمه الاسم اليوناني ياسون) قد نجح في تولي منصب الكاهن الأعظم متحمساً للحضارة الهيلينية، ومن ثم فقد أصبح زعيماً للفريق المتأغرق بمساعدة السلوقيين. وقد تحول الصراع بين الفريقين المتنافسين إلى صراع ديني، وبلغ من تطرف أعضاء الفريق المتأغرق (المتأثر بالإغريقية)، أنهم تنكروا للعادات والشريعة اليهودية، وفي ظل هذا الصراع ظهرت جماعة دينية من اليهود المحافظين الذين عرفوا في التاريخ اليهودي باسم «الحسيديم»[1]، أعلنوا معارضتهم لتلك الوثنية الهيلينية. وفضلاً عن ذلك فقد سمح في عهد الكاهن الأعظم ياسون. بتأسيس الجومنازيوم بشكله اليوناني[2]. بالقرب من الهيكل في القدس، وقد اشترك بعض الكهنة من صغار السن في ممارسة الألعاب الإغريقية داخله، كما أن التمادي في الانحراف عن الشريعة اليهودية أدى إلى اشتراك بعض اليهود في تقديم القرابين للإله هرقل[3].

---

(١) الحسيديم «الأتقياء» وهو اللقب الذي أطلقته طائفة الفريزيين على أنفسهم، وهم طائفة علماء الشريعة من الربانيين قديماً. وكانت لهم السلطة في توجيه المجتمع اليهودي على عهد المسيح، كما كانوا من أشد خصومه.

(٢) كان الشباب من صغار السن يلتقون في الجومنازيوم، حيث يتم تدريبهم عسكرياً وتثقيفهم بمختلف علوم العصر.

راجع إبراهيم نصحي: المرجع السابق (ج ١، ص ٤١، ٤٢).

(٣) ٢ مكابيين (٤ :١٨ ــ ٢٠).

راجع فؤاد حسنين: المرجع السابق (ص ٨٩).

وقد جعلت العوامل السابقة الانفجار الثوري قاب قوسين أو أدنى ضد السلوقيين، ولذلك سارع الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع أبيفانس (١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م) بمهاجمة القدس لمزيد من النكاية في اليهود وشريعتهم حيث اقتحم المعبد واستولى على كنوزه، وكان الكاهن الأعظم منيلاوس ـ الذي عيّنه الملك السلوقي ـ هو الذي أرشده إلى المكان الذي كانت توضع فيه هذه الكنوز والآنية المقدسة، وفي أعقاب ذلك بنى أنطيوخوس مذبحاً وثنياً وضع فيه هذه الكنوز والآنية المقدسة، وأجبر اليهود على أن يتخلّوا عن عقيدتهم وأن يوقروا الآلهة الوثنية، كما أجبرهم على بناء معابد ومذابح وثنية، وهكذا بسط الحزن جناحيه على القدس، وإمعاناً في تحدي إله إسرائيل أدخل أنطيوخوس الرابع عقيدة زيوس أليمبيوس[١] في القدس، حيث بنى مذبحاً جديداً، وأحرق التوراة المحفوظة بالمعبد، ووضع صورة زيوس على المعبد المقام لتقدم إليه القرابين مباشرة، وبذلك حوّل الهيكل إلى مكان لهذه العبادة، وإيذاناً بتدشين المعبد قدّم أنطيوخوس خنزيراً كقربان حيث نثر دماءه على المذبح الجديد وكان ذلك في يوليو عام ١٦٧ ق.م[٢] [٢ مكابيين ٥:١٥ ـ ١٦، ٦:٢، ١٨].

ويبدو من وصف يوسيفوس للأحداث، أنه في نهاية القرن الثالث وبداية

---

(١) عقيدة زيوس: أعجب معظم الشباب اليهودي بالحضارة اليونانية، وكانوا يشتركون في كثير من الألعاب الإغريقية، وأخذ على كثير منهم تهاونه في مراعاة أحكام الدين اليهودي، مما استدعى سخرية الإغريق عند رؤيتهم للشباب اليهودي المختتن، مما جعل بعضهم يجري عمليات جراحية لكي يخفى الاختتان خلال مباريات المصارعة. فظهرت طائفة شديدة التعصب لليهودية أطلق عليها القنائين كرد فعل للانحراف الديني للشعب اليهودي المفتتن بالحضارة الإغريقية، فعيد زيوس عيد رقص وعربدة كما كان احتفالاً بمقدم الخريف.

(٢) K. Kenyon: Digging up Jerusalem, Newyork, (1974), P. 190.

M. Cary: A History of the Greek world from 323 to 146 B.c. (1965). P. 228.

القرن الثاني قبل الميلاد. قد أصبحت فلسطين تشكل إقليماً منفصلاً بجانب أقاليم جوف سوريا وفينيقيا[1].

ونتبين من هذا أن أنطيوخوس أبيفانس قد دمَّر الهيكل في القدس وحوّله إلى مكان لعبادة زيوس أليمبيوس، وأوقف عبادة يهوه، وأجبر اليهود على أن يذبحوا للآلهة الوثنية، كما أطلق على المعبد السامري (على جبل جريزيم) اسم جوبيتر هيلينوس، وهذه الإجراءات التي اتخذها أنطيوخوس للقضاء على الديانة اليهودية، كانت سبباً ساعد على تطور الصراع بين الديانة اليهودية والهيلينية الوثنية يوماً بعد يوم، حتى اندلعت ثورة المكابيين التي وضعت هدفها الأساسي في استعادة الهيكل وتطهيره. وبذلك جاءت النتيجة مختلفة تماماً عما توقعه أنطيوخوس، فقد عجزت السلطات السلوقية عن قمع الاضطرابات، وقد ظهرت في هذا الجو العاصف أسرة اشتهر أبناؤها بالتدين والتمسك بالشريعة وأحكامها تعرف باسم المكابيين، وقد استطاعت قواتها في عام ١٦٦ ق.م بقيادة «يهوذا المكابـي» أن تهاجم القوات السلوقية بقيادة «أبولونيوس» حاكم الإقليم السامري الذي قتل في المعركة وكان النصر حليف المكابيين.

وعندما علم أنطيوخوس أبيفانس بنتيجة المعركة مع المكابيين، أرسل «سيرون» (Seron) قائد جيش جوف سوريا لمهاجمتهم، ولكن بعض اليهود المتأغرقين أرشدوا الجيش السلوقي إلى أقصر الطرق وأصلحها إلى يهوذا. ونتيجة لهذا فقد دبَّ الرعب في نفوس أفراد جيش يهوذا المكابـي عندما أبصروا قوة الجيش السلوقي، إلاّ أن يهوذا المكابـي آثار حميتهم عندما خطب فيهم مذكِّراً إياهم بكنوز المعبد الثمينة والآنية المقدَّسة التي سيدافعون عنها وبأبنائهم وعقيدتهم، فرفع معنوياتهم واستطاع المكابيون أن يحققوا نصراً على الجيش السلوقي عند «بيت عورون». وعندما أدرك أبيفانس أنه أساء تقدير قوة المكابين

---

(١) Jos: Ant. XII, IV, 1-4.

حشد جيشاً آخر أكثر قوة تحت قيادة ليزياس (Lysias) قوامه أربعون ألفاً من المشاة وسبعة آلاف من الفرسان، وكان أبيفانس قد عقد العزم على أن يهدم القدس ويُسْكِنها أقواماً وثنيين بدلاً من اليهود، ولكن يهوذا المكابي أخذ يحث جنوده على التمسك بالعقيدة وقسّم جيشه إلى ثلاثة أقسام وعيّن على كل قسم أحد أخوته، وبذلك أحرز يهوذا نصراً آخر على السلوقيين عند «إمارس» ثم عاد اليهود إلى «موديم» (Modem) مركز تجمعهم مرة ثانية[1].

وفي خريف عام ١٦٥ ق.م عاد ليزياس مرة أخرى على رأس جيش كبير قوامه ستون ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان للانتقام من يهوذا المكابي، إلاّ أنهم فضّلوا الانسحاب نتيجة للحماس الديني الذي أظهره المكابيون.

وهكذا بعد ثلاثة أعوام ونصف منذ اندلاع الحروب بين السلوقيين والمكابيين حلّت هدنة انتهز يهوذا المكابي خلالها الفرصة وهاجم القدس واستطاعت قواته أن تحطم المذابح الوثنية والتماثيل اليونانية وزودوا المعبد بمذبح طاهر جديد. وقد استغرقت هذه العملية ثلاثة أسابيع. وفي ٢٥ كسلو (ديسمبر) ١٦٥ ق.م أعيد فتح الهيكل في القدس للشعائر اليهودية حيث أقيمت صلوات الشكر، وقدمت القرابين، واعتبروا هذه المناسبة عيداً أطلقوا عليه عيد التدشين أو عيد الحانوكة[2].

ومرة أخرى عاد يهوذا المكابي إلى تطبيق النظام الكهنوتي القديم من حيث تعيين الكهنة واللاويين في المعبد، كما أقصى الذين انحرفوا واتبعوا الهيلينية عن الخدمة في المعبد.

وفي أعقاب الحروب المكابية مع السلوقيين لم يحاول أنطيوخوس الخامس

---

(١) Jos: Ant. XII, VII, 1, 2, 3, 4, 5.

(٢) ٢ مكابيين (١٠: ١ ــ ٧)، ١ مكابيين (٤: ٣٦، ٥٤).

أن يكرر ما فعله أبيفانس مع اليهود، وإنما ترك لهم حرية أكثر، وبالتالي فإن الحزب المتأغرق قد اضطهد إلى حد كبير، وبانتهاء الحروب المكابية في عام ١٦٢ ق.م تحوّل الصراع الديني إلى صراع سياسي[١]. وقد أصبح ديمتريوس الأول ـ ابن أنطيوخوس الرابع ـ ملكاً على سوريا بعد قتله أنطيوخوس الخامس واستطاع بعد ذلك اكتساب تأييد الرومان[٢].

وأهم ما يعنينا في هذا المقام، أن قادة الحزب المتأغرق وعلى رأسهم ألكيمس (Alcimas) قد أرسلوا إلى ديمتريوس يشكون من الظلم الواقع عليهم من يهوذا المكابي، والذي كان قد طرد أتباع الملك أيضاً ونتيجة لهذا عيّن ديمتريوس «ألكيمس» كاهناً أعظم، وسيّر الجيش السلوقي تحت قيادة بكيدس (Bacchides) إلى يهوذا لتعيين ألكيمس في منصبه بالقوة إذا لزم الأمر[٣]، وما أن سمع المكابيون وأنصارهم بذلك حتى ولّوا الأدبار، وأعلن الحسيديم (الأتقياء) ولاءهم للنظام الجديد لاعتقادهم أن الكاهن الأعظم ألكيمس من نسل هارون، وكان قد مُنح السلطة السياسية والإدارية علاوة على السلطة الدينية، وانتهز ديمتريوس فرصة ضعف المكابيين وهزمهم في أبريل عام ١٦٠ ق.م وبذلك انتهت أسطورة المكابيين[٤].

ومن هذا يتبين لنا أن أمور اليهودية لم تكن مستقرة خلال هذه الفترة ولم يشكل اليهود الكثرة الغالبة من السكان، وأنهم كانوا يتمتعون بالاستقرار فقط حينما كانوا يستعينون بقوة أجنبية لمساندتهم، كما أن الفلسطينيين في عصر المكابيين

---

(١) Schürer: Op. Cit, P. 317.

(٢) ١ مكابيين (٧: ١ ـ ٤).

(٣) ١ مكابيين (٧: ٥ ـ ٩)، ٢ مكابيين (١٤: ٣ ـ ١٠).

(٤) ١ مكابيين (٧: ١٠ ـ ١٥).

راجع: Jos: Ant, XII, 1O, 1-4.

Schürer: Op. Cit, P. 40-41.

كانوا يمثلون تهديداً للكيان اليهودي حتى إن يهوذا المكابي عندما شعر بخطرهم حاول القضاء عليهم، ومعنى هذا أن خطورة الفلسطينيين كانت مستمرة بشكل متواصل.

وبعد وفاة يهوذا المكابي لجأ الإخوة الحشمونيون (Hasmoneams) (اسم علم يستخدم للإشارة إلى الملوك المكابيين) يوناتان وشمعون ويوحنان إلى تكوين حزب قومي للصمود أمام الحزب المتأغرق، وعلى الرغم من أن الهيلينية قد كفلت للحشمونيين حرية العبادة وإقامة الشعائر الدينية، إلاّ أن يوناتان استغل فرصة الاضطرابات التي حدثت في سوريا نتيجة انقسام المملكة السلوقية بين ديمتريوس وألكسندر واقتحم المعبد في عيد المظال عام ١٥٢ ق.م وأعلن نفسه كاهناً أعظم، فكان بذلك أول حشموناني يصل إلى هذا المنصب حيث ظل به يوناتان تسع سنوات (١٥٢ ــ ١٤٣ ق.م) تميزت بالتقدم، ولكنه أُعدم عام ١٤٣ ق.م على يد «تريفون Tryphon» أحد قواد ديمتريوس[١].

وفي أعقاب ذلك قام شمعون ــ آخر أبناء متتياهو الكاهن المكابي ــ بتحرير البلاد من السيطرة السلوقية، كما تخلَّص من الحزب الهيليني. وكان شمعون قد وضع نفسه في خدمة روما حيث أصبح ضمن رابطة الولايات الرومانية. وعموماً فقد اتَّسم حكمه الذي دام تسع سنوات (١٤٢ ــ ١٣٤ ق.م) بالازدهار، وبقيت زعامة الأسرة الحشمونية على اليهود حتى بسط الرومان سلطانهم على فلسطين في عام ٦٣ ق.م[٢].



---

(١) ١ مكابيين (١٣ : ١٨).

راجع: Jos: Ant, XIII, 1, 1-6.

(٢) E. Shürer: A History of the Jewish People in the time, Newyork, 1978, PP. 65-66.

يهود فلسطين ومصر في العصر الروماني

بعد أن بسط الرومان سيطرتهم على فلسطين، أصبحت تحت سيطرة الحاكم الروماني لسوريا، وقد تمتعت السامرة بقدر من الحرية السياسية خلال العصر الروماني، وخاصة عندما أصبح جافينوس حاكماً على سوريا (٥٧ ـ ٥٥ ق.م)، وقد أصدر هذا الحاكم أوامره بإعادة بناء كل المدن التي دُمِّرت من قبل ومن بينها مدينة السامرة وبيت شان[١]. وكان جافينوس قد اتخذ عدة إجراءات سياسية جديدة بجانب تعمير السامرة وغيرها من المدن، حيث قسّم أرض فلسطين إلى خمسة أقاليم تحكم حكماً ذاتياً مع وجود سلطات قضائية وإدارية، وهي القدس، وأريحا، وجازر، والجليل الأعلى، وشرق الأردن. وكان الغرض الظاهر من هذا التقسيم بلا شك هو تسهيل جمع الضرائب، ولكن الهدف الرئيسي لجافينوس كان تفتيت الكيان اليهودي. كما تبيّن لنا أن هدف السياسة الرومانية هو إعادة الصبغة الإغريقية للمدن والمناطق التي كان المكابيون قد هوّدُوها[٢].

وعندما آلت زعامة روما لقيصر (Caeser) بعد أن هزم بومبـي عام ٤٨ ق.م،

---

(١) Jos: Ant, XIV, V, 3.

Montgomery: Op. Cit, P. 82-83.

(٢) Ricciotti: Vo.. II, PP. 306-307.

Schürer: Op. Cit, PP. 102, 336. Note. 4.

عيّن هيركانوس كاهناً أعظم في القدس، وأعلم أنتيباتير مواطناً رومانياً مسؤولاً عن جباية الضرائب في فلسطين، وبعد فترة من تعيين هيركانوس كاهناً أعظم صدر قرار بتعيينه رئيساً على بقايا اليهود (إثنارخيس). وقد ترتب على ذلك إلغاء التقسيمات الإدارية والسياسية التي كان جافينوس قد أدخلها.

وبعد فترة من الزمن قام هيرودس (ابن انتيباتير) بدور الوصي على الكاهن الأعظم هيركانوس، حيث عاد الوئام بينهما مرة أخرى، حتى أنه تزوج مريم حفيدة هيركانوس، وفي تلك الأثناء عيّن أغسطس الإمبراطور الروماني هيرودس الأدومي ملكاً تابعاً له على ما بقي من اليهود في فلسطين حكم خلالها من عام ٣٧ حتى عام ٤ ق.م، وهكذا جلس على العرش ملك وصفه الشعب استهجاناً بأنه ملك نصف يهودي لافتقاره إلى الجذور الدينية القومية. وقد كانت السنوات الأولى من حكمه (٣٧ ـ ٢٥ ق.م) بمثابة حروب مستمرة هدفها دعم سلطانه، ونجح عن طريق القسوة في التغلب على العقبات الخارجية والداخلية التي كانت تعترض طريقه، ففي هذه الفترة كان النزاع على السلطة ما زال مستمراً بين المكابيين، رغم أنها سلطة هزيلة تتصل بجمع العشور من اليهود وتنفيذ الأحكام الشرعية بينهم نتيجة لسيطرتهم على القضاء[١].

وفي تلك الظروف انتهز هيرودس الفرصة وهاجم مدينة القدس عام ٣٧ ق.م بمساعدة القائد الروماني سوسيوس، وأحكم عليها الحصار وقصفها بالمنجنيقات حتى تحطمت أسوارها ثم اقتحمها، وفي أعقاب ذلك نصّبه الإمبراطور الروماني أغسطس ملكاً كما أسلفنا، وكان هيرودس ـ الذي كان ينتمي إلى أصل أدومي ـ قد اعتنق الديانة اليهودية، إلاّ أن اليهود اعتبروه أجنبياً وزادت كراهيتهم له بعد أن استأصل شأفة المكابيين لقتلهم والده.

---

(١) شمعون دوفنوف: هيميم لعام يسرائيل (تاريخ الشعب الإسرائيلي) (ص ١٦٠، ١٦١، ١٦٤).

على أن الأمور أخذت تسير بعد ذلك وفقاً لميزان القوي الجديد بعد أن آلت زعامة روما لأغسطس، واستطاعت السامرة أن تعيد إليها الاهتمام خلال فترة حكم هيرودس، إذ وقفت بجانبه في نضاله ضد انتيجونوس الحشموني، وهناك تزوج مريم وفيها دفن أبناءه، وقد أخذ على عاتقه إعادة بناء السامرة فبدأ عام ٣٠ ق.م بإقامة سور حول المدينة عزّزه بأبراج في مواقع متعددة على امتداده، وعند انتهائه من بناء المدينة وطّن بها حوالي ستة آلاف من المحاربين الإغريق القدماء، واتخذها مقراً لتجميع القوات المرتزقة، وكان هيرودس قد أطلق على مدينة السامرة اسم «سبسطية» تكريماً للإمبراطور أغسطس سبستيان وأصبحت عاصمته المفضّلة.

وبعد أن أعاد بناء مدينة السامرة خطّط لبناء مدينة قيسارية في نهاية طريق السامرة الساحلي، لتكون حلقة الاتصال بينها وبين الساحل، وكانت غالبية سكانها من الإغريق والرومان.

ولكي يكسب تأييد ما بقي من اليهود في فلسطين ــ مع علمه بكراهيتهم الشديدة له ــ أعاد تخطيط مدينة القدس ودعّم أسوارها، وعندما أحسّ بالخطر نقل مقر قيادته من القصر القديم إلى قلعة جديدة سميت باسمه، كما أقام قلعة تشرف على الهيكل سميت قلعة «أنطونيا» تكريماً لحاميه «مارك أنطونيو».

وفي تلك الأثناء جمع هيرودس اليهود من مختلف طبقتهم في السنة الثانية عشرة لحكمة وأخبرهم بإتمام تحصين القدس ولم يبق سوى الهيكل، وأوضح لهم أن عملية إعادة بنائه على أيدي آبائهم بعد العودة من السبي البابلي، قد تمت على النحو الذي حدّده لهم الملك قورش الفارسي. فلم يظهر بالمظهر اللائق، ثم أصبحوا تابعين للإغريق، وبعد ذلك لم يتمكن المكابيون من إعادة تعميره بسبب انشغالهم بالحروب والنزاع على السلطة، فخاف اليهود من عملية الهدم أولاً،

ولكنه وعد بإحضار كل ما يلزم لعملية البناء. ولم يلبث هيرودس أن قام بإعادة بناء الهيكل على مساحة تبلغ عشرين فداناً، أي: ضعف مساحة هيكل نحميا. أما الأروقة الملكية فكانت تحيط بالهيكل من اتجاه الجنوب، وكان الهيكل متصلاً بالمدينة العليا عن طريق جسر مرتفع. كما شيّد مسرحاً دائرياً وساحة للسباق ليقام عليها الألعاب الأولمبية. وهكذا كانت القدس في عهده مدينة لها طابعها الوثني الدموي، لا يميزها عن غيرها سوى وجود الهيكل ومقر الكهنوت اليهودي والمعروف بالسنهدرين كما أسلفنا.

أما بالنسبة للنظام الكهنوتي في القدس فقد أصابه الضعف، حيث حلّ محلّه نظام التعيين لشغل منصب الكاهن الأعظم بدلاً من نظام الوراثة. وذلك ليتحكم هيرودس في من يشغله حسب أهوائه الشخصية.

وتوالى بعد وفاة هيرودس بعض الولاة من اليهود، وتعاقب على حكم فلسطين بعد ذلك حكام من الرومان كانت في عهدهم كإقليم يتبع الحاكم الروماني لسوريا.

وعندما فتح الرومان مصر في أغسطس من عام ٣٠ ق.م، كان اليهود يشكلون عنصراً هاماً من عناصر سكانها بعد أن تزايد عددهم بفضل ما نعموا به من أمن وطمأنينة إبان العصر البطلمي، وتبعاً لذلك ازدهرت جالياتهم وبصفة خاصة جالية الإسكندرية، وأصبح اليهود عنصراً له خطره في حياة البلاد الاقتصادية والسياسية.

وقد قال فيلون، الفيلسوف السكندري: إن فلاكوس (Flacus) حاكم مصر الروماني (٣٢ ــ ٣٨م) كان يعرف أنه كان في مصر كلها طبقتان من السكان، نحن (اليهود) وهؤلاء (الإغريق)، وأن عدد اليهود في الإسكندرية ومصر كلها كان

لا يقل عن مليون نسمة[١]. ولما كان المؤرخ اليهودي يوسيفوس قدَّر عدد سكان مصر بسبعة ملايين ونصف مليون نسمة[٢]، فإن ذلك يعني أن يهود مصر بلغوا (٨/١) ثمن عدد سكانها تقريباً وهي نسبة ضخمة دون شك.

وعدد سكان الإسكندرية من اليهود في عهد الملك بطلميوس الثاني، طبقاً لرواية يوسيفوس كان مائة وعشرين ألفاً[٣]، وطبقاً لروايته أيضاً فإن حوالي خمسين ألف يهودي لقوا مصرعهم في فتنة الإسكندرية عام ٦٦م[٤]، وأن أكثر من ستين ألفاً[٥] من اليهود قتلوا في فتنة أخرى وقعت في عام ٧٠م. وهذه مبالغة واضحة إذ أراد يوسيفوس أن يضخم من عدد ضحايا ألفتنين. ونحن نفضل الأخذ بتقدير مودونا، وهو أن عددهم بلغ في عهد فيلون مائتي ألف نسمة[٦].

لقد أدركت روما منذ احتكاكها بالشرق الهيلينستي أن الحضارة الإغريقية نشرت ألويتها على الولايات الشرقية بحيث لم يكن في وسعها سوى الاعتراف بالوضع القائم، مع محاولة استغلاله لصالح الإدارة الرومانية في تلك الولايات، ولذلك اعترفت بتفوق العنصر الإغريقي، وفتحت أبواب العمل أمام الإغريق في الإدارة المحلية. ويبدو أن أغسطس عندما أخذ في تنظيم شؤون مصر التزم هذه الخطوط العريضة للسياسة الرومانية، إذ أعفى الإغريق من مواطني المدن الإغريقية من دفع ضريبة الرأس، وساوَى بذلك بينهم وبين طبقة المواطنين الرومان التي كانت تفوقهم في المنزلة.

---

(١) Philo, In Flacc. 43.

(٢) Jos. B.J.2. 385.

(٣) Jos. Ant. 12-2-1.

(٤) Jos. B.J. 2, 497.

(٥) Jos. B.J.7. 369.

(٦) A. N. Modona, «La vie publica e privata degli Eberi in Egitto, nell'eta ellenistica e romano» Aegypus, 1921, No. 3-4, PP. 253-275.

وقد أقرّ أغسطس الامتيازات التي اكتسبتها جالية اليهود في الإسكندرية منذ عصر البطالمة[١]. وسمح لهذه الجالية بتشكيل مجلس شيوخ، وأن يكون ليهود المدينة رئيس (إثنارخيس Ethnarchês) كان يحكم الشعب (Ethnos) اليهودي ويباشر اختصاصات قضائية وإدارية واسعة. ويذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن مجلس الشيوخ اليهودي ظل قائماً حتى عصره (أي في عصر الإمبراطور فسباسيان ٦٩ ــ ٧٩م). وأنه كان على رأس جالية الإسكندرية جماعة من الرؤساء عُرفوا باسم رؤساء الشيوخ[٢].

وقد كشفت إحدى الوثائق البردية عن وجود دار لحفظ السجلات والوثائق الخاصة باليهود كانت تعرف باسم دار سجلات اليهود، وعموماً فقد كانت جالية اليهود تتمتع بكثير من مظاهر الحكم الذاتي خاصة وأنها كانت على قدر كبير من التنظيم، وأفادت بشكل واضح من الامتيازات التي منحت لها في العصر البَطْلمي، وازدادت في صدر العصر الروماني تماسكاً وتنظيماً. وفضلاً عن ذلك اعترفت الإمبراطورية الرومانية لليهود، وفقاً لسياستها الدينية التي تتسم بالتسامح، بحرية ممارسة شعائر دينهم وتطبيق أحكام شريعتهم، وأن يكون لجاليتهم بالإسكندرية خزانة لجمع الأموال والتبرعات التي كان يقدمها أبناؤها لإرسال نصيب منها إلى هيكل أورشليم[٣].

وكل الشواهد تشير إذن إلى ازدهار أوضاع اليهود في الإسكندرية، وأنهم أصابوا نجاحاً اقتصادياً لا شك فيه. وأنه لا بدَّ وأن يكون عددهم قد تضخم، وأنه كان لا يقل عن مائتي ألف نسمة، كما أسلفنا، لا سيما وأننا نعرف من فيلون أن اليهود كانوا يشكلون أغلبية السكان في حيَّين من أحياء

(١) Jos. Ant. XIV. 187-189.

(٢) Jos. Bel. Jud. VII. 412.

(٣) مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق، (ص ٢٣٦).

المدينة[1]: أحدهما الحي الرابع (حي الدلتا)، والآخر هو الحي الثاني (حي البيتا). وكانت ظواهر الأمور كلها تشير أيضاً إلى اطمئنان اليهود في صدر العصر الروماني إلى إمكان استمرار حياتهم التي ألفوها في العصر البطلمي، وخاصة بعد أن تزايدت أهمية الإسكندرية وزاد حجم نشاطها الاقتصادي بعد انفتاح الطريق إلى الشرق، ولعل يهود الإسكندرية كانوا مطمئنين إلى مؤازرة الحكم الروماني لهم، ذلك أنهم كما أسلفنا ساعدوا الرومان أكثر من مرة على دخول مصر ومكنوهم من دخول الإسكندرية، مرة عام ٥٥ ق.م عندما ساعدوا جابينوس، ومرة أخرى في عام ٤٧ ق.م عندما ساعدوا يوليوس قيصر على فك الحصار الذي ضربه من حوله السكندريون، ومرة ثالثة عندما وقفوا موقفاً سلبياً من كليوباترة السابقة آخر ملوك البيت البطلمي في صراعها اليائس مع أوكتافيانوس.

ولكن فجأة في عام ٣٨ ق.م وفي عهد الإمبراطور جايوس (٣٧ ــ ٤١م) حدث صراع دموي عنيف بين إغريق الإسكندرية ويهودها، كان موضوع عدد من الكتب وضعها فيلون، بقي منها كتابان أهمها: كتابُه بعنوان «ضد فلاكوس» حاكم مصر، أورد فيه تفصيلاً دقيقاً للفتنة وأحداثها[2].

ولنا أن نُعدَّ فيلون من هذه الطائفة اليهودية التي أرادت الاقتراب من المجتمع الإغريقي، إذ ينتمي إلى أسرة عرفت بأرستقراطيتها بين الأسر اليهودية في المدينة، ولم يجد حرجاً في التردد على الجومنازيوم ومشاهدة مبارياته، وفي مشاهدة المسرحيات الإغريقية التي كات تمثل على مسرح المدينة وكثيراً ما أبدى إعجابه بها. كما لم يجد حَرَجاً في الاعتراف بتفوق الثقافة الإغريقية مستدلاً على ذلك «بأن موسى تلقَّى العلم على يد معلمين من الإغريق»[3]. وهذا زعم من الصعب قبوله.

---

(١) Philo, la Flacc; 55.

(٢) C.P. Jud I, P. 75.

(٣) Philo, vita Mos. 1. 21.

ولا جدال أن فيلون هام حباً بالفلسفة الإغريقية واستعار منها أفكاره ومناهجه، وعندما تصدى فيلون لشرح التوراة والتعليق عليها، شرحها بالطريقة الرمزية على غرار شروح الفيثاغوريين والأفلاطونيين لقصص المثولوجيا. وتحولت الشخصيات الدينية في التوراة إلى مجرد رموز لأفكار إغريقية أصيلة.

وفي ضوء ما سبق تستطيع أن نتصور الموقف قبل عام ٣٨م، على النحو التالي: لم يغفر السكندريون لليهود خيانتهم للبطالمة ومساعدتهم للرومان على دخول مدينتهم التي أضحت بين يوم وليلة مجرد مدينة ترزح تحت الاحتلال الروماني، وكان اليهود لا يدخرون وسعاً في إظهار الولاء لأوكتافيانوس دون أن تقيم وزناً لمشاعرهم. ومع تقدم الزمن بالحكم الروماني زاد حقد السكندريين على اليهود إزاء الامتيازات التي ظفروا بها من الإمبراطور، الذي حدّد وضعهم القانوني كمصريين تفرض عليهم ضريبة الرأس، وأعربوا عن هذا في السفر الثالث من كتاب المكابيين وما أحسب إلا أن فيلون نفسه كان يعرب عن حقده على الإمبراطور جايوس وعلى حاكم مصر الروماني في رسائله التي كتبها عن أحداث عام ٣٨م، وأسباب الحقد كامنة في حقوق المواطنة السكندرية التي يطالب بها اليهود، ويرفض الإغريق التسليم لهم بها ويؤيدهم في ذلك السلطة الرومانية الحاكمة.

وبعد أحداث عام ٣٨ لم يخلد اليهود إلى السكينة، وما لبثوا أن شرعوا أسلحتهم في وجه الإغريق، ونعرف أنهم في هذا العام لم يكونوا مسلحين أو هكذا قال لنا فيلون، وكان يهود الإسكندرية قد استخدموا يهوداً من داخل مصر ومن سوريا. وأصدر الإمبراطور كلاوديوس أوامره إلى حاكم مصر بقمع الفتنة بكل حزم[١]. ومما يدل على عنف الصدام بين اليهود والإغريق أن الإمبراطور عبّر عنها بكلمة حرب. وتدل مهاجمة اليهود لإغريق الإسكندرية على هذا النحو أن اليهود

(١) P. Lond 1912, IV. 73-74.

لم ينتظروا النتائج التي تسفر عنها مقابلة وفدهم لجايوس قبل أن يلقَى مصرعه في منتصف فبراير عام ٤١م[١].

وما أن هدأت الأحوال حتى بادر كل من الإغريق واليهود إلى إرسال وفد عنهم إلى روما، وكان الهدف الظاهر للبعثتين تهنئة الإمبراطور بتوليه عرش الإمبراطورية، ومحاولة التخلص من تبعة مسؤولية الحوادث التي جرت مؤخراً في الإسكندرية.

وتجددت الاضطرابات في عصر الإمبراطور نيرون (٥٤ ــ ٦٨م)، ذلك أنه حدثت في أورشليم في عام ٦٦ صدام بين الطبقات العليا لليهود التي تتفق مصالحها مع مصالح روما والطبقات الدنيا من يهود يهوذا، وما لبث الأمر أن تطور إلى التمرد على روما نفسها وظهور الحركات الإرهابية[٢]، وحشدت الإمبراطورية قواتها في الشرق وسحبت من مصر بعض الفرق الرومانية، ومن ثم اشتعل الموقف في الإسكندرية بين اليهود والإغريق. ولعل ذلك كان انعكاساً لما حدث في يهوذا، ويفهم من يوسيفوس أن اليهود كانوا هم البادئين بالعدوان بتجسسهم على اجتماع عقده إغريق الإسكندرية في ملعبها، وحاول تيبريولس يوليوس إسكندر والي مصر (Praefectus) اليهودي الصابىء ــ الذي ارتد عن اليهودية، وعُيِّن من قِبَل الإمبراطور الروماني والياً على مصر ــ أن يقنع اليهود بعدم تنفيذ تهديده بحرق الإغريق المجتمعين في الملعب، ولما لم يستجيبوا له سلّط عليهم الجنود الرومان، وأباح لهم نهب متاجرهم، وقد أورد يوسيفوس وصفاً لما حدث في الحي الرابع، حيث سالت الدماء أنهاراً، وقتل من اليهود خمسون ألفاً[٣].

---

(١) د. عبد اللطيف أحمد علي: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية القاهرة ١٩٦٥، (١٠٧).

(٢) Jos. B.J. ii, 489. FF.

(٣) C.P. Jud. I.P. 79. FF.

ويلاحظ أن الطبقات الدنيا الإسكندرية هي التي كانت وقوداً لهذه الثورية في حين أن الطبقات الممتازة منهم تجنبت هذا المصير بإعلان ولائها للحكومة[١].

وبعد مضي زهاء ثلاثة عشر عاماً على تلك الأحداث التي وقعت في عهد الإمبراطور الروماني كلاوديوس، اندلع لهيب الثورة في أورشليم (القدس) نتيجة للصراع بين الطبقات العليا ـ التي اتفقت مصالحها ومصالح روما ـ والطبقات الدنيا من اليهود في يهوذا، وتطور الأمر إلى الثورة ضد روما نفسها، واشتعلت الحرب بين اليهود والرومان (ثورة اليهود ٦٦ ـ ٧٠م) في عهد الحاكم الروماني فلوروس (Florus) الذي تولى الحكم عام ٦٤م إلى عام ٦٦م، وكانت الثورة قد اندلعت ضد الحكم الروماني في خريف عام ٦٦م وتقدم على أثر ذلك حاكم سوريا الروماني كيتيوس جاليوس (Cetius Gallus) على رأس جيشه في محالة لقمع الثورة في أورشليم، إلاَّ أنه اضطر للانسحاب على أثر هزيمته. واستمرت سيطرة اليهود على أورشليم حتى أصدر الإمبراطور الروماني «نيرون» أوامره إلى قائده فلافيوس فسبازيان (Vespasian) في خريف عام ٦٨م، الذي جاء على رأس جيش قوامه ستون ألفاً (ثلاثة فيالق) وحاصر أورشليم. ووصلت الأنباء بانتحار نيرون في يونيو ٦٨، وتبع ذلك صراع على عرش الإمبراطورية، وفاز به فسبازيان الذي ترك لابنه تيتوس (Titus) مهمة الاستيلاء على أورشليم، وأصبح جيشه مكوناً من أربعة فيالق أحدهما الفيلق الخامس الذي استدعاه من مصر، وفي أغسطس عام ٧٠م سقطت المدينة ودُمِّر هيكلها تماماً، وهكذا قضى على الكيان الذاتي لليهود في فلسطين، وهو ما كان باقياً بعد القضاء على الكيان السياسي لهم على يد البابليين والأشوريين.

وفي أعقاب ذلك فرض الإمبراطور فسبازيان على يهود الإمبراطورية جميعاً

---

(١) مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق (ص ١٨٧) وحاشية (١١٧).

أن يؤدوا ضريبة خاصة للإله جوبيتر كابيتولينوس (Juppiter Capitolinus) في روما، عرفت باسم ضريبة اليهود أو ضريبة الدينارين، وخصصت لها خزانة في روما، ويبدو أن هذه الضريبة أصلاً هي ضريبة نصف الشاقل التي فرضتها التوراة على كل شاب من اليهود يبلغ من العمر عشرين عاماً ـ تُقَدَّم إلى الهيكل ـ ، ومن مصادرنا في مصر نعرف أنها فرضت على كل يهودي ذكراً أو أنثى يزيد عمره على ثلاث سنوات، وكان على كل رب أسرة يهودي أن يقوم بدفع الضريبة عن نفسه وآل بيته وعبيده إن وجدوا. ويرجَّح أن سن الإعفاء من دفعها كان سن الثانية والستين.[1].

لم يقتصر الأمر على يهود مصر بل تعداه إلى يهود برقة وواضح من أقوال يوسيفوس أن الطبقة العليا من يهود قوريني ضاقوا بمقدم الغلاة من يهود يهوذا، وأرشدوا عنهم السلطات الرومانية. وقد حدث أن جماعة من هؤلاء الغلاة ذهبوا إلى مصر والإسكندرية في نفس الوقت الذي جاءوا فيه إلى قوريني، وأرشدت السلطات الرومانية عنهم الطبقات العليا من اليهود كذلك[2]. وقد كان العداء ساخراً بين الطبقتين العليا والدنيا في المجتمع اليهودي في يهوذا، ولا نميل إلى المبالغة في تقدير موقف الطبقات العليا من الغلاة ومجاراة يوسيفوس فيما حاول من إظهار حرصها على إثبات براءتها من الغلاة وأفعالهم. والواقع أن ثورة اليهود في أورشليم إنما قامت بها أول الأمر العناصر المستضعفة منهم ضد الأرستقراطية اليهودية المكونة من طبقة كبار الملاك.

ويشير مونتجمري أنه في بداية ثورة اليهود عام ٦٦م شاركت سبسطية (السامرة) في الثورة حيث تعاون السامريون مع اليهود وحاربوا ضد الرومان، وكما يروي يوسيفوس أن عدداً كبيراً من السامريين اجتمعوا على جبل جريزيم وأعلنوا تحقيرهم للنجاح الذي أحرزه الرومان وأنهم يشاركون اليهود في حريتهم. وعندما

---

(١) مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق (ص ١٧١) وما يليها

(٢) Jos. B.J. VII, 409.

علم فسبازيان بذلك وجد أنه من الضروري أن يوقف تزايد الثورة، فوجه كرليس ـ الذي كان قائدا للفيلق الخامس أثناء حصار تيتوس لأورشليم والذي استمر قائداً للقوات الرومانية في فلسطن بعد تيتوس ـ ومعه ٦٠٠ فارس وثلاثة آلاف من المشاة للقضاء على الثوار، وقد تمكن هذا القائد من ذبح حوالي ١١,٦٠٠ من السامريين بطريقة وحشية، إذ أن الرومان لم يفرقوا بينهم وبين اليهود، وعلى أثر ذلك تفرق السامريون في كل أرض فلسطين[١].

ويجدر بنا أن نشير إلى ما ذكرته دائرة المعارف الدينية، أنه برغم المعلومات القليلة عن الدور الذي لعبه السامريون في ثورة اليهود (٦٦ ـ ٧٠م)، إلا أن هناك احتمالاً كبيراً بأنهم كانوا بمعزل عن هذه الثورة، أو أنهم تصرفوا بصورة مستقلة، حيث كان من الصعب عليهم التعاون مع خصومهم اليهود، ويعود كاتب المقال ويناقض نفسه ويشير إلى أن جانباً من هذه الطائفة قام بالاشتراك في تمرد ديني متعصب، ثم قمعه على يد فسبازيان بإراقة الدماء عام ٦٧م، إلاَّ أنه لم يوضح طبيعة هذا التمرد واتجاهاته السياسية والفكرية ولكنه بالطبع كما أشار يوسيفوس كان بداية تعاون السامريين مع اليهود في ثورتهم ضد الرومان[٢].

ويثير اهتمامنا ما ذكره جاستر أنه على الرغم من فرح السامريين لسقوط القدس في عام ٧٠م، إلاَّ أنهم عانوا كثيراً، تحت ضغط السلطات الرومانية التي لم تميز في قهرهاواضطهادها بينهم وبين اليهود، وهكذا يرى جاستر أن السامريين بموقفهم هذا إنما كانوا بمعزل عن الثورة اليهودية[٣].

وفي ضوء ما سبق نستطيع أن نتصور الموقف بعد فشل ثورة اليهود في أورشليم، وهو أنهم دخلوا مرحلة جديدة في صراعهم مع العالم الوثني وهي

(١) Montgomery: Op. Cit, PP. 87-88.

(٢) Ency. Religion and Ethics: Samaria, P. 164.

(٣) Gaster: Samaritans, P. 37.

مواجهة روما نفسها. وفي أعقاب سقوط أورشليم هربت إلى مصر طائفة إرهابية من غلاة اليهود أُطلق عليها يوسيفوس اسم (Sikarioi)، جاءوا يحرضون يهودها على الثورة ضد روما واتخذوا شعاراً لهم «لا سيد إلاّ الرب»، وانقسم اليهود في الإسكندرية إلى فريقين، كان أحدهما يرى أنه لا سلامة ليهود الإسكندرية ويهود مصر إلاّ في ربط حياتهم بحياة إخوانهم في أورشليم. ولعل هذا الفريق وجد في قدوم طائفة الغلاة فرصته في تحدِّي السلطة الرومانية، أما الفريق الآخر، وهو الذي يتألف من الطبقات الممتازة فكان يرى أنه يجب أن يكيفوا مصالحهم مع مصالح الإغريق في المدينة وأن لا شأن لهم بما يجري في فلسطين. ولذلك تعقبت أفراد طائفة الغلاة وسلمتهم إلى السلطات الحاكمة ليثبتوا ولاءهم على هذا النحو لتلك السلطات[1].

وعلى أي حال فإن يهود الإسكندرية شعروا بأن الأمل في إمكان استمرار التعايش السلمي مع إغريقها يزداد ضعفاً، وخاصة بعد الذي تعرضوا له على أيدي السلطات الرومانية في عهد نيرون، ولذلك مالوا إلى العزلة والتقارب فيما بينهم، وفضلوا الإقامة في الحي الرابع ولكن دون أن يحوِّلوه إلى جيتو.

وعادت الفتنة تطل برأسها من جديد، وعرف من إحدى برديات أعمال شهداء الإسكندرية أن وفداً سكندرياً ووفداً يهودياً وصلا إلى روما، ومَثَلَا بحضرة الإمبراطور تراجان في عام ١١٣م. وحملت البردية على الإمبراطورة أفلوطينا لتحيزها لليهود، وذلك بالسعي لدى أعضاء مجلس الشيوخ ليقفوا إلى جانب اليهود ضد إغريق الإسكندرية، ويستوقف اهتمامنا قول «هرما يسكوس» المتحدث باسم الوفد الإغريقي للإمبراطور «إن ما يزعجنا هو امتلاء قاعة مجلسك باليهود الملحدين»[2].

---

(١) مصطفى كمال عبد العليم: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) عبد اللطيف أحمد علي: المرجع السابق، (ص ١٧٥) وما يليها.

وما لبث حقد اليهود على الرومان والإغريق في أكثر من مكان أن يُفجر عنفاً مدمراً، عندما شبت نار الثورة اليهودية في أول الأمر في برقة ثم امتدت إلى قبرص، وامتدت أيضاً إلى مصر في عام ١١٥م في الوقت الذي كان فيه تراجان مشغولاً بحملته في الشرق، فقد تطلبت تلك الحملة سحب الحاميات الرومانية من كثير من ولايات الإمبراطورية[١].

وقد بدأت الثورة في برقة بالصدام المعتاد بين اليهود والإغريق، سرعان ما تطور إلى صراع يائس خاضه اليهود ضد الحكومة الرومانية نفسها. وتجمع الروايات على وحشية اليهود في مهاجمتهم للإغريق، ويعطينا ديوكاسيوس (Dio Cassius) وصفاً مؤثراً للتمثيل البشع الذي أحدثه اليهود بضحاياهم من الإغريق واليونان، فيروى أنهم كان يُلطخون أنفسهم بدمائهم ويأكلون لحومهم، ويقدِّر ديو كاسيوس عدد الإغريق الذي لقوا حتفهم في برقة بحوالي ٢٢٠,٠٠٠ ألف، وإلى جانب هذه الوحشية قام اليهود بتدمير المعابد الإغريقية وتخريب الطرق والمباني العامة، حتى تحولت برقة في آخر الأمر إلى صحراء يخيم عليها الخراب الشامل. ولم يلبث لهيب الثورة أن امتد إلى قبرص حيث لقى ٢٤٠,٠٠٠ نسمة مصرعهم، وصدر قرار يحرم على اليهود أن تطأ أقدامهم أرضها[٢].

أما بالنسبة لأحداث الثورة في الإسكندرية، فهناك إشارات إلى حدوث صدام بين الإغريق واليهود في أكتوبر ١١٥م وإلى حدوث الثورة أيضاً في ريف مصر حيث انقض اليهود على الإغريق ولجأ الكثيرون منهم إلى الإسكندرية ليحتموا فيها

(١) Dio Cassiui 68, 32.
راجع د. مصطفى كمال عبد العليم: دراسات في تاريخ ليبيا القديم، بنغازي، ١٩٦٦ (ص ١٧١ ــ ٢١٧).

(٢) مصطفى كمال عبد العليم: اليهود في مصر في عصر البطالمة والرومان، (ص ١٨٧) وحاشية ١١٧.

من هجمات اليهود، وفي الإسكندرية دارت معارك عنيفة مع الجالية اليهودية[1].

وفي أثناء ذلك زحف ثوار برقة بزعامة ملكهم لوكاس «لوقا» في شتاء عام ١١٦م، الذي اعتبر نفسه منقذاً لبني جلدته من حكم الرومان. وكان يعمد إلى إثارة الحماس الديني في نفوس أتباعه، وكانت فكرة الخلاص هي التي أوحت إلى هذا الزعيم اليهودي بالقيام بهذه الثورة، التي اختار لها وقتاً مناسباً، لكن تراجان كان موفقاً في حملته في الشرق، ولو أحسن اليهود إعمال رأيهم لربما آثروا عدم القيام بالثورة على الإطلاق. ومع ذلك استمرت فكرة الخلاص تستهوي اليهود وتسيطر على عقولهم، فسنرى مخلِّصاً آخر يظهر في عهد هادريان ويجر الويلات على بين قومه ولنا أن نتساءل لم لم تكن فلسطين مهداً لهذه الحركة التي تستهدف تخليص اليهود؟ والجواب لعل السبب هو أن التفرقة بين يهود فلسطين ويهود الشتات كانت قد زالت منذ تدمير الهيكل وإخضاع يهود الإمبراطورية جميعاً لضريبة اليهود. وربما كان اختيار برقة عن عمد لبعدها عن مراكز تجمع الجيوش الرومانية التي كانت تحارب قيادة تراجان ضد البارثيين. ومع هذا فلا نستبعد أن يكون ابتداء قيام الثورة في برقة بالذات كان من باب الصدفة، وأن ذلك يستتبع اعتبارها شيئاً أكثر من صدام عادي لليهود هناك، على نحو ما كان يحدث في مصر من مصادمات لا تتعدَّى المجال العلمي، ولكن ظهور هذا المخلِّص لوكواس (لوقا) كان السبب في ازدياد النار اشتعالاً، وقد سيطر على عقول اليهود شيء واحد، ألا وهو أنهم جند الرب الذي سيقودهم إلى النصر ويعيدهم إلى هيكل أورشليم، فاندفعوا مسلوبي الإرادة إلى قبرص ومصر يقتلون ويدمرون ويبطشون بالإغريق والرومان وأهل قبرص وأهل مصر[2]، إلاَّ أنهم عجزوا عن دخول الإسكندرية فانتشروا في داخل البلاد تاركين جالية يهود الإسكندرية تلقى أشد الويلات على أيدي

---

(١) عبد اللطيف أحمد علي: المرجع السابق، (ص ١٩٠) وما يليها.

(٢) C.P. Jud. 1. P. 92. FF.

الإغريق[1].

وقد بذلت الحكومة الرومانية كل ما في استطاعتها لتوقف أعمال العنف التي ارتكبها اليهود في ريف مصر. ولم يتم لتلك السلطات التحكم في الموقف بعد وصول فِرَق الرومان إلى مَنْف (ممفيس) في أوائل يوليو ١١٦، واستمر العمل في إخماد الثورة حتى عام ١١٧[2].

وعندما تولَّى الإمبراطور هادريان عرش روما (١١٧ ــ ١٣٨م) صمَّم على القضاء على الكيان اليهودي، وقرر تشييد مستعمرة رومانية محل أورشليم بالإضافة إلى إصداره أمراً بإبطال عادة الختان عند اليهود. كل ذلك كان السبب الحيقي وراء نشوب الثورة اليهودية الثانية (١٣٢ ــ ١٣٥م) ضد الرومان حوالي عهام ١٣٢م بقيادة بركوكبا أحد زعماء اليهود، الذي قام بإعلان الثورة حتى يتمكن من الحفاظ على كيانهم الذاتي، ولكن ادَّعى أنه المسيح المخلِّص، وفي قول آخر أنهم الذين أطلقوا عليه المخلِّص بسبب نجاحهم المؤقت في بداية الثورة، وقد استطاع هادريان إخماد هذه الثورة بعد أن قتل عدداً كبيراً من اليهود، ثم قام بتغيير اسم أورشليم إلى «إيليا كابيتولينا» (Aelia-Capitolina) بعد تشييدها، كما أقام معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان محل الهيكل، واتضح لليهود بعد ذلك أن هذا المسيح المخلِّص لم يكن إلاَّ دجالاً، فقاموا بتغيير اسمه من بركوكبا (أي ابن الكوكب) وجعلوه بركوزيا (أي ابن الكذاب)، وبذلك تقلَّصت أحلام المسيحانية عند اليهود وأكدها هاديان بقضائه على الكيان الذاتي الديني لليهود[3].

---

(١) A. Fuks. The Jewish Revolt in Egypt (A.D. 115-117) in the light of the papyri, Aegyptus 1953, P. 138.

(٢) راجع حاشية رقم ٧٥. A. Fuks: Op. Cit.

(٣) Jewish Quarterly Review: Vol .58, Hungo Mantel; the causes of bar Kokaba revolt, PP. 226-230.

ومن الجلي أن الطائفة السامرية قد تعرضت لأذى شديد في عهد هادريان مثل اليهود في أنحاء اليهودية، حيث أمر الإمبراطور بإحراق معظم كتب التراث السامري. كما يبدو أنهم خرجوا من بلادهم وانتشروا في المناطق التي سبق لليهود أن انتشروا فيها. ويجدر بنا أن نشير إلى ما ذكره أبو الفتح السامري عن موقف السامريين من هادريان خلال الثورة اليهودية الثانية، والتي اتخذ السامريون خلالها موقفاً مخالفاً لموقفهم من الثورة اليهودية الأولى، فيذكر أبو الفتح أن السامريين ساعدوا هادريان في حصاره لأورشليم؛ ونتيجة لهذه المساعدة طرد كل اليهود من نابلس، وأعلن ألاَّ يسكن يهودي فيها وما حولها، وسلَّم السامريون أمور أنفسهم كما ملّكهم على اليهود. وكان هادريان قد أحضر أبواب القدس الكبرى النحاسية وقام بتركيبها على باب معبد سفين جوبيتر الوثني الذي أقامه على جبل جريزيم، وكان من نتيجة إقامة هذا المعبد الوثني على الجبل المقدس أن ثارت ثائرة السامريين، واجتمعوا في السامرة وقرروا هدم هذا المعبد الوثني، وبالفعل تمَّ ذلك وأحرقوا الرهبان وأخذوا أبواب النحاس ودفنوها في جريزيم، وعلى أثر ذلك مضى اليهود إلى هادريان فلما سمع ما فعله السامريون بمعبده، اشتد غضبه وأحرق معظم كتب التراث السامري، وأمر بقتل كل ما هو سامري، ولكن رجلاً سامرياً وقف أمامه وأقنعه بعمق العداوة بينهم وبين اليهود وأنهم يريدون الوقيعة بينه وبين السامريين، فصدق الملك كلامه وندم على قتل السامريين ونادى بألاَّ يقتل سامري وأمر بقتل اليهود، وجرى على اليهود ما جرى على السامريين. وبعد وفاته خَلَفه ابنه أنطونينوس بيوس (Antoninus Pius) (١٣٨ ــ ١٦١م) الذي كان يؤازر السامريين حتى إنه درس التوراة وعمل بمقتضاها. وقد ذكر أبو الفتح أن السامريين في عهد أنطونينوس كانوا يتمتعون بامتيازات مثلما كان الحال أيام يوشع بن نون، وإن كنا لا ندري الأساس الذي بنى عليه أبو الفتح هذه المقارنة[١].

(١) أبو الفتح: تاريخ السامريين (ص ٦٢ ــ ٦٣).

واستمرت هذه الأوضاع قائمة في فلسطين تحت حكم الرومان طوال مائتي عام حتى استولى الإمبراطور قسطنطين على روما وجلس على عرشها، وجعل المسيحية الدين الرسمي للدولة.

• • •

= راجع: Montgomery: Op. Cit, PP. 91-93.

يهود برقة في العصرين اليوناني والروماني

ولمّا كان يوسف قد أوضح أن الهدف الأول لإحضار اليهود إلى برقة كان لتمكين بطلميوس من السيطرة على قوريني ومدن برقة الإغريقية الأخرى، فإن بعض المؤرخين يتوقع أن تسفر أعمال التنقيب مستقبلاً عن ظهور أدلة تؤكد وجود جاليات عسكرية يهودية في مناطق كثيرة على ساحل برقة[1]، إلى جانب ذلك من المعروف أن البطالمة كانوا يقطعون جندهم المرتزقة إقطاعات من الأرض الزراعية في ريف مصر[2] ومن المرجح أنهم فعلوا نفس الشيء بالنسبة لجندهم المرتزقة ومن بينهم اليهود في ريف برقة. والمعروف أن برقة على عهد البطالمة كانت بصفة عامة، بلداً يضم عدداً قليلاً من المدن، وعدداً كبيراً من القرى.

ولم تكن الجندية، فيما يرجح، هي العمل الوحيد الذي نشط إليه اليهود في برقة، بل إنه من المحتمل أن يكون نشاطهم قد امتد إلى العمل في خدمة الحكومة، ذلك لأن برقة كانت في معظم فترات العصر الهيلينستي جزءاً من إمبراطورية البطالمة، ومن الطبيعي أن تكون الإدارة الحكومية فيها قد سارت تقريباً على نسق مثيلتها في مصر، وكان لليهود في تلك الإدارة نصيب وافر.

---

(١) J. Gray: The Jewvish Inscriptions in Greek and Hebrew at Toera Cyrene and Barce, Manchester university press (1965) P. 55.

(٢) إبراهيم نصحي: المرجع السابق، (ص ٤٩٢).

وقياساً على ما كان ليهود الإسكندرية من امتيازات تبدو ممثلة بوضوح في تمتعهم بالاستقلال القضائي، فمن المرجح أن يكون البطالمة قد اعترفوا ليهود قوريني وغيرها من مدن برقة بمثل هذا الوضع وسمحوا لهم بتشكيل الجاليات.

ولما كان قوريني مركزاً من مراكز النشاط الفكري في العصر الهيلينستي، فإنه ليس من المستبعد أن يقبل يهودها على مجاراة جيرانهم الإغريق في مجالات الفكر المختلفة. وقد برز من بين يهود قوريني بالفعل مفكر يُدعى ياسون عاش على الأرجح حوال منتصف القرن الثاني ق.م. وقد وضع مؤلفاً باللغة الإغريقية في خمسة أجزاء عن تاريخ اليهود. وقد أقر واضع سفر المكابيين الثاني أن هذا الكتاب مستخرج من مؤلف ياسون، وينتمي هذا المؤلف على أي حال إلى نتاج المدرسة التاريخية في العصر الهيلينستي[١].

هذا ما كان من شأن اليهود في العصر البطلمي، فماذا كانت أحوالهم وأوضاعهم على عهد الرومان؟

في عام ٩٦ ق.م وبعد وفاة بطلميوس أبيون آخر ملك بطلمي على قوريني آلت مملكة برقة بموجب وصيته المعروفة إلى الرومان، ولكن مجلس الشيوخ الروماني اكتفى بالاهتمام بوضع يده على الأراضي الملكية، ولم يشأ أن يحدَّ من حرية المدن الإغريقية فاعتبرها حليفة لروما، وأطلق لها حرية تصريف شؤونها، فعانت هذه المدن كثيراً من الفوضى والاضطراب وأصبحت نهباً لأعمال الطغيان والاستبداد[٢].

(١) Josephus, Ant, XIV, 7, 2; XVI, 6, 1, 5.

V. Tchericover, A. Fuks, Op. Cit, P. 28.

(٢) عن وصية أبيون.

Justin XXXIX, 5, Tacitus, Ann. XIV, 18.

وقد استمر اليهود يتابعون نشاطهم وحياتهم التي ألفوها في العصر البطلمي وإن كنا نستبعد أنهم ظلُّوا يعملون في خدمة الجيش. وذكر يوسيفوس في معرض حديثه عن فتنة أشعلها يهود قوريني عام ٧٠ م، أن الحاكم الروماني ذبح من أثرياء اليهود بالمدينة زهاء ثلاثة آلاف وصادر ممتلكاتهم.

وإذا كان اليهود في العصر البطلمي قد اطمأنوا إلى الحماية التي بسطها لهم ملوك البطالمة، فإن الإمبراطور أوغسطس أول أباطرة روما زادهم اطمئناناً وأمناً. وقد أصدر هذا الإمبراطور تصريحاً أعلن فيه أن يهود الإمبراطورية أثبتوا ولاءهم للشعب الروماني في الحاضر والماضي وبصفة خاصة عندما كان هيركانوس حَبْراً أعظم زمن يوليوس قيصر. ولذلك فإنه (أي أوغسطس) قد قرر السماح لليهود بمباشرة عادتهم طبقاً لشريعة آبائهم على نحو ما كانوا يفعلون على عهد هذا الحبر، وأن يسمح لهم بإرسال أموالهم إلى أورشليم، ويتوعد كل من يسرق أموالهم أو كتبهم المقدسة بالجلد، ويهدد بمصادرة ممتلكاته. إذن كان في استطاعة يهود برقة في الحكم الروماني مباشرة حياتهم الخاصة بحرية تامة وفي حماية الدولة[1].

وبذلك كانت كل الظروف مهيأة ليعيش اليهود مع جيرانهم من إغريق ورومان وليبيين بهدوء وسلام، فهل مرَّت حياتهم على هذا النحو في العصر الروماني كما حدث في العصر البطلمي؟ وقد يعين على استجلاء الحقيقة والتعرف إلى تاريخ اليهود في ضوء تاريخ برقة في العصر الروماني حتى عام ١١٥م حينما اندلعت ثورتهم العاتية الكبرى فشملت معظم أرجاء برقة. وانقسم تاريخ برقة إلى عدة فترات:

* **الفترة الأولى**: وتبدأ بعام ٩٦ ق.م، عندما آلت برقة إلى الشعب الروماني بمقتضى وصية بطلميوس أبيون واستمرت حتى عام ٦٧ ق.م، وقد تميَّزت هذه الفترة ببعض الاستقرار. ذلك أن مجلس الشيوخ كان متحفظاً في تنفيذ الوصية،

---

(١) Josephus Ant. XVI, VI, 162-164.

فلم يهتم بتمويل برقة إلى ولاية رومانية فور وفاة بطلميوس. بل اكتفى بوضع يده على الأراضي الملكية التي كانت مملوكة للبطالمة، وأعلن أن المدن وما يلحقها أرض حرة على أساس أنها حليفة لروما.

* **الفترة الثانية:** وهي من عام ٦٧ ق.م. حتى عام ٣١ ق.م. وقد اتسمت هذه الفترة بعدم الاستقرار، ولم تفلح فكرة إقامة ولاية رومانية مزدوجة من برقة ومن جزيرة كريت في تخليص برقة نهائية من عوامل الفتن والاضطرابات.

* **الفترة الثالثة:** من عام ٣٠ ق.م حتى عام ٧٠ ق.م. وقد شهدت برقة في هذه الفترة استقراراً وازدهاراً جلبه إليها الرخاء الذي كان طابع الإمبراطورية الرومانية. وفي عهد الإمبراطور أوغسطس عادت برقة لتكون مع كريت ولاية واحدة خاضعة لحكم مجلس الشيوخ، وكان هدف السياسة الرومانية تهيئة الظروف المناسبة لتحسين الأحوال في برقة.

* **الفترة الرابعة:** من عام ٧٠م حتى عام ١١٥م عندما نشبت ثورة اليهود الكبرى. وتلمس مقدمات هذه الفترة في أحداث الفترة السابقة بعد أن تأزمت العلاقات بين اليهود والسلطات الرومانية الحاكمة ليس فقط في قوريني بل في كافة أرجاء الإمبراطورية، إذ تأكد لليهود أن هذه السلطات كانت ماضية في إذلالهم ومعاملتهم على أساس أنهم شعب مغلوب منهزم، فأخضعهم لضريبة اليهود المذلة التي تؤدّى إلى جوبيتر الإله الروماني الوثني.

ولم يقتصر التدهور على العلاقات بين اليهود والرومان، بل أصاب العلاقات بين اليهود والإغريق كثير من الوهن. وبينما تكشف مصادرنا عن فتن ومصادمات تتابع وقوعها في الإسكندرية بين الإغريق واليهود منذ سنة ٧٠م، فإنها على العكس من ذلك تصمت ولا تتحدث عن مثل المصادمات في برقة حتى كانت ثورة اليهود الكبرى التي وقعت سنة ١١٥م، والتي أشعل نارها يهود قوريني ثم ما لبثت أن عمت برقة كلها[١].

---

(١) =A. Fucks: «The Jewish Revolt in Egypt (A.D.115-117) in the Light of the papyri»

قام اليهود بثورتهم تلك في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور تراجان يخوض غمار الحرب ضد مملكة بارثيا. وإزاء عنف المقاومة التي أبداها أهلها، اضطر الإمبراطور إلى سحب بعض الحاميات من الولايات الرومانية لتعزيز قواته في آسيا، وقد بدأت الثورة في قوريني على شكل فتنة لا تخرج عن كونها صداماً عادياً بين اليهود والإغريق، سرعان ما تطور إلى حرب اتخذت طابع الصراع اليائس ضد الحكومة الرومانية نفسها. وقد نصّب اليهود عليهم زعيماً يُدعى أندرياس أو لوكواس (لوقا) كما جاء في رواية أخرى. أو لعله كان يحمل الاسمين معاً، واتخذ لقب ملك. وقد استطاع أن يستولي على المدينة وأن يسيطر عليها واستباحها أتباعه. وتجمع الروايات على وحشية اليهود في مهاجمتهم للإغريق إذ أورد المؤرخ «ديوكاسيوس» وصفاً مثيراً منفِّراً لوحشية اليهود في مهاجمة الإغريق والرومان فنقرأ «أنهم كانوا يأكلون لحوم قتلاهم، ويصنعون من أمعائهم أحزمة يتمنطقون بها، ويلطخون أجسامهم بدمائهم، ويسلخون جلودهم ويتخذونها ملابس لهم، وأنهم عمدوا إلى كثيرين منهم فشطروهم شطرين من رأسهم إلى أسفل، وألقوا بآخرين إلى الوحوش المفترسة، وأرغموا الكثيرين على مصارعة بعضهم بعضاً كما يفعل المصارعون، وقد بلغ عدد الذين أهلكهم اليهود مائتين وعشرين ألف نسمة»[(١)]. ولما كان اليهود يتوقعون أن تأتي النجدات الرومانية عن طريق ميناء أبو للونيا (سوسه)، فقد عملوا على إغلاق الطريق بينها وبين قوريني بدفع كتل الحجارة الضخمة من أعلى التل في منطقة المقابر والاستعانة بأغطية

= Aegyptus 33 (1955).

ود. عبد اللطيف أحمد علي: مصر والإمبراطورية الرومانية، القاهرة ١٩٦٠، (ص ١٨٥ وما يليها.

(١) Dio Cassius LXVIII, 32, 2.

وقارن C.P. Jud. II, N. 437.

عن ما تردد من أن اليهود في مصر كانوا يشوون ضحاياهم.

التوابيت الحجرية الضخمة ليكمل سدَّ الطريق، وأشاع اليهود التخريب والتدمير في المدينة، من ذلك ما لحق بطريق الوادي في المدينة ومعابد زيوس وديميتر وأبو للون وإيزيس والكابيتول وغير ذلك من المسارح[1].

ويبدو أن هادريان أمر بإحلال عناصر جديدة من السكان في أبو للوينا بدلاً من الذين هلكوا في الثورة اليهودية. وقد امتدت الثورة إلى شرق برقة. وجملة القول أن الثورة عمَّت كل المناطق الواقعة بين برينيكي في الغرب والضبعة في الشرق حيث يقوم الدليل على أن تدميراً لحق أحد المعابد في صحراء مصر الغربية.

وثورة اليهود هذه لم تقتصر على برقة بل تعدَّتها إلى قبرص وإلى مصر[2].

وكانت الفتنة بين اليهود والإغريق في الإسكندرية قد بدأت تطل برأسها منذ ١٣ أكتوبر عام ١١٥، ثم هدأت مؤقتاً لتعود وتنتشر في داخلية البلاد، وإزاء شراسة اليهود في مهاجمة الإغريق فرّ هؤلاء إلى الإسكندرية حيث انضموا إلى إغريقها وحملوا على اليهود حملة عنيفة. وفي شتاء عام ١١٦م زحف يهود برقة بزعامة ملكهم لوكواس وبلغوا مشارف الإسكندرية، ولعله إزاء ذلك أشاعوا الدمار في بعض أنحاء الصحراء الغربية، وعجزوا عن اقتحام الإسكندرية فانتشروا في داخل البلاد يشدُّون أزر بني جلدتهم. وخاضت القوات الرومانية حرباً حقيقية ضد اليهود. وكان تراجان قد انتصر في حربه في بارثيا فأرسل قائده الشهير ماركيوس توربو على عجل. ونجح هذا القائد في إخماد الثورة في مصر في يوليو ــ أغسطس

---

(١) S. Applebaum: The Jewish Revolt in Cyrene P. 179.

(٢) عن ثورة اليهود في قبرص، راجع:

G. Hill, A History of Cyprus Vol. I. Cambridge (1949), P. 242. FF.

بلغ عدد ضحايا اليهود ٢٤٠,٠٠٠ نسمة، وحرم أهل قبرص على اليهود المجيء إلى جزيرتهم.

١١٧م[1]. وشملت العمليات الحربية إقليم برقة، فاقتحم توربو أسوار قوريني وأنزل الهزيمة الساحقة باليهود[2]. وإذا كان ديو كاسيوس قد قدّر عدد من هلك من ضحايا اليهود في قوريني وحدها بحوالي ٢٢٠,٠٠٠ نسمة فإن ذلك يجعلنا نرجح أن اليهود تعرضوا في قوريني وغير قوريني لحملة انتقامية استهدفت استئصال شأفتهم، وأن الذين نجَوا منهم بادروا بالفرار من المدن، ولجأوا ـ في رأي البعض ـ إلى القبائل الليبية واحتموا بها، وأسهموا في النضال الطويل بين تلك القبائل والسلطات الرومانية في برقة. ومن غير الواضح مصير لوكواس ملك يهود برقة. وفي رأي فلكن أن الرومان أسروا هذا الملك بالنعل[3].

وقد اضطلع الإمبراطور هادريان بإصلاح ما أفسدته الثورة اليهودية، ويمكن أن نقسم هذه الأعمال إلى مرحلتين:

* **المرحلة الأولى**: وفيها انصرف الإمبراطور إلى ترميم المعابد والمباني والطرق التي لحقها الدمار إبان أحداث الثورة، وإقامة التماثيل التي هشمت أو أزيلت من مكانها.

* **المرحلة الثانية**: تبين أن ما أصاب الولاية كان أخطر من مجرد مبانٍ دُمرت، إذ أن نسبة كبيرة من القوة العاملة النشطة من الإغريق قد قتلت، فكان لا بدَّ من أن يصدر الإمبراطور قراره بإعادة تعمير قوريني، بأن ينقل إليها عناصر إغريقية يكون في إمكانها الاندماج في هيئة مواطني المدينة، وإنشاء جومنازيوم جديد يمكن أن يمتزج فيه المواطنون القدامى بالمواطنين الجدد.

---

(١) عن ثورة اليهود في مصر، راجع:

A. Fuchs. «The Jewish Revolt in Egypt (A.D. 115-117) in the Light of the papyri» Aegyptus 33 (1953).

وعبد اللطيف أحمد علي: المرجع السابق، (ص ١٨٥) وما يليها).

(٢) T. Goodchild, Cyrene and Appollonia. P. 21.

(٣) A. Fucks, Op. Cit, P. 139.

ولم يَكْفِ عصر هادريان لإتمام كل أعمال الترميم، إذ استمرت هذه الأعمال في عهد خلفائه، ويبدو أيضاً أن جهوده لم تفلح في العودة بالمدينة إلى ما كانت
في عهد خلفائه، ويبدو أيضاً أن جهوده لم تفلح في العودة بالمدينة إلى ما كانت
عليه من رخاء وازدهار لأنها وصفت في عهد متأخر بأنها مدينة مهجورة[١].

وثورة اليهود هذه التي لم تقتصر على برقة بل امتدت إلى كل من مصر وقبرص، تستحق الاهتمام، إذ كانت في الواقع صداماً مسلحاً بين اليهود والرومان وخاض الجيش الروماني معارك حقيقية ضد اليهود. وقد كان الثوار على درجة كبيرة من القسوة والشراسة وقد مرَّ بنا وصف ديو كاسيوس لمافعلوه بضحاياهم ببرقة. وكشفت النقوش عن خطة لتدمير الطرق وتخريب المزارع وهدم المعابد الوثنية وتحطيم التماثيل. ومن أجل ذلك وصفوا في البرديات المصرية بأنهم ملحدون مارقون[٢]. ولعلهم أرادوا بتدمير المعابد الانتقام لما لحق بهيكلهم من دمار على أيدي الرومان.

ونتساءل ما الذي حدا باليهود إلى أن يثوروا هذه الثورة العاتية وأن يتولَّى زعامتهم ثائر اتخذ لنفسه لقب ملك؟ والجواب: أن هذه ليست الثورة الأولى وليس لوكواس (لوقا) بأول من اتخذ لقب ملك. ولعل اليهود لم يتخلَّوا عن فكرة المسيح المنتظر. وهذه الفكرة هي التي أوحت إلى الملك أو المخلِّص لوكواس بأن يحض يهود برقة على الثورة لتحرير أنفسهم وبني جلدتهم من حكم الرومان الوثني في برقة ومصر وقبرص وغيرها من ولايات الإمبراطورية. ولعل برقة اتُّخذت مقراً ومهداً لحركة الخلاص لبعدها عن مراكز تجمع الجيوش الرومانية التي كانت تحارب تحت راية تراجان. وهذا يعني أن يهود الإمبراطورية تآمروا واختاروا برقة

(١) P.M. Fraser: «Hadrian and Cyrene with a note by s. Appleebaum» JRS Vol. XL, 1950, P. 84.

(٢) P. Giss. 41, P. Brem. 1.

بالذات. وفي رأي بعض المؤرخين أن الثورة قامت في مراحلها الأولى، وأغرى هذا النجاح لوكواس بالزحف على مصر لنجدة يهودها. وقد أعمت فكرة الخلاص يهود برقة وزعيمهم عن تقدير الموقف حق قدره، وأنهم كانوا يخوضون حرباً يائسة ضد قوى تفوقهم في كل شيء، وسيطر على عقولهم شيء واحد وهو أنهم جند الرب، الذي سيقودهم لا محالة إلى نصر محقق ويعيد إليهم هيكل سليمان. فاندفعوا مسلوبي الإرادة يدمرون ويقتلون ويبطشون بالإغريق والرومان.

وإذا كانت الثورة التي قام بها الغلاة من اليهود في عام ٧٠م لم تلق تأييداً من الطبقات العليا من اليهود، بل إن أفراداً من هذه الطبقات أرشدوا السلطات الرومانية عن هؤلاء الغلاة كما أسلفنا، فما الذي جعل اليهود جميعاً يشتركون فيما يبدو في عام ١١٥م في هذه الثورة؟ من المرجح أن كل محاولات اليهود للتقرب من مجتمع المدن الإغريقية قد باءت بالفشل، وأن السلطات الرومانية كانت حريصة على أن تلزم اليهود موضعهم الحقيقي، وأن تفرض عليهم عام ٧٠م ضريبة اليهود التي كانت رمزاً لذلتهم بعد أن دُمِّر هيكلهم. ولم يفلح ما حققته بعض طوائف اليهود الأغنياء من مكانة رفيعة تقترب من مكانة أثرياء الإغريق في إزالة شعور المجتمع أن اليهود غرباء ودخلاء عليه بحكم انعزالهم في جالياتهم وعدم مشاركتهم مشاركة فعالة في الحفلات والأعياد الدينية التي كان الإغريق والرومان يقيمونها لآلهتهم، ممَّا جعلهم موضع شك واتهام. سيما وأنهم كانوا يتصفون بصفات معينة مثل الجشع والحرص على المال. ومن ناحية أخرى كان اليهود يحرصون على أن يكونوا موضع عطف الأباطرة. وكان الاطمئنان إلى حمايتهم هو السبيل الوحيد أمامهم ليعيشوا في وسط وثني غريب عليهم. ولعل ذلك كله كان الباعث إلى ظهور ما يسمَّى بالعداء ضد اليهودية من جانب الإغريق ليس في برقة فقط ولكن في مصر أيضاً، حيث كان العداء أوضح وأشد في حدَّته.

وبصفة عامة فإن ثورة اليهود في عام ١١٥م تعتبر بحق تعبيراً عما كان يحس به اليهود من يأس وقنوط لا حدَّ لهما، فأقدموا على هذه الأعمال التي لا يمكن أن تغتفر لهم، فزلزل كيانهم وعصف بجالياتهم. ولا نكاد نشك في أنهم انزوَوا بعيداً من المدن وعن أعين السلطات الرومانية[١].



(١) E. W. Bovill: The Golden Trade of the Moors, oxford, 1963. P. 53. FF.
راجع د. مصطفى كمال عبد العليم: اليهود في ليبيا (ص ٢٠٤ ـ ٢٠٧).

خـاتـمة

لعلَّ القارىء وهو يقرأ ما قدَّمنا عن تاريخ اليهود في عصور سلفت من التاريخ القديم أن يكون قد لمس بنفسه دوافع هذا النفور من جانب المجتمعات التي عاش اليهود بين ظهرانيها؛ تلك المجتمعات التي ــ برغم وثنيتها ــ لم تتصدَّ لتصرفات اليهود المتسمة بالعنصرية البغيضة ولم يكن الدين أحد أسبابها. فمنذ أواخر العصر الفرعوني وحتى العصر الروماني عاش اليهود في مصر كأقلية عنصرية متميزة ذات شخصية واضحة المعالم، عرفنا أنهم برغم معيشتهم في وسطٍ غريب عنهم وفي ظل حكوماتٍ أجنبيةٍ ليس على دينهم، قد حافظوا إلى حدٍ ما على مقومات حياتهم الخاصة. ويُعزى الفضل في ذلك أولاً إلى استمساكهم بدينهم، فقد حرصت جالياتهم على تشييد البِيَع واتخذت مراكز دينية واجتماعية، فرأينا أنه كان لجالية الفنتين في القرن الخامس ق.م معبدها الكبير، ولجالية الإسكندرية في العصرين البَطْلَمي والروماني بَيْعتها الكبرى، وللجاليات الأقل أهمية بِيعها كذلك.

وبفضل التسامح الديني الذي ساد العصور القديمة استطاع اليهود أن يباشروا شعائر دينهم في حرية تامة دون تدخل من الدولة أو من جيرانهم. ويلاحظ أن معابدهم وبِيَعِهم لم تُدمَّر أو تغلق إلاَّ عقب اضطرابات سياسية كان اليهود أنفسهم في كثير من الأحيان سببَها. فقد دُمِّر معبد الفنتين نتيجة لغضب المصريين على تلك الجالية عندما اتخذت منها الإدارة الفارسية أداة لقهرهم وإذلالهم. وجاء تدمير بيعة الإسكندرية أثناء ثورة اليهود الكبرى ١١٥ ــ ١١٧م، التي تميزت بتدمير اليهود معابد غيرهم من الشعوب في برقة وفي مصر.

وقد ساعد اليهود كذلك على الاحتفاظ بعادتهم وجوهر حياتهم ثلاثة عوامل هي:

أولاً: أنه كلما توافر عدد كافٍ منهم في أي مدينة ينزلون بها حرصوا على تأليف جالية لهم. وقد تمتعت هذه الجاليات بقدر متفاوت من الامتيازات، لا شك أن جالية الإسكندرية كانت أوفرها حظاً من هذه الناحية، ومع ذلك فإن أفرادها لم يتمتعوا بحقوق المواطنة في تلك المدينة سواء في عصر البطالمة أم في العصر الروماني.

ثانياً: انطواء اليهود على أنفسهم بعد إعراض الإغريق عنهم وإغلاق المجتمع الإغريقي في وجوههم.

ثالثاً: كفاح اليهود المرير ضد أعدائهم:

ومع احتفاظ اليهود بجوهر حياتهم، فقد منعهم التكالب على أمور الدنيا وتحقيق المنافع المادية إلى مجاراة البيئة التي يباشرون فيها نشاطهم، فتركت فيهم كل من البيئة الإغريقية والبيئة المصرية آثاراً واضحة المعالم.

وإزاء نشاط اليهود في مختلف ميادين الحياة كان طبيعياً أيضاً أن تفرض عليهم الدولة الضرائب التي فرضتها على غيرهم من رعاياها. وفضلاً عن ذلك فقد كان اليهود يؤدون لهيكل أورشليم الضريبة التي ألزمتهم بها التوراة حتى سقطت أورشليم في قبضة القوات الرومانية ودُمِّر هيكلها وأمر فسباسيان أن يدفع يهود الإمبراطورية ومن بينهم يهود مصر، هذه الضريبة إلى معبد جوبيتر في روما رمزاً لانتصار هذا الإله الوثني على ربهم يهوه، أي أنها أضافت إلى ذلتهم الدينية إرهاقاً مالياً واضحاً، فضلاً عن شعورهم بالهوان عند إجراء عملية التَّعداد المصاحِبة لها، وتميَّز العصْر الرُّوماني أيضاً بإلزامهم بدفع ضريبة الرأس بقيمتها الكاملة مثل المصريين سواء بسواء، وقد عبّر كاتب سفر المكابيين الثالث عن مدى الشعور

العميق بالألم الذي كان يعتمل في صدور اليهود من جرّاء فرض ضريبة الرأس عليهم، ولذا رجحنا نسبة هذا الكتاب إلى العصر الروماني وعصر أغسطس بالذات.

وقد مرّ بنا أن ثمة كوارث فادحة حلّت باليهود، ولاسيما منذ عام ٣٨م عندما انفجرت روح العداء نحو السامية (Antisemitismus) أي نحو اليهودية كما يفضل بِلّ (Bell) التعبير عنها[١]. وتستمد هذه الكلمة أصولها من مبادىء التفرقة العنصرية بين الأجناس في العصور الحديثة، فقد اعتادت الشعوب الأوروبية أن تنظر إلى اليهود باعتبارهم من الجنس السامي الذي يختلف كل الاختلاف عن العناصر الآرية: أو الهندوأوروبية، التي أرست قواعد الحضارة والمدنية في العالم القديم، وتوارثها أسلافهم الأوروبيون، ولذلك يُعتبر اليهود عنصراً دخيلاً على هذه الحضارة، ومن ثم فليس لهم أن يجنوا ثمارها. ولم ينشأ هذا الشعور بالعداء نحو اليهود عن خلاف في الدين أو العقيدة بقدر ما نشأ عن صفات معينة اتّسموا بها. وهكذا كانت السامية في أوروبا في هذا الوقت مرادفةً لليهودية.

وإذا كان العصر البطْلمي قد مرّ بسلام فإن العصر الرُّوماني كان يحمل لليهود في طياته كثيراً من المحن التي تمثلت في تلك المصادمات الدامية التي تكرر حدوثها في الإسكندرية بين اليهود والإغريق في عام ٣٨م كما أسلفنا، واستدعى تدخل القوات الرومانية أحياناً وانتهت بذلك الصراع المروع ضد السلطات الرومانية، حين قام اليهود بثورتهم الكبرى (١١٥ ــ ١١٧م) التي خرجوا منها يترنحون تحت وطأة ضربات القوات الرومانية لهم على نحو ما فصّلنا الحديث من قبل.

---

(١) H.I. Bell: The Acts of Alexandria, IIP. IV, 1950, P. 2.

ومعنى «أنتي سيمتزم» الحرفى «ضد السامية» أو «المذهب المعادي للسامية».

وكما أسلفنا فإن البرديات تصوِّر لنا ــ إلى حد كبير ــ مظاهر العداء ضد اليهودية وتكشف عن أسبابه، حتى إن تلك الترديات توصف أحياناً بالأدب المناهض للسامية، لكثرة ما تناولته من الحديث عن المنازعات بين الإغريق واليهود. ويرى بعض المؤرخين أن الحركة المناهضة لليهودية كانت ــ في الواقع ــ موجَّهةً ضد روما، وأن الإغريق اتخذوا من اليهود ستاراً يخفون من ورائه حقدهم الدفين للرومان. وفي رأي فلكن (Flicon) كذلك أن الإغريق كرهوا من اليهود تأييدهم لحكم الرُّومان، وأن هذه البرديات تنهض دليلاً على ذلك، وتصف هذه البرديات اليهود بأنهم قوم ملحدون غلاظ يفتقرون إلى التربية والتعليم، ويجب إقصاؤهم عن شباب الإغريق وهيئة مواطنيهم.

كما لا يفوتنا في هذا المجال أن نشير ألى أن فكرة الصهيونية قد بدأت منذ السبي البابلي ــ كما أسلفنا ــ ، على أساس أنها تعبر عن الخلاص القومي لليهود ووجوب عودتهم إلى فلسطين. ثم تبلور هذا الاتجاه وبرز في الفكر اليهودي عندما دمَّر الإمبراطور الروماني إيليوس هادريان القدس عام ١٣٥، ثم أقام عليها مدينة جديدة أسماها «إيليا كابيتولينا» بعد أن قضى قضاء مبرماً على الكيان الذاتي والديني لليهود، ومنذ ذلك الوقت تقلَّصت أحلام المسيحانية (أي: عودة المسيح المخلِّص) عند اليهود. وقد أصبحت فكرة المسيح المخلِّص (المسيحانية)، ركناً من أركان العقيدة اليهودية. وواقع الأمر أن الحالم المسيحاني لم يُكفَّ عن مداعبة خيال اليهود منذ السبي البابلي وحتى القرن العشرين.

ومؤدَّى ذلك أن بني إسرائيل لم يستطيعوا أن يتخلَّصوا من دائهم القديم، وهو التعصب العنصري الذي لم يكتف بالقول بامتياز قومهم على غيرهم من الأمم بالإيمان بالله وتوحيده، بل قلبوا هذا إلى أحقاد يكرِّسونها باستمرار ضد الأمم الأخرى مدَّعين أنهم يتربعون على القمة في ترتيب شعور الأرض، وأن هذه المكانة كانت ــ كما يرون ــ بوحي إلهي، ومن هنا سَمّوا أنفسهم «شعب الله المختار».

وكان ذلك منطلقاً لتفرقة عنصرية رهيبة حتى أمام القانون، فمن ليس من بني إسرائيل لا تحميه الشريعة اليهودية لا تجازي المعتدي عليه من اليهود، كما أنهم وصلوا في ذلك إلى أن اليهودي بالنَّسب والعِرْق يظل هكذا، حتى لو ألحد أو ارتدَّ، بينما المتهوِّد يظلُّ منفصلاً من الشعب المختار مهما بلغ به الإيمان وامتثاله الشريعة. وهذا وحده دليلاً على انحرافهم عن تعاليم موسى، الذي أرسله الله رسولاً يهدم عبادة الأصنام وعبادة الإنسان للإنسان، ولكن يجعل العدل أساساً للتعامل بين الناس كافة، وهذا هو جوهر دعوته لفرعون مصر.

ومن هنا كان بقاؤهم السياسي في فلسطين مهتزاً دائماً وعرضة للتدمير، شهد بذلك أنبياؤهم وهم يخطبون فيهم داخل فلسطين، فنبيُّهم «إشعيا» حوالي عام ٧٤٠ ق.م يذكرهم بأن تصدُّع كيانهم من تلك الأرض وتسلّط من لا يرحمهم ولا يخاف الله فيهم، إنما هو جزاء عادل لما ارتكبوه من موبقات وآثام. وكان بهذا يبشّر بزوال الكيان الشمالي لبني إسرائيل (٧٢٢ ق.م) من فلسطين، والذي يسميه المؤرخون «مملكة إسرائيل». كما كرر الأفكار نفسها نبيهم «إرميا» (٥٨٧ ق.م) بجانب جدران المعبد في أورشليم وهو يأمرهم بالاستسلام لنبوخَذْنصّر (بختنصر) الكِلداني، لأن ما فعله بهم إنما هو جزاء عادل من الله حلَّ بهم، وأنهم إذا رفضوا عقوبة الله فإنها ستتضاعف، وسيكثر فيهم القتل والتشريدُ والتدمير، ولكنهم عَصَوا نبيهم، وأرسلوا وراءه من يقتله بعد وقوع الكارثة.

وهكذا نرى تشابهاً بين العوامل التي أدت إلى معاداة اليهود في العصور القديمة، وتلك التي أدَّت إلى مناصبتهم العداء في العصور الحديثة. ولذلك لعلنا لا نسرف في الرأي إذا اعتبرنا أن مسؤولية النكبات التي كانت تحل باليهود إنما تقع عليهم بسبب سلوكهم وصفاتهم التي تأصلت فيهم ولازمتهم طوال عصور التاريخ.



الفهـرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
المصادر اليهودية في التشريع والتاريخ	١١
العهد القديم	١٣
المِشْنا	١٧
المدراش	١٩
التلمود	٢٠
الفصل الأول: الأسلاف ومجيئهم إلى كنعان	٢٣
الشك المتعلق بآثار وتاريخية الأسلاف	٢٥
المرحلة الأولى من عصر البرونز الأوسط	٤٠
الأسلاف والمرحلة الأولى من عصر البرونز	٤٣
عصر الأسلاف والمرحلة الثانية من عصر البرونز الأوسط وعصر البرونز الحديث	٤٥
يعقوب ودخول بني إسرائيل إلى مصر	٥٢
موسى والخروج من مصر	٥٥
مخالفة السياق القرآني لقصة هارون والعجل الذهبي في التوراة	٥٧
التمهيد لغزو كنعان	٦٢
الغزو الإسرائيلي لكنعان	٦٥
الفصل الثاني: داود ومملكة بني فلسطين إسرائيل	٦٩
عصر القضاة وعرب فلسطين	٧١
داود وتماسك الأسباط الاثني عشر	٧٤
سليمان وانقسام مملكة بني إسرائيل	٧٩

مملكتي إسرائيل ويهوذا في عهدي رحبعام بن سليمان ويربعام الأول ٨٨
خطايا يربعام الأول ٩٦
الوثنية الكفائية وتأثيرها على الفكر الديني في المملكة الشمالية ١٠١
حملة ششنق ضد مملكتي يهوذا وإسرائيل ١٠٤
عمري وبناء السامرة كعاصمة لإسرائيل ١١٠
عمري وعلاقاته الدولية ١١٥
ملوك إسرائيل بعد عمري ١١٧
ياهو ملك إسرائيل ١٢٩
الفصل الثالث: التغريب الآشوري والسبي البابلي ١٤٩
سقوط السامرة ١٥١
مملكة يهوذا منذ سقوط السامرة وحتى تدمير بختنصر للقدس ١٥٦
يوشياهو والحركة الإصلاحية ١٦٠
سقوط القدس والسبي البابلي ١٦٤
أوضاع يهوذ السبي البابلي وأسطورة العودة ١٦٧
العصر الفارسي ١٧٢
الشقاق بين الطوائف اليهودية عند إعادة بناء المعبد ١٧٩
الديانة اليهودية وصراعها مع الوثنية حتى عصر الإسكندر ١٩١
تأثير الديانة الكنعانية على الديانة اليهودية ١٩٩
إرميا وسفره في التراث الديني اليهودي ٢٠٤
الفصل الرابع: اليهود في العصرين الهلّينستي والروماني ٢٠٩
يهود فلسطين ومصر في العصر الهلّينستي ٢١١
الفصائل المتأغرقة والخروج على الشريعة اليهودية ٢٢٣
يهود فلسطين ومصر في العصر الروماني ٢٣٠
يهود برقة في العصرين اليوناني والروماني ٢٤٨
خاتمة ٢٥٩

• • •

جدول الخطأ والصواب لكتاب « اليهود في العالم القديم »

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٦	من الأمم	في الأمم
١٦	٦	وضبح	نوضح
٢١	١٨	من نظر	في نظر
٢٨	١٣	من موقع	في موقع
	١٤	من منطقة	في منطقة
٣٠	نوت(١)سطر١٣	الواِقدي	الرافدين
٣١	٩	نَبْذِهِ	نَبْذِهِ
٣٣	١١	الآراميون	الآراميين
٧٣	٢	شارول	شاءول
٧٦	٣	قطعة	قلعة
	٦	من نقوش	في نقوش
٩٥	٥	مث	مثل
١٠١	١	الكفائية	الكنعانية
١٠٦	١٦	رجبعام	رحبعام
١٠٨	١٦	بن هود	بن هدد
١١٠	٤	من السنة	في السنة
١١١	٤	بالعنصري	بالعنصر
	١١	من حصارها	في حصارها
١١٦	١١	كان تم	كان قد تم
١١٧	نوت (٢)	نهى	فهي
١٢٣	٩	عمى	عمري
١٢٧	١٩	تمليذ	تلميذ
١٢٩	نوت (٢)	.Adam	R. Adam
١٣١	٤	٧٩٦/٧٩٦	٧٩٦/٧٩٧
١٣٦	٨	يءوآسن	يوآش
	٨	بنهود	بنهدد
١٤٢	٤	وكلنت	وكانت
	١٦	وضوحلاً	وضوحاً

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٥٢	٩	عمى	عمري
١٥٧	١١	لساحل	الساحل
١٦١	١٧	إذ أن	إذ إن
١٦٨	١٤	زينوى	نينوى
	١٦	قزينيا	قزيفيا
١٦٩	٦	مرُودج	مرُودخ
	نوت (٢)	فلح	فالح
١٧٢	٧	وجادت	وجاءت
١٧٣	٥	الوضاح	الواضح
١٧٥	٤	ليهود	لليهود
١٨٣	١	المنقى	المنفى
١٨٨	١	للعودا	للعودة
	٣	وجد	وجد مجتمعا
	٧	إشار	أشار
١٩٠	٧	تسويفتا	توسيفتا
٢١٨	١٣	يقولون	يتولون
٢١٩	٥	يتمو	يتم
٢٣٨	نوت (١)	(١٠٧)	(ص ١٠٧)
٢٤٤	٨	بين	بني
	١٤	بالذاب	بالذات
٢٥٠	١٠	عادتهم	عاداتهم
٢٥١	١	بتمويل	بتحويل
	٦	نهائية	نهائياً
٢٥٤	٨	بالنعل	بالفعل
٢٥٩	٥	الإسنكدرية	الإسكندرية
٢٦١	٢	الترديات	البرديات
٢٦٤	٣	الكفائية	الكنعانية
الغلاف		أستاذ اللغات السياحية المشارك	أستاذ اللغات السامية المشارك

تطلب جميع كتبنا من:
دار القلم: دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية: بيروت: ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
تـوزع جـمـيع كتـبنا فـي السعودية
عـن طـريـق دار البشير للنشر
جدة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥
هاتف وفاكس: ٦٦٠٨٩٠٤
هاتف: ٦٦٥٧٦٢١